نشأة النحو العربي

في مدرستي البصرة والكوفة

تأليف

الدكتور طلال علامة

أستاذ اللغة العربية في الجامعة اللبنانية
كلية الاعلام والتوثيق - معهد الفنون الجميلة

دار
الفكر اللبناني

نشأة
النحو العربي
في مدرستي
البصرة والكوفة

تأليف
دكتور طلال علامة
أستاذ اللغة العربية في الجامعة اللبنانية
كلية العلوم والتربية - معهد الفنون الجميلة

دار الفكر اللبناني
بيروت

دار الفكر اللبناني
للطباعة والنشر
كورنيش المزرعة - تجاه غلوب سنتر
هاتف: ٣١٥٠٦٨ - ٨٦٣٣٩٣
ص.ب: ١٤٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلكس: DAFKLB 23948 LE - بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٢

مطابع يوسف بيضون

تمهيـــد

حول الوضـــع اللغوي عند قدامى العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

النحو كما هو معروف ، واحد من أهم العلوم الأولى التي ظهرت ونضجت في القرنين الهجريين : الأول ، والثاني . وركن رئيس من أركان النهضة العلمية الواسعة التي ترتّبت بعد الإسلام ، وشكّلت الحضارة الإسلامية . بعد أن سبق غيره من العلوم في الوجود ، وبعد أن قيضت له مكانة مركزية رتّبت الأمور العلمية بما يناسبه ، ويوافقه ، لاعتماد العلوم عليه ، وحاجتها إليه ؛ كونه العلم الذي يصون اللسان عن الخطأ ، كما يمكّن من إجادة العربية لغة الدين ، والحضارة ، والعلم . ولذا اشتدّ التنافس بين العلماء لإحرازه . يحدوهم إلى ذلك أسباب متعددة منها فضله علماً على غيره من العلوم ، وتقدّم أصحابه على غيرهم من العلماء ، وريادته في الإمكانات التي يقدمها لدارسيه لأنه المدخل إلى دراسة العلوم الدينية الأولى التي قامت لخدمة القرآن ، وهو أهمها ، ودوره في نيل المراتب التي يؤمنها لأصحابه بعد أن أصبح لفترة معينة ـ أهم ما يساعد على التصدُّر في المجالس الخاصة ، والعامة ، كما كانوا يرون .

ومع العودة إلى التاريخ القديم والحديث الخاصين بالنحو . يمكننا أن نرى أن الموضوع لم يُوفَ حقه من التحقيق ، والتمحيص خاصة من ناحية إعتماد المنهجية الصحيحة القائمة على الاستقراء ، والانطلاق من الواقع الكائن لا المتصوَّر ، أو المفروض . ففي القديم نلاحظ تركيز أصحابه على الانطلاق من زاوية متفردة ، ومن وجهة نظر خاصة قائمة على الانتماء المدرسي ، أو التعصُّب العلمي لفئة دون أخرى فضلاً عن فقدان إحاطة المتقدمين بالموضوع إحاطة تامة ، أي تقصيرهم في دراسته

دراسة وافية شاملة لأجزائه المتناثرة . ولذا قصروا أعمالهم على الحديث عن رجاله وفق طبقاتهم[1] بنقل أخبارهم الخاصة به إلى جانب حديثهم عن أمورهم العامة المتعلقة بشخصياتهم ونزعاتهم من دون أن يعالجوا الموضوع بمنهج علمي معيَّن ينطلق من مقدمات صحيحة لتنتهي بنتائج صحيحة . كالذي كان من نسبة الدؤلي إلى مدرسة البصرة ، انتماءً مدرسياً ، ومذهبياً متعمداً . علماً أن هذا الموضوع لم يكن إلّا لمرحلة متأخرة بدأت مع الخليل ، وسيبويه . أو كالخلاف حول نسبة النحو إلى الإمام علي ، أو إلى الدؤلي أو إلى غيرهما ووقوف أغلب الآراء إلى جانب علي ، والدؤلي بتلمذة الثاني للأوّل ، ونشره لمبادىء العلم المأخوذ عنه . أو كتفضيل مدرسة البصرة النحوية على مثيلتها الكوفية لا بعرض المسائل العلمية بصور مجرَّدة منصفة ، وإنما بإظهار العصبية لها ، وتفضيلها على الأخيرة لمجرَّد التفضيل القائم على الانتماء لها ، والدرس عليها . بعد إهمال آراء غيرها ، والإغضاء منها ، والهزء بها ، وبأصحابها ، إن ذكروا ، وذكرت مسائلهم ، هذا فضلاً عن أن القدماء ، وإن أحاطوا بدراسة النشأة ومتعلقاتها فإنهم قد عالجوها بتوسُّع ، وتشتت فاضحين . كما أنهم لم يلمُّوا بل لم يتنبهوا أصلاً إلى موضوع علمي منهجي يفرض سرد المسائل ومقارنتها في السياق النحوي العام . وكان ذلك مع أبي الطيِّب اللغوي ، وأبي سعيد السيرافي ، والزبيدي ، والأنباري ، وياقوت ، والقفطي ، والسيوطي ، وغيرهم في كتبهم[2] . وفي التاريخ الحديث يطالعنا إضطراب أصحابه في معالجتهم للموضوع . فنحن نلاحظ أنهم انطلقوا من أمور انتهت إلينا عن الأقدمين تنافي الواقع ، والاستقراء الصحيح الشامل ، كما تنافي الحقيقة العلمية الغاية الأخيرة لكل باحث وبحث ، بعد أن اعتبروها من المسلمات التي لا تحتاج إلى مناقشة أو مراجعة . بينما أبطلوا القول بأمور أكَّدها التواتر ، وأيَّدها الدارسون على مرِّ العصور ، بعد إعمالهم للفكر الخاص في الاستنتاج من دون الاعتماد على حجة تاريخية ، أو قرينة سندية تؤكد وجهة النظر

(١) راجع كتاب الطبقة والنحو ، بيروت ، دار الفكر اللبناني ١٩٩٢ .

(٢) ونحن نذكرها على التالي : مراتب النحويين ، وأخبار النحويين البصريين ، ونزهة الألباء ، ومعجم الأدباء ، وأنباه الرواة ، وبغية الوعاة ، ومع هذه الكتب الأشهر في الموضوع نذكر غيرها مما تحدث عن الموضوع كالمبرِّد والنحّاس ، وابن درُستويه وكل منهم كتب في الطبقات النحوية .

الخاصة تلك ، تبطل التواتر القائم ، والاتفاق الحاصل ، كالذي كان في موافقتهم على ما جاء به المتقدمون في تقديم البصريين على الكوفيين في المكانة النحوية ، وفي الدور العلمي . حيث لم يسلم أغلبهم إن لم نقل كلهم من التعصُّب لأحد الفريقين ، وعامة هو الفريق البصري ، إذ أن النحو حسب هؤلاء بصري ، وليس غير ذلك . ولذا قالوا بتأخر البدايات النحوية عند الكوفيين إلى أيام الرؤاسي . من دون أن يحاولوا التحقق من الواقع في الموضوع لمجرد أنه جاء عن المتقدمين الذين أرّخوا له ، وقد فاتهم أنهم من البصريين . إذ لم تصلنا كتب غيرهم ، ولذا فهم لم يحاولوا الوصول إلى الواقع المخالف لهذا الشياع غير المُطَمْئِن . كما وافقوا المتقدمين على معاملة النحو البصري معاملة المسلَّمات ، والبدهيات التي لا تقبل الجدل ، والتي لا مفر من القبول بها . بينما عاملوا النحو الكوفي بأنواع التفكير الجاهدة لإبطاله ، وإظهار ضعفه ، وقصوره ، وفساده . وما ذلك إلاّ لتأثرهم بمقولات البصريين التي انتهت إليهم بينما غابت عنهم أمور الكوفيين إلى درجة أصبحت معها كلمة كوفي مرادفة لعدم الدقة ، ولشق عصا الطاعة ، ولخفة العلم ، وخطأ الرأي . هذا من حيث الموافقة أما من حيث المخالفة فقد رفض أغلب المحدثين آراء المتقدمين في أولية عمل الإمام علي في النحو ، وتجاوز بعضهم الرفض إلى إبطال دور الدؤلي أيضاً ، لشبهات سيردُّها البحث علماً أن هذا الأمر لم يختلف عنده اثنان من المتقدمين على اختلاف نزعاتهم ، ومذاهبهم في الرأي ، والاعتقاد . هذا فضلاً عن أنهم لم يوفقوا في دراسة موضوع النشأة عامة ، فأخطأوا فيه ، وارتكبوا عند حديثهم عنه أفدح الأخطاء قصوراً حيناً ، وتقصيراً حيناً آخر . إضافة إلى عدم دراستهم لموضوع البحث حسب المسائل العلمية المتساوقة منذ البداية ، وحتى النضج كما كان مع زيدان ، والرافعي ، وأحمد أمين ، وسعيد الأفغاني ، وإبراهيم مصطفى ، وإبراهيم أنيس ، وبروكلمان ، ودائرة المعارف[1] .

---

(١) وهي على التالي ، تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص: ٢٢٥ ـ ٢٣٥ ، وتاريخ آداب العرب ج ١ ص: ٢٧٥ ـ ٢٨٧ وفجر الإسلام ، وضحى الإسلام ص: ٢٨٥ ـ ٢٩٠ وفي أصول النحو ص: ٧٠ ـ ٨٣ وإحياء النحو ، ومن أسرار اللغة ، وتاريخ الأدب العربي ج ٤ ص: ٢٠ ـ ٨٨٠ ودائرة المعارف الإسلامية نفسها مادة نحو .

ولذا فإن هذا الكتاب يعالج موضوع علم النحو في مراحله الأولى . حداً أولاً له مع الدؤلي المتوفى ٦٩ هـ ، حيث يناقش الأمر باستقراء متدرِّج متلاحق يعرض للدقائق والمتعلِّقات ، ويتابعها مع مدرستي البصرة ، والكوفة حتى النهاية التي حدَّدها بسنة ٣٢٣ هـ حداً ثانياً ؛ أُرِّخ فيه لنهاية مدرسة الكوفة .

على أمل أن تسدَّ الدراسة ثغرة مهمة في تاريخنا العلمي للنحو العربي . إذ لم تعرض دراسة أخرى للموضوع حتى الآن بالشكل الوافي الذي عرض له البحث . ولم يتصدَّ أحد للموضوع إنطلاقاً من المسائل العلمية ، لا الأخبار التاريخية التي جاء بها القدماء عن رجال الطبقات من النحاة حسب آرائهم الخاصة بهم ، والمحتاجة إلى كثير من المراجعة ، والمحاسبة .

ومع تسطير هذه المقدمة ، لا يفوتنا الإشارة إلى الأسباب الداعية لهذه الدراسة وقد حكمتها التوجهات الأربعة التالية :

أ ـ ميل شخصي لمعرفة أخبار النحو ، والنحاة بشكل عام ، مع الإحاطة بموضوع النشأة الخاصة بهذا العلم الذي أدهشنا منذ المرحلة الابتدائية ، بمنطقيته وسحره ، حيث كان التنافس في أيامنا على أشده في إحراز الإعراب الصحيح . مع الإلمام ببعض المسائل المتعلقة به كمسألة إعجام الحروف وإهمالها ، ومسألة حركات الإعراب وعلاماته . الأمور التي فتح أعيننا عليها أساتذتنا منذ المرحلة الأولى . وقد نضج هذا الميل مع المراحل اللاحقة من متوسطة ، وثانوية ، واكتمل مع الأكاديميَّة حيث كان تحصيلي مهتماً ، منذ البداية بكل ما يمتُّ بصلة إلى علم النحو ، والنحاة .

ب ـ ميل نحو تحرِّي الحقيقة في موضوع النشأة بعد فتح العين على أمور الخلاف المتعلِّقة بها . إثر الدراسة الجامعة ، والمطالعة المكثفة في الموضوع . حيث تمَّ الوقوف على ذلك التضارب في الروايات المتحدثة عن البدايات النحوية . وأسوق على سبيل المثال لا الحصر بعض الأمثلة . فبينما يثبت هذا دور الإمام علي في مجال النحو ، بإشارته على أبي الأسود ، ينفيه ذاك ، وبينما يثبت هذا العالم دور الدؤلي يرفضه الآخر ، وبينما يؤكد دارس أن هذا الموضوع هو أول الممارسات في

النحو . ولذا دافعني شوق المعرفة ، ونهم الفضول العلمي ، مع حاجة التحصيل إلى السير قدماً في اختيار الموضوع .

ج ـ حاجة ملحَّة يؤكدها عدم وجود دراسة متخصصة شاملة لتاريخ النحو ـ طبق المنهج الاستقرائي البحت والمتجرِّد ـ أضف أن الموضوع لم يعرف حتى الآن بشكل علمي مجرَّد يعتمد الاستقراء القائم على استنطاق المسائل العلمية ، بتتبُّع الأمور المنهجية فيها من دون الاهتمام بالأمور الأخرى المتعلِّقة بالنواحي الشخصية ، والخلقية ، والمسلكية ، الخاصة بالعالم . حيث يتمُّ رصد الخلاف ، والمراحل العلمية التي مرَّ فيها النحو ، والعلوم النظرية التي تأثَّر بها ، وبمناهج البحث فيها .

د ـ كون الموضوع ناقص المعالجة ويحكمه الاضطراب إلى درجة غير معقولة بعد أن تعرَّضت البحوث الحديثة في النحو لناحية ، أو أكثر منه . كل بحث حسب إرادة صاحبه ؛ مما أساء إليه بشكل ملحوظ . وهذا أوجد الحاجة إلى دراسة تعتمد المنهج النحوي القائم على ترتيب المسائل وفق سياق نحوي واحد ، عام خطَّه الزبيدي في طبقاته التي طبَّق بها النحويين . بعد أن كانت منهجية الزبيدي في طبقاته هي المنهجية الأصلح للتطبيق على الطبقات في علم النحو[1] .

أما بالنسبة إلى المنهج الذي سيعتمد في هذا البحث فيمكن أن يحدَّد بالأمور التالية :

أولاً : الانطلاق من دراسة المسائل بشكل علمي منهجي ، لتأخذ الحقيقة طريقها ، والحجة دورها . وبهذا يتم استنطاق هذه المسائل بعد إلقاء السؤال عليها عبر طريقة قراءة ما بين السطور وصولاً إلى الحقيقة الواقعة ، لا المرجوة ، أو المفروضة .

ثانياً : إيراد الحقائق التاريخية مؤكَّدةً بأوسع ما يصل إليه الجهد . حيث تدعو الحاجة إلى إبرازها ؛ لتمييز الخطأ من الصواب .

ثالثاً : اعتماد الاستقراء إنطلاقاً من الخاص إلى العام ، ومن الجزئي إلى

---

(١) راجع الطبقة والنحو ، بيروت ، دار الفكر اللبناني ١٩٩٢ م .

الكلي ، إيماناً مني بأنه طريقة علمية صالحة ، للوصول إلى الحكم الأدق في المسائل التي تحتاج إلى الدقة في الرأي ، والتعريف ، والتعرُّف ، والمقارنة ، والاستنتاج .

رابعاً : الابتعاد عن إصدار الأحكام غير المدعومة بالحجج والتقيُّد بالحجة ، والدليل اللذين يوجبان القبول ، أو الرفض إلتزاماً بالمنهج العلمي ، والأسلوب البرهاني .

خامساً : احترام العالم بمحاكمة فكره بالموضوعية التي تفرضها طبيعة الموضوع من دون التأثر بذلك الرأي أو الفكر ، أو التأثُّر بالآراء الذائعة المشهورة التي قيلت فيه ، أو عنه عند احتمال الانطلاق في إصدارها من منطلق العصبية أو الميل ، أو الهوى ، والممالأة .

سادساً : التزام جانب الحياد في عرض المسائل العلمية . وبشكل خاص عند دراسة أثر المدرستين : البصرية ، والكوفية في العمل النحوي العام . لتكون الأحكام أقرب ما يكون من الصحة .

سابعاً : استعمال ما أمكن من مناهج التفكير ، والتعبير ، ونعني بهذا أساليب المؤرخ ، والأديب ، واللغوي ، والفيلسوف ، والنحوي ، والرياضي ، والفقيه ، وعالم الأنساب ، والعالم الاجتماعي ، إلى جانب الأسلوب الموسوعي ، لتأثُّر علم النحو بهذه الأساليب مجتمعة ، وللوصول إلى ما يمكن الإحاطة به من الموضوع .

وعليه نستطيع أن نقول : إن البحث لم يخص نفسه باستعمال منهج واحد لدراسة النحو العربي ؛ لطبيعة الموضوع أولاً ، وحباً بالمعالجة الشاملة وغير المجتزأة ثانياً . ولذا يمكن نعت المنهج بأنه منهج تاريخي تسجيلي ، وإستقرائي ، وصفي ، وتحليلي استنتاجي في آنٍ معاً . لأنه يستخدم الواحد من هذه المناهج وفق الحاجة التي تستدعي التوثيق بالحجج ، أو التوسُّع في التطبيق والمراقبة أو المقارنة والاستنتاج .

أما مواد الكتاب فقد جاءت على الشكل التالي : مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة .

مع المقدمة كان عرض لبدايات الموضوع حيث أحرز المرتبة الأولى من علوم الـوسائل . مع مـا رافق انطلاقتـه من تساؤلات واضـطراب في التمذهب والانتمـاء المدرسي . كما عرضت المقدمة لسبب وجود الكتاب ، وللمنهجية المتبعة فيه .

ثم مع التمهيد عرضنا للوضع اللغوي عند العرب في الجاهلية والإسلام مع ما حكم ذلك من تطوُّر وفساد لغويـين .

ومع الباب الأول المعنوّن « نشأة النحو بين التسمية والتأصيل » . فقد قسمناه إلى فصلين أشرنا في الأول إلى التسمية ومعناها ومكانة وحدّ هـذا العلم من اللغة ، ومـاهيته . وعرضنا في الفصـل الثاني إلى أمـور : أنواع النحـو وغايته ، والسليقة ودورها ، ومكانة كل منهما بالنسبة للغة .

ومع الباب الثاني وعنوانه « العوامل التي أدت إلى وضع النحو العربي » قسمناه إلى أربعة فصول وعرضنا في الأول منها لموضوع انتشار اللحن وأسبابه الـداعية إلى وجوده . وفي الثاني عرضنا لنظرية تؤكـد على وجود اللحن في الشعـر الجاهلي مـع الأمثلة الـدامغة على ذلـك رداً على من ينكر ذلـك وينفيه تمـاماً عنـدما يجعـل لغـة الجاهليـين خالية من أيِّ عيـب . كما عرضنا في الثالث لمنشأ اللحن ومسببـاته مـع مقارنة اللحن بالخطأ لوضع الفارق بينهما . وفي الرابع من الفصـول عرضـنـا لأقسام اللحن وأنواعه فوزعناها على الزمان والمكان والموضوع . كما عرضنا فيه لطرق جبه النحويـين الأوائل للحن ، وطرق تعقيدهم للقواعد على أسس لفظية سابقة .

أما في الباب الثالث الموسوم « أثر القرآن في وضع النحو » فقد حصرنا فيه بعد قسمته إلى فصلين أثر القرآن في معالجة اللحون الطارئة بعد وصول اللحن إلى آياته . ودور القرآن في تثبيت لهجة قريش كعامل وحيد دون أي شيء آخر .

ومع الباب الرابع وعنوانه « تأريخ النحو العلمي » قسمناه إلى ثلاثة فصول . في الأول منها عالجنا أسباب وضع النحو مع الدؤلي وحـددنا مـاهية العلم عنـده وسبب إيجاده للنحو بين سيـل من الروايات المتضاربـة ، وقصرنـا عليه دور وضـع أول نحو علمي . ومـع الفصل الثـاني لأعمـال مـرحلة النحـو الأولى مـع اللبنـات الأولى في الإعراب بالعلامات والحركات . وبيَّنا أسباب اعتماد حركـات الأواخر من الكلمـات

كما نفينا الشبهة في تسمية أعمال النحو الأولى بهذا الاسم .

ومع الفصل الثالث عرضنا لأخبار وضع النحو مع المتقدمين والمحدثين باستقصاء تام يعتمد المنهج المتبع في الكتاب وقسمناهم إلى : موافق ، ومشترط ، ورافض . وناقشنا كلاً في رأيه بموضوعية تعتمد وضع النقاط على الحروف .

وأخيراً أرجو أن يكون هذا الكتاب قد أغنى في بابه ببعض جديده وتجرُّده في أحكامه .

والحمد لله ربِّ العالمين

أضواء على الوضع اللغوي عند قدامى العرب

إن العودة إلى الدراسات المتخصِّصة في تاريخ اللغة العربية وآدابها[١] . تمكّننا من استخلاص بعض الحقائق الموضوعية المختصّة بالناحية الفكرية السائدة في جزيرة العرب قبيل الإسلام وبعده .

من ذلك ما هو شائع ومعروف حول تفوُّق العربي الجاهلي في ميدان القريض ، حيث ظهرت مواهبه ، بطفرة شعرية . إذ كان حب الشعر لديه الظاهرة الأولى في حياته الثقافية[٢] .

ومنه ما يُروى في شأن نشأة الأدب . حيث أكثر الدارسون من استخلاص التخريجات والتأويلات[٣] . شأنهم مع بقية الآداب العالمية . فالأدب العربي مثل سائر الآداب الإنسانية عند الشعوب . ظهر بطفرة شعرية رفيعة المستوى من الناحيتين : الأسلوبية والبلاغية .

ومنه ما نعرفه عن موضوع تعدد اللهجات ، وتوحُّدها[٤] . الأمر الذي سار سريعاً

---

(١) انظر على سبيل التمثل لا الحصر لبروكلمان تاريخ الأدب العربي ، ولبلاشير تاريخ الأدب العربي ، ولفليش ، مقدمة لدراسة اللغات السامية .

(٢) بلاشير ، تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ص: ٩٤ .

(٣) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ص: ١٣ ـ ٣٤ ، وفليش مقدمة لدراسة السامية ، ص ١٠١ ـ ١٠٤ ، وبلاشير ؛ تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ص: ٧ و ٨ وص: ١٠٢ ـ ١٠٦ .

(٤) بلاشير ، تاريخ الأدب العربي ، ص: ٧٧ ـ ٩٠ وص: ٩١ ـ ١٠٦ ، وفليش ، المقدمة ص: ٩٥ ـ ١٥٥ .

وبخطى ثابتة ، والذي أدّى بدوره إلى تكامل الفصحى بشهادة نصوص الشعر الجاهلي الذي يرجع أقدمها إلى القرن الخامس الميلادي[1] حيث سجّل هذا التاريخ تقارب لهجات القبائل ، مما أنتج لغة أدبية عامّة ينظم بها شعراء العرب أشعارهم . ليتمكنوا من إلقائها في الأسواق العامة التي كانت تجمعهم[2] ، والتي استطاعت قريش بفضلها أن تفرض زعامة لغتها ، لمكانتها السياسية ، والاقتصادية والدينية . الأمور التي تدعّمت بعد تهديد اليهودية ، والنصرانية للوثنية العربية في عقر دارها[3] .

هذا بعض ما وصلنا عن الوضع اللغوي في مرحلة الجاهلية . ومع انتقالنا إلى العصر الإسلامي ، وبملاحظة الفعل الذي جاء به الدين الجديد عندما حضّ على طلب العلم وإكرام العلماء ، وبالتعليق ، على ردّة الفعل الحاصلة من قبل المسلمين . يلفت أنظارنا أمور مهمة بدأت بالظهور مع نهاية القرن الهجري الأوّل وبداية القرن الثاني . حيث يبدأ الانتظام في مدارس علمية متخصّصة توجّه العمل اللغوي والنحوي[4] . وحيث تحتل الدراسات اللغوية والنحوية مكانة رئيسة بين الدراسات الأخرى ، ولا نتأخر حتى تطالعنا أسماء مؤلفات مشهورة في التاريخ النحوي ، من مثل الإكمال ، والجامع ، والكتاب[5] . ومع سيرنا نحو الأمام يزداد الأمر وضوحاً ، وتظهر الحقائق جلية . نظراً للتحوّل السريع من الأمّية إلى العلم ، ومن الحفظ إلى التدوين ، مع ازدياد عدد العلماء والمتخصصين في أمور اللغة والنحو . ولكن هذا الوضوح ليس نهائياً ؛ لأنه وإن تمّ إرساء المبادىء الخاصة بكل مدرسة بشكل أو بآخر . وإن كتبت الغلبة لإحدى المدرستين : البصرية أو الكوفية . فما تزال هناك حلقة مفقودة لا بد من إيجادها لتتم السلسلة ، وإطار الدائرة . فنحن أمام روايات

---

(١) السامرائي ، إبراهيم . التطوُّر اللغوي التاريخي ص: ٢٢ ، والصفحات ٣٣ ـ ٣٥ من هذا الكتاب .

(٢) م . ن . ص: ٢٤ .

(٣) ضيف ، شوقي ، تاريخ الأدب العربي ، ص: ١١٨ ـ ١٣٧ .

(٤) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج ٢ ص: ١٠٠ ـ ٢٠٠ ودائرة المعارف الإسلامية مادة نحو .

(٥) أسماء لكتب نحوية مشهورة . الكتابان الأول والثاني هما لعيسى بن عمر وقد فقدا تماماً ولا نعرف عنهما أكثر من الخبر ، أما الكتاب الثالث فهو لسيبويه .

متضاربة متناقضة عن بدايات النحو ، والدراسات فيه[1] . بل نحن أمام خلاف مهيب ، شغل الأقدمين ، وما زال يشغل المحدثين . كيف تمَّ تقعيد القواعد ؟ وما هو الوضع الحقيقي الذي كان قائماً ؟ وما هي أصح اللهجات ؟ وهل هناك محاكاة معينة اتَّبعها العلماء قبل وضعهم للقواعد ؟ وهل كان إستقراؤهم للغة العرب شاملاً محيطاً ، أم كان ناقصاً ضيقاً ؟ اضطروا معه إلى القول بالشذوذ الذي يحكم اللغة العربية كما يحكم غيرها عند الحديث عن القواعد ، والنحو .

إن السبيل الأصح لمعرفة الحقيقة العلمية ، بين هذا السيل الجارف من الروايات ؟ هو اعتماد دراسة تبيِّن الهدى خاصة مع إعمال كل دارس لوجهة نظره الخاصة في الاستنتاج ، والتحليل . ومع العودة التاريخية إلى البدايات الأولى في التأليف النحوي عند المسلمين . نلاحظ أن هذا العمل رافق مرحلة وعي الأمة بعد الفتوحات في أرض العراق ، والشام . وبعد مخالطة الفرس والروم . فقد دفعت الأوضاع الجديدة الناشئة التي أعقبت الفتوحات والتوسُّع العسكري والجغرافي ، جمهوراً كبيراً من العلماء إلى جمع ألفاظ اللغة ، وأشعار العرب ، في الجاهلية والإسلام ، يحدوهم إلى ذلك أسباب عديدة من أهمها : حاجة الشعوب الأجنبية التي دخلت الإسلام إلى تعلُّم لغة القرآن الكريم ، وشيوع اللحن على ألسنة الموالي ، وعلى ألسنة بعض العرب ، لاختلاطهم بغيرهم من الشعوب ، مما أضعف السليقة العربية التي تجافي الحضارة ، والشعوب المتحضرة ، وتوافق البداوة ، والحياة الصحراوية[2] . أضف إلى ذلك الأثر المهم الذي خلَّفه الزواج بغير العربيات ، والذي يمكن إعتباره من أهم الأسباب الآيلة إلى الضعف اللغوي الطارىء والحاصل ، بملاحظة أن الأجيال الجديدة التي نشأت في حجور أمهات فارسيات ، أو روميات ، أو حبشيات ، أو غير ذلك لن تتمكن من إحراز الملكة اللغوية التي

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ؛ مادة نحو ، وتصريف ، وبلاشير في تاريخ الأدب العربي ج ١ ص: ٣٠ ـ ١٠٦ وبروكلمان ، في تاريخ الأدب العربي ج ١ ص: ٢٢ ـ ٨٧ وفليش في مقدمة لدراسة الساميات ص: ٩٥ ـ ١٠٥ .

(٢) راجع ذلك الصفحة ٣٥ من هذا الكتاب وما بعدها تحت عنوان السليقة العربية وأثرها في النحو .

تمكّنها من نطق الفصحى دون لحن أو خطأ[1] .

لهذه الأسباب ولغيرها مما سيتبين لاحقاً ، إنبرى علماء البصرة والكوفة يجمعون اللغة بألفاظها حتى لا تفنى العربية ـ لغة الوحي ـ وحتى تسلم لها مقوماتها الأصلية ، وحتى تنفي عنها وتطرح شوائب اللهجات القبلية . وتشويهات الأخلاط الأعجمية التي اضطرت إلى استخدام العربية من غير معرفة بها .

وهكذا وبملاحظة الأسباب المتقدمة مجتمعة ، أصبح النحو باباً مهماً من أبواب العلوم الأولى التي ظهرت ونضجت في القرنين الهجريين : الأول ، والثاني . فقد شغل حيزاً مهماً ، ظهر أثره في عدد المتفرغين له ، والعاملين على إحرازه للتصدُّر في المجالس باسمه ، وحباً بالمحافظة على اللغة العربية ، والوحي ، الذي كتب بها ، لحمايتها ، من أيدي العبث . وما تلك المدارس التي نشأت فيما بعد إلّا خير شاهد على ذلك الأثر الذي تنافس الجميع على تحصيله ، باجتهادهم في التفريع ، والنظر ، إنتصاراً لمدارسهم ، ولمذاهبهم . لا سيما مع تلكما المدرستين الأوليين اللتين تلعبان دور الأم لكل مدرسة نحوية جاءت بعدهما . عنينا بهما مدرستي : الكوفة والبصرة . اللتين شغلتا صرح النحويين سنتي ٦٩ هـ ـ ٣٢٣ هـ . حسب ما أرّخه الزبيدي في طبقاته لبداية الأولى ونهاية الثانية .

---

(١) لنا في ذلك أمثلة كثيرة من أشهرها خبر عبيد الله بن زياد الذي اشتهر باللحن على علو مكانته وراجع في ذلك الصفحة ٧٣ من هذا الكتاب .

البـاب الأوّل

نشأة النحو بين التسمية والتأصيل

الفصـــل الأوّل

أساس تسمية النحو بهذا الاسم ومدلول اللفظة

النحو في أساس تسميته :

ينبغي قبل الشروع في بحث أي ناحية من نـواحي النحو ، التمهيـد لذلـك . ببحث عن أصل التسمية في اللغة . لمعرفة التطوُّر الذي لحق بالمفهوم الذي مثّلته هذه الكلمة عبر المعنى الاصطلاحي الاكتسابي ، ولمعرفة ما إذا كان المعنى قد تطوّر من الأصل اللغوي الوضعي ، لفائدة علمية اكتسبها من سائر العلوم ، أو لتخصيص في استعمال الكلمة ، وفق أحد مدلولاتها ، لغلبته على المداليل الباقية ، مع إزدياد الحاجة إلى التميـيز بإطلاق اسم الخاص على العام[1] .

١ ـ النحو في أسـاس وضعه أو النحو في اللغة :

جاء في أساس البلاغة[2] :

لا يثبت على نحو واحد ، ونحوت نحوه ، وفلان نحوي من النحاة ، وانتحاه : قصده .

وجاء في لسان العرب[3] :

النحـو إعراب الكـلام العربي ، والنحـو : القصد والـطريق ، والجمع أنحـاء

---

(١) ابن جني الخصـائص ، ج ١ ص: ٣٠٠ ـ ٣١٠ تحت عنوان « بـاب من غلبة الفـروع على الأصول » .

(٢) الزمخشري ، محمود بن عمر أسـاس البلاغة ، ط ١٩٧٩ م ص: ٤٥٠ مادة نحو .

(٣) ابن منظور ، محمد بن مكرم ، لسان العرب ، ج ١٤ ص: ٣٠٩ وما بعدها مادة نحا .

ونحو ، وفي بعض كلام العرب إنكم لتنظرون في نحو كثيرة أي في ضروب من النحو . ويقال نحوت نحوك ، أي قصدت قصدك . وفيه أن أبا الأسود الدؤلي وضع وجوه العربية وقال للناس أنحوا نحوه فسمي نحواً . وفيه نحا الشيء إذا حرّفه ، ومنه سمي النحوي ، لأنه يحرّف الكلام إلى وجوه الإعراب . ومنه أنحى عليه ، وانتحى ، إذا اعتمد عليه ، ومنه الانتحاء ، وهو الاعتماد على بعض دون بعض .

وجاء في القاموس المحيط[1] :

النحو : الطريق ، والجهة ، والانتحاء : اعتماد الإبل في سيرها على أيسرها ، وانتحى جدّ ، وفي الشيء اعتمد .

وعليه تعني كلمة « نحو » في اللغة : القصد ، والجهة ، والضرب ، والصرف ، والاعتماد ، وكلها معانٍ تفيد الاختصاص بشيء دون آخر ، وتفيد إنتهاج طريقة دون أخرى ، للتفرُّد بها ، أو لعدم صلاحية أخذ غيرها .

٢ ـ النحو في الاصطلاح :

جاء في مقدمة الحدود في النحو[2] :

إعلم أن الحدّ والمعرّف في عرف النحاة ، والفقهاء ، والأصوليين . إسمان لمسمى واحد ، وهو ما يميز الشيء عن جميع ما عداه فحدُّ النحو إصطلاحاً علم بحصول ، يُعرف بها أحوال أواخر الكلم « إعراباً ، وبناءً » .

وجاء في شرح الأشموني على الألفية[3] :

« هو العلم المستخرج بالمقاييس من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف منها » .

---

(١) الفيروزابادي ، القاموس المحيط ، ج ٤ ص: ٣٩٦ باب الواو فصل النون .

(٢) الفاكهي ، الحدود في النحو ، دون معلومات نشر . ص: ١ والفاكهي هو عبد الله بن أحمد ، مولده ووفاته بمصر توفي عام ٩٧٢ هـ . وهو من فقهاء الشافعية ، راجع الأعلام ج ٤ ص: ٦٩ .

(٣) الأشموني ، الشرح على الألفية ، مطبعة مصطفى محمد ص: ٦ ، والأشموني علي بن محمد نحوي شافعي توفي ٩٠٠ هـ راجع فيه الأعلام ج ٥ ص: ١٠ .

وجاء في « الخصائص » تعريف لعلّه أوضح ، وأشمل التعريفات التي انتهت إلينا قال[1] :

هو إنتحاء سمت كلام العرب ، في تصرفه من إعراب وغيره ، كالتثنية ، والجمع ، والتحقير ، والتكسير ، والإضافة ، والنسب ، والتركيب ، وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة ، فينطق بها ، وإن لم يكن منهم ، وإن شذّ بعضهم عنها رُدّ به إليها . وهو في الأصل مصدر شائع أي نحوت نحواً ، كقولك قصدت قصداً . ثم خصّ به انتحاء هذا القبيل من العلم ، كما أن الفقه في الأصل مصدر : فقهت الشيء أي عرفته ، ثمّ خصّ به علم الشريعة من التحليل ، والتحريم . . . وقد استعملته العرب ظرفاً ، وأصله المصدر .

إذاً فالنحو في الاصطلاح ، هو إتّباع قواعد اللغة العربية بمراعاة ضروراتها ، صوناً للألسنة عن الخطأ ، منعاً للاضطراب التعبيري والالتباس المعنوي .

٣ ـ ماهية النحو العربي ودلالته :

وعليه يتضح أن لفظه نحو في الاصطلاح والاستعمال ، غايرت المنحى الدلالي ، الأصلي ، الذي وضعت له . شأنها في ذلك شأن الكثير من ألفاظ العربية بارتقائها من القاعدة العامة المبسطة والأساسية ، إلى المعنى الخاص الدقيق ، والنهائي مع نهاية مسار المعنى في القمة . مع جامع الأصل بينهما . فقد دلت كلمة النحو في اللغة على التفرّد بانتحاء طريقة العرب في التعبير ، والتصريف في الكلام تمييزاً للعربي عن غيره ، وللفصيح عن سواه .

كما يتضح لنا أيضاً ، ومن خلال مقارنة المعنى الاصطلاحي بالمعنى الوضعي الأصلي ؛ السبب الرئيسي الذي دفع العربي المسلم الذي ولج أرض الفرس ،

---

(١) ابن جني ، الخصائص ج ١ ص: ٣٤ . وأبو الفتح هو عثمان بن جنّي الموصلي من الموالي ، ولد قبل ٣٣٠ هـ وتوفي ببغداد ٣٩٢ هـ وتتلمذ على يد الفارسي أبي علي ، وصاحب المتنبي فكان أول شارحي ديوانه ، واحد عصره في اللغة والأدب والتصريف . ترك كتباً كثيرة أشهرها الخصائص ، وشرح ديوان المتنبي ، وقد طبعا . قال أبو الطيب فيه : « ابن جني أعرف بشعري مني للتطويل » راجع ، معجم الأدباء ج ٥ ص: ١٥ ـ ٣٢ ، وفيات الأعيان ج ١ ص: ٣١٣ ، نزهة الألباء ص: ٣٤٤ ، ومقدمة الخصائص ط دار الهدى .

والروم ؛ إلى وضع قواعد للُغة التي يقدسها ، ويجلُّها حباً بالمحافظة على فصاحة بني جلدته التي افتخروا بها على العالمين[1] . إضافة إلى الحاجة العلمية[2] . المتزايدة مع الانفتاح السكاني ، والبشري على المناطق التي دخلت تحت سلطة الخلافة ، والضرورة الدينية التي تحتم على المسلم واجب إحراز تعلم اللغة العربية لغة الصلاة ، والقرآن ، والعبادة[3] . كما يتضح لنا صدق الرواية التي نقلت عن علي سروره عندما عرض عليه الدؤلي ما تابعه من علم قائلاً : « ما أحسن هذا النحو الذي نحوت »[4] بعد إقتداء الدؤلي بملاحظاته .

٤ ـ النحو بالنسبة إلى اللغة :

درج العلماء قديماً مع النشأة الأولى لعلم النحو في المئتين الأوليين للهجرة على الخلط بين المفهومين[5] مع الاختلاف الكبير ، والدقيق بينهما ، وأراني ملزماً بالتعليق على الموضوع للفصل في الدراسة بين المجالين النحوي واللغوي . إلتزاماً بالمنهج الموضوع ، ووصولاً إلى الغاية المنشودة . من دراسة نشأة النحو ، موضوعاً دون غيره . دون أن تفوتنا الإشارة إلى أن التماس العذر لهؤلاء العلماء ليس مستحيلاً . بل يجب عدم حسبان هذا الخلط خطأً ، لاعتبار أن الإنسان مهما بلغ من درجات الرقي الفكري . لا يستطيع أن يتجاوز طبيعة المرحلة التي يحياها بصورة غير عادية إلاّ ما ندر . . . فقد دعا إلى هذا الخلط كون النحو أساساً يخضع للمؤثرات نفسها التي تخضع لها اللغة . أضف إلى ذلك أن النحاة الأوائل لم يستطيعوا أن يتبينوا

---

(١) القاموس المحيط ، ج ٤ باب الميم فصل العين . ص: ١٤٩ في الفصل بين الفصاحة والأعجام مادة « عجم » ولسان العرب ج ١٢ ص: ٣٨٥ ـ ٣٩٢ . أيضاً لترى فخر العربي بفصاحته على الشعوب الأخرى التي سمّاها بالعجم لأنها ترطن بكلام لا يفهمه كما ترطن العجماوات ، جمع عجماء أي البهيمة التي لا تفقه كلاماً . . .

(٢) الصفحة٤٧ من هذا الكتاب وما بعدها .

(٣) الخوئي ، أبو القاسم ، منهاج الصالحين ، ط ٢ ص: ١٥٩ ، والمسائل المنتخبة ، ص: ٩١ له أيضاً .

(٤) الأنباري ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ط ٢ ، ١٩٧٠ م ص: ١٨ ـ ٢٠ .

(٥) كتب الطبقات والتراجم ، للزبيدي ، والأنباري ، والقفطي ، والسيوطي ، واللغوي ، وابن خلكان تبين ذلك .

وظيفة النحوي الرئيسة القائمة على تسجيل الملاحظات في أصول وقواعد تمليها عليه طبيعة اللغة ، ودون أن يكون لتقعيده للقواعد ، أثر في اللغة نفسها . هذا إلى جانب أن دراسة النحو بدأت محدودة ثم أخذت تتسع لتشمل اللغة كلها بعد نجاح التجربة في العملية الأولى التي تمحورت حو القرآن . حيث أصبح النظام اللغوي بأسره ميداناً لدراسة هذا الفن الجديد مما أكّد الخلط ، وعدم التفريق . فضلاً عن تداخل فنون اللغة ومتعلقات الثقافة لهذه المرحلة كما هي الحال في البدايات العلمية عامة . حيث يجهل العلماء مع تلك البدايات الفروع التي تتّحد لتشكّل موضوع العلم الذي يبحثون فيه . ولذا نراهم يطلقون اسم العربية على المباحث اللغوية ، والنحوية بعد الدؤلي حتى أيام عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب ، حيث تبدأ عبارة عالم بالنحو ، إمام بالنحو . بالظهور إلى جانب غيرها من العبارات مما ينهي ذلك الخلط بين مباحث النحو ، واللغة الذي كان ؛ لجدة علم النحو ، ولأنه أسبق علوم العربية وضعاً ، وتدويناً ، بسبب اللحن وبوادره ، وأعراض الفساد التي هجمت على اللغة ، ونظام التركيب[1] . وقد تأكد ذلك الفصل مع الخليل الذي وُصِفَ بأنه « سيد أهل الأدب »[2] و « الأدب يشمل النحو والتصريف ، والعروض ، والقوافي ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب ، وأنسابهم »[3] .

هذا من الناحية التاريخية ، أما من الناحية الموضوعية المرتكزة على الأسس العلمية الخاصة بالموضوع . فإن العودة إلى لسان العرب تكفينا مؤونة دلالة الكلمة .

جاء في لسان العرب[4] :

---

(١) في هذه المفاهيم ، راجع لطه الراوي ، مقال نظرة في النحو ، مجلة المجمع العلمي العربي مج ١٤ ص: ٣١٥ ـ ٣٢٥ .

(٢) الأنباري ، عبد الرحمن بن محمد ، نزهة الألباء ، ص: ٤٥ في ترجمة الخليل والأنباري هو الكمال النحوي درس في بغداد على الجواليقي وابن الشجَري أستاذ النظامية له كتب مشهورة منها الانصاف في مسائل الخلاف إلى جانب النزهة . توفي ببغداد ٥٧٧ هـ . راجع فيه مقدمة نزهة الألباء .

(٣) الأشباه والنظائر ، للسيوطي ج ١ ص: ٥ وفي خزانة الأدب للبغدادي ج ١ ص: ٢٠ وفيها رواية مشابهة لما نقله البغدادي عن الرعيني الأندلسي من أعيان المئة الثامنة .

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٥ ص: ٢٥٠ مادة لغا .

اللغة من الأسماء الناقصة ، وأصلها لغوة من لغا إذا تكلّم واللغة : اللَّسن . والنسبة إليها لُغَوي بضم الغين وخفض الواو واللغو : النطق يقال هذه لغتهم التي يلغون بها أي ينطقون ولغوي الطير : أصواتها .

وعليه تعني كلمة « اللغة » الكلام مطلقاً بالتعبير اللفظي اللساني عن المعاني .

ومع العودة إلى ابن جني نتعرف إلى رأي عالم جليل تنبّه إلى الفرق بين مفهومي « النحو » و « اللغة » فعلّق على ذلك بقوله :

أما حدُّها فإنها أصوات يعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم وأما تصريفها ومعرفة حروفها فإنها فعلة من لغوت : أي تكلمت ، وأصلها لغوة ككرة . . . وقالوا فيها لغات ولغون ككرات وكرون ، وقيل منها لَغِيَ يَلْغَى إذا هذي وكذلك اللغو »[1] .

ومع مقارنة هذا التعريف بالتعريف الذي مرَّ آنفاً للنحو[2] يتبين لنا مقدار الفرق بين النحو ، واللغة ـ كما نفهمه نحن الآن وكما فهمه السابقون من العلماء الذي جاؤوا بعد مرحلة عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب . والذين أكَّدوا ضرورة الفصل في الدراسة بين النحو ، واللغة لاستقلال كل علم عن الآخر منهجاً وموضوعاً ـ وهذا مما يؤكد ما علّلنا به سابقاً أمر الخلط مع البدايات[3] إذ لم يكد العلماء يتمكنون من تثبيت مواقع أقدامهم في العلم حتى بدأوا يهتمون بالفروع ، والأصول ، فاللغة ـ كما تبيَّن لهم ـ أصواتٌ يعبر بها أصحابها عن مقاصدهم ، وبيان لساني عن المعاني ، بينما النحو انتحاء لطرائق معروفة ومحدَّدة في الإداء ، يراعى فيها الكلام مع التقليد طلباً للفصاحة ووصولاً إليها . وبهذا العمل يتحدَّد الفرق ، بين علمي النحو واللغة ، ويمتنع الخلط ، بل ويتأكد وجوب الفصل بينهما في الدراسة[4] . فشتان ما بين

---

(١) ابن جني ، الخصائص ، ج ١ ص: ٣٣ .

(٢) الصفحة ٢٤ من هذا الكتاب تحت عنوان « النحو في الاصطلاح » .

(٣) الصفحة ٢٦ من هذا الكتاب تحت عنوان « النحو بالنسبة للغة » .

(٤) ريمون طحان ، الألسنية ، ولأنيس فريحة ، نظريات في اللغة ، ولعبد الواحد وافي ، علم اللغة ، ولكمال محمد بشر علم اللغة العام . لترى مدى تركيز المعاصرين على الموضوع وطالع لـ F. D. de soussure; Cours de linguistique génèral; et seuil; 1975. Etudes Srmantiques .

إعجاب العربي بلغته ، وتأثره بالكلام الأنيق المكتوب والمسموع فيها ، وبين حبّه الحفاظ على هذه اللغة بإيجاده « علم النحو » .

كما تتحدّد أيضاً العلاقة بين هذين العلمين ، تلك العلاقة التي دعت إلى الخلط بين المفهومين . فاللغة هي التزام حالات الإعراب بحسب مواقع الألفاظ في الجمل ، بينما النحو هو التقيُّد بطرق الأداء بالسير على خطة تلك المواقع[1] ، بالتقليد في الأساس لعمل العرب الأوائل أصحاب العمل الكامل بالقياس إلى أعمالنا اللغوية ، والتعبيرية المتأخرة . وعليه يصبح النحو فرعاً من فروع الثقافة ، وفرعاً من فروع اللغة . فهو خادم لها يصونها ، ويرعاها بقواعده الثابتة الموحّدة ، لا نِدّاً مماثلاً مساوياً يغالبها ليصرعها ، ويفوز باسمها ، بين الفينة والأخرى .

٥ ـ تأخر وضع النحو عن ظهور اللغة :

ولعل خير الأدلة على مكانة النحو بالنسبة إلى اللغة . ما هو معروف في تاريخ النحو من تأخّر وضع النحو النظري[2] ، عن نشأة اللغة . فلو كان النحو هو اللغة نفسها لكان وجوده مرافقاً لوجودها . وبتعبير آخر لكانت القواعد النحوية وجدت مع وجود اللغة الأول . فوصلتنا كاملة ناضجة ، كما وصلتنا اللغة ناضجة متطوّرة . نقول هذا مع يقيننا أن العمليات اللغوية القديمة ، والتي تعود إلى فترات سحيقة في تاريخ الممارسات اللغوية . لم تكن تخلو من قياس على قواعد عملية يتلقاها اللاحق عن السابق فيقلدها من دون تفكير بردّها . لأنها المثال المحتذى ، والأساس المعتمد بالتعبير ضمن الجماعة الإنسانية الناطقة بلهجته ، ولحنه وهذا ما نسميه « بالنحو العملي »[3] .

ونحن عندما نتحدث عن تأخر وضع النحو علماً مستقلاً قائماً بذاته . لا يعني بذلك جهل مقومات هذا العلم من قبل أصحابه الذين يجيدون لغته نطقاً بالسليقة .

---

(١) عون حسن ، اللغة والنحو ، ص: ٤٢ ـ ٥٢ .

(٢) عنينا به النحو الموضوع الواضح بعد تقعيد القواعد ، وراجع فيه الصفحة ٣٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٣) عنينا به النحو الممارس قبل وضع العلم ، وتقعيد القواعد ، راجع فيه ص : ٣٢ وما بعدها من هذا الكتاب .

قبل أن يجيدوها معرفة بالقواعد المستنبطة(1) . فالظروف العلمية ، والحضارية ، والتاريخية والمناخية ، المحيطة كانت تمنع أبناء العربية الصحراويين ، والبداة من ممارسة هذه الأشياء ، لاستحالة ممارستها عملاً بقاعدة « فاقد الشيء لا يعطيه » . إضافة إلى أن الحاجة ـ إلى إيجاد العلم ـ وهي أم الاختراع ليست موجودة بعد . ولذلك فمن الطبيعي المنطقي أن لا ينشأ « نحو » مع البدايات اللغوية ، وأن يتأخر ذلك النشوء حتى تستوي اللغة على مرحلة من التطوّر ، والمنهجية ، تصبح معها قادرة على تلبية حاجة العالم الذي يستقرىء فصولها وأجزاءها .

وهنا نستطيع القول ، بما أن ولادة النحو بقواعده كانت متأخرة عن نشأة اللغة . فطبيعي أن لا يولد هذا المولود تاماً ناضجاً دفعة واحدة دون أن يمر بأطوار ، وأحوال يرتقي بها من شكل إلى آخر عملاً بمبدأ التطور المستمر . فضلاً عن كون أصله الذي تفرّع منه ، لم يولد كذلك ، وإنما « تتابع لا حق منه ، وتابع ، بفارط »(2) كما نستطيع القول أيضاً : إن مرحلة إيجاد القواعد النحوية رافقت مرحلة النضج النهائي للُّغة العربية . من حيث الأشكال ، وطرق التعبير . ولذلك علَّل العلماء بعض الصور المخالفة لذلك النضج بالشذوذ والندرة ، وتجنبوها لعدم مناسبة جعلها أسساً صالحة للقياس ، والاتّباع . عندما اصطدموا بها كأمور تخرق الإجماع الحاصل ، وتطعن فيه ، وبصحته وبصحة القواعد التي اقتبسوها من ذلك الإجماع اللغوي ، الذي لم يتجرأوا على استقرائه للإتيان بما جاءوا به من قواعد ، وأحكام ، ومبادىء ، لولا حدسهم وإحساسهم بضرورة تعليق السابق بنظم تحفظه . بعد أن رأوا أن اللاحق يسيء إليه طوعاً أو كرهاً .

---

(1) تمّ اللجوء إلى هذا التفكير لتسليط الأضواء على تراتيبه التفكير المنهجي في البحث . لأن هذا الموضوع مسألة علمية سيبحثها الكتاب فيما بعد وهي محط خلاف ومثار جدل كبيرين عند المحدثين خاصة في نشأة النحو وأساس الاعراب .

(2) عقد ابن جني لهذا فصلاً مهماً جداً في « الخصائص » ج ٢ ص: ٢٨ ـ ٤٠ فليراجع لمن أراد التطويل .

الفصـــل الثاني

تأصيـل النحـو

١ ـ النحو العملي والنحو النظري :

إن بحثنا في تأخر نشوء النحو عن نشوء اللغة . يفضي بنا إلى بحث الفرق بين نوعي النحو مع التعليق على منشأ هذين المفهومين مما يساعد على سبر أطر الموضوع برسم خطّه ، وتحديد حدوده . فما هو الفرق بين النحو العملي ، والنحو النظري ؟

شأن سائر العلوم االتي لا يمكن أن تنشأ دفعة واحدة ، وشأن مختلف علوم اللغة العربية ، وغيرها من اللغات مرّ النحو العربي في فترات متفاوتة في الصحة ، والإداء . منذ النشأة الأولى لـه ـ والتي رافقت نشأة اللغة ـ حتى استقلاله بنفسه علماً قائماً بذاته ، له قواعده ، وأصوله ومميزاته التي لا يمكن تجاوزها .

من المعروف أن اللغة هي الوسيلة الخاصة بالتواصل الإنساني ، والتفاهم الوجداني . حيث يتم التعبير بوساطتها عن المقاصد والأغراض عند أبنائها كما تقـدّم[١] ، ومن المعروف أيضاً أن اللغة مهما تكن درجة رقيها من العازلة ، إلى التحليلية[٢] . ينتظم أداؤها موافقة قواعد معينة توافق هذه الدرجة من الرقي ، والتطوُّر ، أو تلك ، كما توافق عقلية أصحابها ، ومفاهيمهم عن الحياة والعالم .

---

(١) الصفحة ٢٨ من هذا الكتاب . مع ابن جنّي .

(٢) الصالح ، صبحي ، دراسات في فقة اللغة ، ص: ٤٥ حيث يعرض الصالح نظرية العلامة شليجل التي توزع اللغات بحسب تطورها إلى ثلاث فصائل هي : العازلة وهي غير المتصرفة ، والإلصاقية وهي لغة وصلية ، والتحليلية وهي المتصرفة . والأخيرة أكثر فصائل اللغات تطوراً وأهمية .

وخير دليل على ذلك انتظام اللهجات العامية داخل البلد الواحد ، أو البلدان المتجاورة على أشكال قواعدية تعبيرية توافق هذه المجموعة السكانية أو تلك كطريقة تحدّد الانتماء ، وتسهيلاً للتوحُّد الإقليمي القائم أساساً على المصلحة ، وضرورة التفاهم في المقاصد[1] .

ولذا يصح الاعتبار أن وجود النحو[2] لم يكن متأخراً كثيراً عن وجود اللغة . بل رافق نموُّها منذ المرحلة الأولى بشكل متنامٍ من البسيط إلى المعقّد ، وبنظام يوافق المرحلة التي تكون عليها اللغة ، وعليه نصبح أمام شكلين لا ثالث لهما هما : النحو العملي ، والنحو النظري ، أو النحو الفني ، والنحو العلمي[3] .

النحو العملي أو « الفني » :

وهو جزء مهم من اللغة ومرحلة أساسية من مراحل إنضاجها ، ونضجها . وهو في وجوده الأوَّل طبيعي خالٍ من التعقيد ، إذ أن الغاية منه هي تنظيم القواعد الخاصة بالنطق لتحسين طرائق التعبير ، أو لضبطها تسهيلاً للفهم ، وطلباً لصحة التعبير ، وهو كسائر الفنون سابق على الناحية النظرية التي تتمنهج وفق قواعد خاصة جامعة تحكم العموميات ، والجزئيات لتنشيء منها بناءً نحوياً متيناً واضحاً في مقدماته ، ونتائجه . وهذا النحو العملي ، للحاجة دور كبير في إيجاده ، كما هي الحال في أغلب العلوم[4] وهذا النحو في نشأته مستحيل التأريخ ، والتسجيل ، إذ لا يعقل أن يطلب الإنسان تسجيل فن كان معظم أهله يمارسونه بالتقليد ، لا لشيء إلاَّ لجهلهم بطرائق

---

(١) محاضرات في علم الألسينة ألقاها الأستاذان رشيد الضعيف ، وهيام كريدية في الجامعة اللبنانية كلية الآداب عام ١٩٧٧ م ولـ F. D. de soussure; Cours de linguistique général; P.9.

وهنالك مقالات متعددة في المجال في مجلة الفكر العربي العددين ٨و ٩ حول الموضوع .

(٢) عنينا به الوجود العلمي الممارس بالسليقة والملكة .

(٣) تسمية مقترحة من حسن عون في كتابه اللغة والنحو ، ص : ٧٨ وما بعدها حيث يقصد بالفني الناحية العلمية أو بالأحرى السليقة والملكة الحية دائماً ، وبالعلمي ، الناحية النظرية التي رافقت مرحلة وضع القواعد الثابتة .

(٤) وهذا شيء معروف بالنسبة إلى العلوم فلولا فيضانات النيل لما عرفت الهندسة التي عرفت فناً قبل أن تعرف علماً ، وهكذا بالنسبة لفن النحت الذي وجد قبل أن توجد النظريات العلمية له =

أخرى تتيح للإنسان إمكانية التعبير بها عن فكره وما يدور في خلده .

النحو النظري أو العلمي :

وهو النوع الثاني من النحو والجزء الأهم في حفظ اللغة الناضجة التي وصلتنا وهو في وجوده الأول يكاد يكون طبيعياً خالياً من التعقيد شأنه في ذلك شأن النحو العملي . إلاّ أنه تطوّر بما تأثر به أصحابه من دراسة العلوم العقلية الدخيلة كالمنطق ، والفلسفة[1] . فشابه الكثير من التعقيد واللبس الذي نبا به عن السهولة ، والوضوح ، والبساطة ، وعن الغاية التي وجد من أجلها ، وهي حفظ اللغة الأم على أصحابها . وغدا عملاً عقلياً ناضجاً مقصور الممارسة ، على من أوتي باعاً طويلاً في تحمّل التعقيد . وهذا النوع من النحو هو الذي استقطب الدراسات التاريخية ؛ لإمكان تأريخه وفق ما توافر من الأخبار المتعلّقة به ، وهو الموضوع الرئيس لهذا الكتاب .

٢ ـ ماهية اللغة ومدى شموليتها :

تقدم أن اللغة هي « أصوات يعبر بها أصحابها عن مقاصدهم ، وبيان لساني عن المعاني »[2] وعليه فإن البحث الذي تقدّم عن ماهية النحو العربي ، ودلالته بالنسبة إلى اللغة ، والمنهجية المتّبعة في الكتاب عموماً يفرضان بحث ماهية اللغة ، ومدى شموليتها ، للتعرّف إلى الأساس الذي انطلقت منه الممارسات اللغوية بصورة سريعة ، ولتعيين مدى ما يتعلق منها بالبحث تحديداً لأطره[3] .

فبين تعدد اللهجات واللغات التي تنسب إلى العربي القديمة . يتناول البحث ذلك الجانب الذي ينطلق من اعتبار مرحلة النضج في اللغة العربية ، هي أساس في الحكم بملاحظة الأدوار الثلاثة التي تمر بها اللغات عموماً[4] . وهي المرحلة التي

= والمدارس ، وقل الشيء نفسه بالنسبة لفن الموسيقى الذي وُجد قبل أن تسجل قواعدها العلمية وأسسها .

(١) الصفحة ٤٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) الصفحة ٢٨ من هذا الكتاب .

(٣) هذا التسلسل يفرضه الترتيب المنهجي ، تجنباً للقفزات البهلوانية التي تسيء إلى وحدة الموضوع .

(٤) عون حسن ، اللغة والنحو ، ص: ٥٥ ، ومثلها نظرية أخرى للعلامة شليجل نقلها صبحي =

وصلنا نتاجها المسموع ، والمكتوب ، والتي نعني بها العربية مطلقاً . من دون الالتفات إلى تلك اللهجات التي سادت واندثرت في جنوبي الجزيرة العربية . بعد دمار حضارة الجنوب ، وانتقال دور الريادة إلى الشمال[1] من دون الالتفات أيضاً إلى ما يعرف بين لهجات الشمال باسم « العربية البائدة » والتي انتهت بدورها قبل الإسلام[2] الذي وحَّد لغة الكتابة ، والتأليف ، والتعبير ، عبر لهجة قريش الحجازية .

وعليه نستطيع القول إنطلاقاً من تعريف اللغة الوارد أعلاه : إن تخصيص « لهجة قريش » باسم العربية لا يعني أكثر من الإقرار بالأمر الواقع الذي صار الوضع إليه ، والذي يحتم الاستقراء ـ الحر وغير الموجه ـ الاعتراف به . بعد نزول القرآن بلهجة قريش ! الأمر الذي دعَّم مكانتها وهيَّأ لها الغلبة النهائية . ولذا فإن النحو العربي عامة ، يبحث في أساس وضعه في قواعد ، توافق هذه اللهجة ، وتسعى إلى حفظها ورعايتها دون سواها . بعد أن تمَّ وضع هذه القواعد إنطلاقاً من الواقع الذي انتهت الأمور إليه[3] . حيث كتبت الغلبة للهجة قريش على مثيلاتها في الجاهلية أولاً : لمكانة مكة السياسية ، والدينية ، والاقتصادية ، والسكانية ، ثم في الإسلام ثانياً : للأمور السابقة مجتمعة فضلاً عن نزول الوحي بها . ولذا يقوم القرآن[4] بدورين مهمين في آنٍ معاً : حيث يؤكد غلبة لهجة قريش على غيرها ، وحيث يدعو إلى إيجاد النحو علماً ، بعد أن كانت ممارسته تتم سليقة ، بعد طروء الفساد عليه وشيوع اللحن حتى في آياته .

= الصالح في كتابه فقه اللغة ص: ٤٥ ولقد مر ذكرها في الصفحة ٣١ من هذا الكتاب والفرق بينهما التسمية فقط . فالأولى تسمي المراحل ، بالطفولة ، والشباب والنضج ، أما الثانية فتسميها : عازلة ، إلصاقية ، تحليلية .

(١) الصالح صبحي ، فقة اللغة ، ص: ٥٢ تحت عنوان العربية الجنوبية والعربية الشمالية .

(٢) م . ن . ص: ٥٥ وص: ٥٩ وما بعدها تحت عنوان العربية الباقية والعربية البائدة .

(٣) هذا باعتماد المنهج الاستقرائي التاريخي البحت . والذي يؤرخ لهذه المرحلة من تاريخ النحو .

(٤) راجع في هذا المضمون الصفحة ١٠٣ من هذا الكتاب وما بعدها تحت عنوان دور القرآن في تثبيت لهجة قريش وكذلك الصفحة ١٠٦ وما بعدها تحت عنوان ظهور اللحن . . .

على أن هذه الممارسة تركت أثرها على اللغة . من خلال الممارسات التي اعتمدها الكبار من السابقين إلى علوم العربية ، مع المرحلة التي لجأوا فيها إلى الأخذ عن الأعراب بالمشافهة ، والمحادثة . فقد توسّع هؤلاء الرواد في سماعهم ، وتوسعوا في أقيستهم على ما تناهى إلى أسماعهم . فحملوا اللغة العربية واللهجة القرشية ، ما لم تحمله[1] ، وخرجوا المسائل بتخريجات عقدت النحو ، وأساءت إلى وظيفة النحاة ، نسياناً منهم في بعض الأحيان ، وخطأ في أغلبها ، بتطبيق ما استنّ من قواعد خاصة بلهجة قريش .

من هنا فإن نسبة اللغة إلى قريش هي من باب تسمية الكل باسم الجزء لضرورة تدعو إلى ذلك ، واختصاص النحو بهذه اللغة يعني العمل بمقتضى أحكامها ، وقواعدها دون غيرها ، كي لا تحمل هذه اللغة ما لا تحمله أصلاً ، وكي لا يُناط بها ما لا يرتبط بأصولها ، وما لا يعود إليها أساساً .

٣ ـ السليقة العربية وأثرها في النحو :

لئن كانت العلاقات بين اللغة ، والنحو متينة إلى درجة عدم ذكر الواحد ، من غير ذكر الآخر فالسليقة بالنسبة إلى هذين الأمرين تشكّل ثالثة الأثافي ، لما لها من دور في تكوين الحلقة التي عوّل عليها العلماء ، وجعلوها أساساً مهمّاً من أسسهم في وضع نحو اللغة بعد إستقرائها .

ومع العودة إلى كتب الطبقات ، والتراجم ، ومعاجم اللغة . يسعنا التعرف إلى طريقة عمل اللغويين الأوائل عندما استنطقوا اللغة ليضعوا القواعد التي أُلِّفت فيما بعد علم النحو .

فقد اعتمد هؤلاء العلماء طريقة استنطاق اللغة ، باستقراء طرق الأداء فيها . وكان على رأسهم أبو الأسود الدؤلي[2] الذي كان السبّاق في هذا المضمار . كما كان

---

(١) راجع في ذلك الصفحات ١٠٠ ـ ١٠٣ من هذا الكتاب تحت عنوان أثر لهجة قريش في وضع النحو ، وحقيقة وجودها .

(٢) هو أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي واضع علم النحو معدود من الفقهاء والأعيان والشعراء رسم له علي بن أبي طالب شيئاً من أصول النحو فكتب فيه. وأخذته عنه

أوّل من تحول تجاه النحو العلمي[1] . فنقل بالنحو خطوة مهمة من حيِّز التقليد ، والسماع ، واعتماد السليقة ، إلى حيِّز التفكير بالقواعد والأصول التي تجب مراعاتها للابتعاد عن اللحن . وتبعه في ذلك النحويون من بعده ، وقلدوه فيما قام به وذهب إليه ، بأن تركوا للسليقة المجال المطلق ، فطبَّق تلامذته عمله ، وتابعوه على منواله من إقراء القرآن ومحاربة اللحون بما توفَّر لهم عنه من سلامة ذوق ورهافة حس ودراية بأصول القراءة الصحيحة إلى جانب بعض المبادىء المانعة من اللحن . وتابعهم العلماء من بعد على ذلك معتمدين على السماع ، والرواية ، والقياس على المسموع ، والمروي حتى أثمرت جهودهم ، وكان لهم ما أرادوه من قواعد تصون اللسان الذي يراعيها عن الخطأ واللحن .

والذي يهمنا هنا هو السليقة التي كرَّسها الدؤلي في وضعه تلك القواعد ، وفي إقرائه القرآن ، والتي فاخر بها لأنها تمكِّنه من الإعراب والابتعاد عن اللحن[2] . والتي يقول فيها صاحب لسان العرب شارحاً :

السليقة : الطبيعة والسجيّة ، ويقرأ بالسليقة أي بطبعه الذي نشأ عليه ، والسليقي من الكلام ما لا يُتعاهد إعرابه ، وهو فصيح بليغ في السمع عثور في النحو وقول آخر : ما تكلم به البدوي بطبعه ، ولغته وإن كان غيره من الكلام آثر وأحسن »[3] .

وجماع القول : الكلام المرسل بطبيعة ودون تكلُّف وعلى صحة في التعبير . وهنا زبدة المخاض . فأبو الأسود صدر عن سليقته في رسمه لبدايات النحو ، وعندما بدأ بوضع اللبنات الأولى في بنائه . وتبعه في ذلك النحويون من بعد ونسجوا على

= جماعة . سكن البصرة في خلافه عمر وولي إمارتها أيام علي . شهد صفين . وهو أول من نقط المصحف ، مات بالبصرة ٦٩ هـ راجع فيه صبح الأعشى ج ٣ ص: ١١٦١ الأعلام ج ٣ ص: ٢٣٦ .

(١) الصفحة ٣٣ من هذا الكتاب وما بعدها .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٠ ص: ١٦١ مادة سليقة حيث ينقل ابن منظور عن الدؤلي قوله : ولست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فاعرب .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ج ١٠ ص: ١٦١ .

منواله ، ووافقوا على خطته التي أثبتت فعاليتها ، ونجاحها . « لأنهم تيقنوا أن العرب نطقت على سجيتها ، وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها . وقام في عقولها علله ، وإن لم ينقل ذلك عنها »[1] .

وهنا يبرز موضوع جديد . فطالما أن الموضوع إلى حدٍّ ما يفرض متابعة الأعراب في أنماط نطقهم ، لسلامة سجاياهم . فهذا يعني العمل بمقتضى أحكامهم في اللفظ ، والتعبير . ولكن أيّ الأعراب يؤخذ عنهم بعد أن فسدت الحواضر بالمخالطة بالأعاجم ، والطارئين على العربية ؟ هذا الموضوع دفعهم إلى تعيين مصادر السماع التي جعلوها في أكثر من قسم على الشكل التالي :

يحتج بالكلام العربي لغرضين[2] :

١ ـ لفظي : يدور حول صحة الاستعمال من حيث اللغة ، والنحو ، والصرف .

٢ ـ معنوي : لا علاقة له باللفظ .

أما اللفظي فقد قصروا الاحتجاج به على الجاهليين الذين تأكدت فصحاتهم . وعلى المخضرمين منهم الذين أدركوا الإسلام فقد عند احتجاجهم بأقوالهم في اللغة ، والصرف ، والنحو[3] .

وأما المعنوي فقد أباحوا عند الاستشهاد بشيء من أجله الاحتجاج بكلام المولدين في مجال المعاني ، والبيان ، والبديع ، لأنها أمور ترجع إلى المعنى لا إلى

---

(١) الزجّاجي ، إيضاح علل النحو ص : ٧٠ .

(٢) عقد ذلك ابن جني فصلاً مهماً جداً في الخصائص ج ١ ص : ٥ ـ ٣٢ فليراجع ذلك وليقارن بفصل آخر من الخصائص وهو الفصل الأربعون ج ١ ص : ٢٧٩ ـ ٢٨٤ ومثله تحدّث ابن جني عن إصلاح اللفظ ج ١ ص : ٣١٢ ـ ٣٢١ الفصل الرابع والأربعون ، وأيضاً ج ١ ص : ٣٥٧ ـ ٣٦٩ الفصل الخمسون ما قيس على كلام العرب ومثله في الصفحة ٣٨٣ من مرجع رقم ٢ . الباب الثاني والخمسين في اختلاف العرب في تلقّي الواحد منهم لغة الآخر وليراجع بشكل خاص ج ٢ ص : ٥ ـ ١٠ من الخصائص في الأخذ عن أهل المدر وأهل الوبر .

(٣) السيوطي ، الجلال عبد الرحمن بن أبي بكر ، الاقتراح في أصول النحو ص : ٣١ .

اللفظ ، ولذلك استشهدوا بآراء المسلمين الذين لم يدركوا الجاهلية ، والمحدثين[1] .

هذا من حديث الكلام المستشهد به . أما من حيث الأعراب ، أو الحضر ، أي الأشخاص المتحدثون بذلك الكلام المستشهد به . فقد حدّدوهم في حدود المكان ، والزمان ، وتشددوا في الأخذ عمن تعينت فصاحتهم . دون غيرهم من الناس ، والأعراب بشكل خاص ، وذلك ليتعيَّن الأفصح منهم[2] . « لأن الأعرابي إذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته تصرف ، وارتجلَ ، ما لم يسبقه أحد قبله به »[3] . « ولذا فلم يأخذوا عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم التي حولهم ، فلم يؤخذ من لخم ، ولا جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة ، وغسان ، وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر ، لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس ، وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة ، وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف ، وأهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم[4] .

هذا من حيث المكان أما من حيث الزمان ، فقد استشهدوا بكلام هؤلاء الأعراب حتى فسدت سلائقهم في القرن الرابع الهجري[5] .

---

(١) م . ن . والصفحة نفسها وانظر لابن جني الخصائص ، ج ١ ص: ٢٤ .

(٢) كما نقل ابن جني في الخصائص عن أحد الذين ادّعوا الفصاحة بين يديه حكاية مفادها أنه جمع بين الهمزتين بما لا أصل له ولا قياس يسوغه مما دعاه إلى رفض روايته بعد أن قبلها انظر الخصائص ج ٢ ص: ٦ .

(٣) المصدر السابق نفسه ج ٢ ص: ٢٥ السطر الأول أعلى الصفحة .

(٤) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ج ١ ص: ٢١١ ونقلها بدوره عن الألفاظ والحروف للفارابي .

(٥) السيوطي ، والاقتراح في علم أصول النحو ، ص: ٣١ .

أما علّة إمتناعهم عن الأخذ عن غير هؤلاء فيعزوها ابن جنّي بقوله عن عدم أخذهم عن الحضر : « علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال ، والفساد ، والخطل »(١) . وهو يعني بوضوح الفساد ، والخطل اللذين لحقا بالسليقة العربية ، نتيجة الاختلاط بالأعاجم . حيث يتّضح ذلك في قوله مبيناً ضرورة الاعتماد على الأعراب دون غيرهم ، ما داموا فصحاء . « لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها ، وترك تلقّي ما يرد عنها »(٢) .

ونتيجة الأمر ، تبين لنا دور السليقة المهم بما تركته من أثر على مرحلة إيجاد النحو العلمي ، وبداية التحول تجاهه . ونحن لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنها المسألة الأهم في مرحلة تسجيل الملاحظات ، وتحويلها إلى مبادىء علم قائم بنفسه . بل تكاد تنحصر بها عملية الخلق الأوّل . إذ كانت المعوّل الوحيد الذي اعتمده العلماء ـ وعلى رأسهم أبو الأسود ـ في سبيل إرساء مبادىء علم النحو . بعد أن تأكّد لهم أن لا سبيل لمحاربة اللحن ووضع قواعد تصون اللسان عن الخطأ ، واللغة عن التحريف ، وكتاب الله عن الخطل . إلاّ باعتماد الملكة التي اعتمدتها العرب قبل شيوع اللحن ، وانتشاره ، وقبل أن تخالط العرب هذا الشعب ، أو ذاك ، مخالطة أفسدت ملكة السليقة عندها . وليس أدل على أثر السليقة في النحو أكثر من حديث ابن جني عن أبي حاتم السجستاني قال : « قرأ عليّ أعرابي بالحرم طيبى لهم ، وحسن مآب فقلت : طوبى فقال : طيبى ، فأعدت فقلت : طوبى فقال : طيبى . فلمّا طال علي قلت : طوطو قال : طي طي أفلا ترى إلى هذا الأعرابي . . . لم يؤثر فيه التلقين . . . وما ظنك به إذا . . . تساند إلى سليقته في اعتماده على الطبع ، والسجيّة في التلفظ »(٣) .

ونحن لا نعدو الصواب باعتمادنا على أثر السليقة في النحو ، فموضوع النحو يشبه موضوع العروض إلى حد بعيد . إذ مورس الشعر دون عروض إلى أن كان

(١) ابن جني ، والخصائص ، ج ٢ ص: ٥ المقطع الأوّل .

(٢) م . ن . والصفحة نفسها . المقطع الثاني .

(٣) م . ن . ج ١ ص: ٧٥ ـ ٧٦ .

الخليل الذي لم يبتدع الشعر ، وإنما هو الذي أحيا الواقع العملي بوضعه العلم النظري الذي حدَّد موضوع علم العروض ، وميدانه باعتماده على سليقته ، وباستقرائه أشعار العرب ، وأشهر أوزانها التي نظمت عليها شعرها . إلاَّ أن هذا الاعتماد لا يعني أن تفوتنا الإشارة إلى خطأ تعميم دور هذه السليقة ، وجعلها واحدة موحدة مع علمنا بتفاوت فصاحة اللهجات بالنسبة إلى لهجة قريش ، وأثر تلك اللهجات في انتشار اللحن ، وشيوعه مع توحيد اللغة ، واضطرار الجميع ممن تعودوا النطق بلهجاتهم التي تختلف عن لهجة قريش إلى النطق بها . وهذا يؤدي بدوره إلى استنتاج أن البعض ممن أتقنوا اللغة (لهجة قريش) وكانوا يعربون . وهم من سماهم أهل الأدب « بالخاصة » وهم الذين حافظوا عليها ، ورعوها حق رعايتها . أما البقية الباقية وهم أهل « العامة » ، فكانوا لا يتورعون عن اللحن ، بل لا يعتمدون الإعراب ، ولا يقيمون له وزناً لمخالطتهم اللاحنين ، وعدم إكتراثهم بنتائج اللحن لسبب أو لآخر .

٤ ـ غاية النحو :

بدهي أن ترتبط غاية النحو ارتباطاً وثيقاً بنشأته ، ارتباط المقدِّمة بالخاتمة ، شأنها في ذلك شأن أي موضوع فكري آخر . لما بين أسباب نشأة النحو ، وغايته من وحدة في الهدف . بغض النظر عن المسار الذي انتهجه هذا العلم عبر القرون الإسلامية المتعاقبة تحت تأثير العلوم الداخلية ، وتأثير تطوُّر عقلية أصحاب هذا العلم . فقد كانت غاية العلماء مع نشأته ، محاربة ذلك السيل الجارف من الفساد الطارئ على اللغة ، واللسان ، مع الاختلاط بالأعاجم الوافدين على الجزيرة العربية ، والداخلين تحت حكم الخلافة تنقسم إلى شقين :

١ ـ توجيه أنظار المحدثين من العرب الذين خسروا عنصر « السليقة » إلى ضرورة تلقُّن النطق الصحيح المبني أساسه على أسس ثابتة تقوِّي الملكة لديهم .

٢ ـ تمكين الطارئين على العربية ، وأهلها من تعلُّم قواعد تمنحهم القدرة على التعبير الصحيح » خوفاً على القرآن الكريم من الفساد ، والتحريف لأن اللحن فيه كان

عليهم أشد ، وإليهم أبغض »[1] .

ولذا صح أن يقال : إن النحو بدا عربياً ، وانتهى فارسياً ، وصنعه العرب ، ولاحقه الفرس لأنه لهم بالأساس . دون أن يفوتنا أن نشير إلى أن الدراسات العويصة ، والمماحكات غير المجدية ، والتفريعات الكثيرة ، والمتشعبة التي تنبو بالنحو عن العامة إلى الخاصة ليست من النحو في مكان ، ولا تتعلق به من قريب ولا بعيد . لأن النظر الشخصي ، والاجتهاد الفردي ، والجماعي في تبرير لفظ ، عن أعرابي ، أو قول ، عن قبيلة ليتناسب هذا القول ، أو هذا اللفظ مع القاعدة التي وضعها هذا العالم ، أو مدرسته التي ينتمي إليها . أمور دعت إلى تعقيد النحو ، ونفور العامة منه ، لصعوبة مطلبه .

(١) مصطفى ، إبراهيم ، أحياء النحو ، ص : ١٠ وراجع الموضوع نفسه من هذا الكتاب تحت عنوان أثر القرآن في وضع النحو .

الباب الثاني

العوامل التي أدّت إلى وضع النحو العربي

الفصـــل الأوّل

إنتشـــار اللحـن[1]

إن الظروف التي أحاطت بالحياة العربية القديمة ، والتي ساعدت على انتشار اللحن ، لم تكن مستجدة كل الجدة في الفترة الإسلامية التي أعقبت التبشير بالدعوة ، عنها في الفترة الجاهلية السابقة . فلم يكن العرب في جاهليتهم معزولين عن العالم الخارجي ، كما يبدو للوهلة الأولى ، والنظرة العجلى التي انطلق منها معظم المعمّمين الذين تحدثوا عن الموضوع ، وبالغوا فيه إلى درجة الإسقاط والإقحام على الحقائق بما ليس فيها[2] . مما أشاع نوعاً من الاضطراب ساد ، وطبق بين المثقفين مؤخراً حول عُزلة أبناء الجزيرة عن غيرهم ، أو انفتاحهم عليهم عبر ما نعرفه من أمور التجارة بالسفر إلى الخارج ، أو بمرور القوافل الغريبة في أراضيهم ، ومناطق مضاربهم ؟

والواقع الذي ينبغي التركيز عليه ، وتوضيحه هو أن العرب إنما كانوا منفتحين

---

(١) فضّلنا في هذا الكتاب اعتماد تسمية انتشار اللحن بدل ظهوره ، لأن الاختلاط بغير العرب قديم قبل الإسلام ، ولا فائدة منهجية تذكر لمعرفة بدء ظهور اللحن ، على الأقل بالنسبة لموضوع الكتاب ماعدا الناحية الاحصائية . بيد أن معرفة ظروف انتشاره وبداية غلبته على الألسن هو الأمر المفيد لأثره في ظهور النحو .

(٢) عنينا بهم هؤلاء الذين يحاولون بشتى السبل نفي أي تأثير من غير العرب عليهم حباً بالدفاع عن صفاء العربية كما يظنون وغيرها من الاعتقادات التي يدافعون عنها بأسباب واهية يسقطها التعمق والنظر العلمي المجرد إلى جغرافية وتاريخ المنطقة العربية التي لم تكن معزولة في جاهليتها قارن لبلاشير تاريخ الأدب العربي ص: ٦٨ ـ ٩٢ ـ ١٠١ .

على من جاورهم من الأمم ، والشعوب ، يحدوهم إلى ذلك أسباب منها : التعامل التجاري[1] الذي حوّل بيئة ذلك الشعب ـ الذي عدم كل وسيلة للتوسّع الاقتصادي في العيش ـ إلى بيئة استهلاكية واسعة ـ ومنها البعثات الدينية ، والرحلات إلى إمارات التخوم ، ممّا سهّل الاختلاط بالغرباء عن جزيرة العرب ، وشكّل الدوافع الرئيسة لانتشار اللحن وازدياده يوماً إثر يوم على ألسنة هؤلاء الغرباء ، إن لم نقل إنه تعدّاهم إلى بعض العرب الذين لم يهتموا بفساد ألسنتهم بمخالطة الأجانب لسبب أو لآخر . ليس آخره حب التعامل مع التجار الذي تحكمه المصلحة ، والفائدة الماديّة البحتة . وبشكل يتجاوز العربي الهنات الناشئة من اضطراره إلى التعامل مع التاجر بالشكل الذي يسيغه ، ويفهمه .

كما يتبين لنا أن اضطراب الألسنة باللحن بعد انتشاره وذيوعه ليس السبب الوحيد في ظهور النحو ـ وهو المعروف القديم المتجدد الدور ـ بل كان له وهو صاحب الأثر المهم إلى جانب أمور أخرى منها الخوف على نصوص القرآن الكريم من الخطل ، والفساد ، وحب المحافظة على الفصاحة ربيبة العربي ، إضافة إلى الواجب العلمي بتسهيل طلب تعليم العربية لإتقان الصلاة ومستلزماتها[2] ، الآثار الكبرى في إيجاد النحو علماً مستقلاً قائماً بذاته .

لذا وبملاحظة أن ظهور اللحن لم يكن مفاجئاً ، لأن هذا الاعتقاد يرفضه الأسلوب العلمي الرزين ، كما ترفضه ، وتدحضه الوقائع التاريخية التي صحّت ،

---

(١) كان التعامل التجاري القائم على الاستيراد في معظمه وعلى بعض التصدير أو نقل البضائع للإتجار بها من بلد إلى آخر ناشطاً جداً عبر الأسواق العربية السنوية التي كانت تُقام في نحو من عشرين مدينة تحيط بشبه الجزيرة العربية من سواحل المحيط الهندي . ومن شواطيء الخليج الفارسي ، إلى البادية الشمالية الممتدة من ريف العراق ، إلى بلاد الشام . وقد اختلف العلماء في عددها ، فقد عدّها اليعقوبي في تاريخه والبغدادي في الخزانة عشرة أسواق وعدّها الألوسي في بلوغ الأدب أربع عشرة والهمذاني في صفة جزيرة العرب خمسين سوقاً ومن أراد التطويل مع تعيين الأمكنة والأوقات فليراجع الكتب الآنفة .

(٢) الصفحة ٢٥ من هذا الكتاب تحت عنوان ماهية النحو العربي ودلالته الفقرة الأخيرة وانظر رواية وردت في متن الصفحة ١٣٢ من هذا الكتاب المقطع الثاني حيث يبين أبو الأسود فيها السبب الداعي إلى تعليم اللغة الأعاجم بعد دخولهم في الإسلام .

وانتهت إلينا ، عن أخبار اللحن الأولى . ينبغي التحوُّل عن التعبير القديم المنتشر بين الأوساط المختلفة : العام منها والخاص ، إلى التعبير « بانتشار اللحن » بدل ظهوره . لأن الدليل العقلي ، والحجة العلمية ، يؤكدان أنه لو كان مجرد وجود اللحن مدعاة لوضع النحو . لوجدنا على الأقل محاولات جديَّة من أيام الرسول ﷺ لوضع الأسس لهذا العلم . لأن اللحن عرف لعهده . يؤيد ذلك ما ورد عن لسان الرسول ﷺ نفسه حيث يقول : « **أنا من قريش ، ونشأت في بني سعد ، فأنى لي اللحن** »[1] . كما يُنقل عنه قوله ، طالباً إلى أصحابه عند سماعه لرجل لحن في كلامه في حديث نقله ابن جني : « **أرشدوا أخاكم فإنَّه قد ضلّ** »[2] . وكذلك أورد ابن جني حديثاً ثالثاً للرسول ﷺ نهى به أحد المسلمين عن النبر باسمه قائلاً له عند قوله : « يا نبيء الله » : « **لست بنبيء الله ، ولكنني نبي الله** »[3] . وفي هذه الأحاديث الثلاثة دلالة واضحة على حدوث اللحن أيام الرسول ﷺ بل أمامه وعلى مسمع منه ومرأى . دون أن تتجاوز إشارة النبي في اثنين من هذه الأحاديث الرد عن الخطأ ، إلى الصواب . لأن الخطأ ضلال كما اعتبره ، بتلقين الشكل الصحيح في التلفظ باسمه ، بنفسه ، وبالطلب إلى أصحابه بتلقين الرجل اللاحن ليعود عن لحنه وضلاله إلى جادة التلفظ الصحيح . هذا إلى جانب ما في الحديث الأول من عمق دلالة على بعد الأثر الذي وصل انتشار اللحن إليه ، مما يحدو بالنبي ﷺ إلى تعيين منبته ، ونشأته أو فصاحته ، وأصله حسب رواية أخرى للحديث[4] ، نفياً للَّحن عن نفسه ولسانه .

أسباب انتشار اللحن :

إثر الفتوحات التي أعقبت سيطرة الحكومة الإسلامية في المدينة خاصة تلك التي تمت لعهدي أبي بكر ، وعمر . تمكَّن العرب المسلمون ، من بسط نفوذهم

---

(١) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ج ٢ ص: ٣٩٧ .

(٢) ابن جني ، الخصائص ، ج ٢ ص: ٨ . والحديث مرفوع في الحاشية إلى كنز العمال ، مطبعة دار المعارف الهندية ج ١ ص: ١٥١ ، وانظر لياقوت معجم الأدباء ج ١ ص: ٨٢ .

(٣) ابن جني ، الخصائص ، ج ١ ص: ٣٨٢ ، السطر الرابع .

(٤) ابن هشام ، السيرة ، ص: ١٥٤ مقطع ٢ والحديث أنا أعربكم ، أنا قرشي واسترضعت في بني سعد .

على العراق ، والشام ، ودخلوا مصر بعد قضائهم على سلطان البيزنطيين ، والفرس في هذه الأقطار المفتتحة[1] . فتهيأت بذلك الأسباب التي ساعدت على انتشار اللحن بشكل متسارع ، ظهر معه خطره الكامن سابقاً . وقد توزّعت هذه الأسباب مجتمعة على الشكل البياني التالي :

١ ـ التوسّع العسكري :

كان من آثار الفتوحات العسكرية أن تمت للخلافة ، ولحكومتها المركزية في المدينة ، بعد التوسّع العسكري الملتزم تخطيط النبي السابق ، السيطرة الكاملة على مناطق نفوذ واسعة ـ داخل الجزيرة العربية وخارجها ـ تمتد من بلاد الشام ، والعراق شمالاً ، إلى سواحل المحيط الهندي جنوباً . ومن سواحل الخليج الفارسي ، وأطراف اليمن في جنوبي شبه الجزيرة العربية شرقاً ، إلى سواحل البحر الأحمر عند أطراف مصر في أفريقيا غرباً . ولقد حفلت هذه الأقطار باختلافات بشرية عرقية ، وروحية ، ولغوية كبيرة . تركت آثارها الواضحة على المجال اللغوي الذي قدَّم اللغة العربية وسيلة للتخاطب ، والتعامل كونها لغة السياسة والدين ، ولغة الفاتحين المنتصرين الذين استخدموها للتبشير بالدعوة الجديدة .

٢ ـ التوسّع السكاني :

وهو في أحد أشكاله سياسي بحت . ولعلَّه من أهم الأسباب التي دعت إلى ذيوع اللحن ، وسهولة انتشاره . فلقد دخل مع بسط حكومة الخلافة نفوذها على التخوم والأنحاء عدد كبير من الجماعات الإنسانية المختلفة الانتماءات العرقية ، والقومية ، والدينية . مع ما يحمل من اختلافات لغوية متباعدة حيناً ، ومتنافرة حيناً آخر . فكان هنالك السريان ، والروم ، والأقباط النصارى ، وكان هنالك اليهود ، وفيهم من العرب وغيرهم وكان هنالك العرب بانتماءاتهم الشمالية ، والجنوبية[2] .

---

(١) إبراهيم بيضون ، وسهيل زكّار ، تاريخ العرب السياسي ، ج ١ص: ٥٦ ـ ٦٨ تحت عنوان الفتوحات .

(٢) الصالح ، صبحي ، دراسات في فقه اللغة ، ص : ٣٠٠ وكذلك الصفحات ٥٩ ـ ٧١ عن العربية ولهجاتها . ولأحمد بن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة ، ص: ٢٢ . وقصة ذلك الاختلاف مفاده المثل التالي . أن رجلاً من أهل الشمال قصد ملكاً من ملوك اليمن فلما رآه =

وما صاحب ذلك من اختلاف في المفاهيم ، والمداليل اللغوية ، والتعبيرية ، وانتماءاتهم القبلية المختلفة ، والتي تركت آثارها واضحة على لهجاتهم الشمالية نفسها من « تميمية » و « قرشية » من حيث الاختلاف في المباني ، والمعاني والدلالات[1] وطبيعي والحال هذه أن يعمَّ اللحن ، وينتشر بعد أن فضّلت حكومة الخلافة لهجة قريش على بقية اللهجات وتبنتها لهجة رسمية بعد أن تبناها القرآن الكريم لغة له . ومن هنا بدأ اللحن يتسع بعد أن نطق كل من الداخلين تحت لواء الحكومة المركزية على سجيته ، وحسب سليقته ، وحسب إمكان إجادته العربية القرشية ، فاضطربت الألسنة ، وشاع اللحن قياساً على ما فرضته اللهجة القرشية الحجازية .

٣ ـ التوسُّع الاقتصادي :

كان من نتائج التوسُّع العسكري المباشرة . فقد أصبحت المدينة إلى جانب مكة قلب الدولة النابض ، فتدعمت مكانتهما السابقة وأصبحتا من منطلق النفوذ السياسي للأولى ، والديني للثانية . مركزين مهمين إن لم نقل أساسيين في عملية التبادل التجاري الذي كان معروفاً أيام الجاهلية برحلتي الشتاء والصيف[2] من مكة وإليها ، وأيام الإسلام الأولى بمشاركة النبي فيه بشخصه . وازداد نشاطاً مع بسط السيطرة الإسلامية على النواحي والتخوم ، ومع فتح الحدود ، وإشاعة الأمن ، والقضاء على الزعامات القبلية لصالح الحكومة المركزية . فكثر عدد التجار من

= الملك قال له ثب . وهو يريد منه الجلوس بلغة « ظفار » فرمى الرجل بنفسه من على سطح قصر الملك ودقت عنقه ، ليرى أنه سامع له مطيع ومن هنا جاء المثل المشهود « من دخل ظفار حمّر » وله صيغة أخرى قريبة منه في الخصائص ، لابن جنّي ، ج ٢ ص: ٢٨ فلتراجع .

(١) حيث اختلفت اللهجتان فبينما ترفع ما في الأولى تنصب في الثانية ، وبينما تدغم للتوسع تميم في ألفاظها تفك قريش الادغام ، بينما تؤنث تميم بعض الألفاظ تذكر قريش . راجع للصالح صبحي ، فقة اللغة ص: ٥٩ ـ ١٠٥ .

(٢) وقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم وكان رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام جاء ذلك في سورة قريش ص: ١٠٦ الآية : ٢٣ راجع لاحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص: ١٤ ولبلاشير ، تاريخ الأدب العربي ، ص: ١٧ ـ ٧٠ .

أحباش ، وعرب ، ويهود ، وغيرهم . ونشطت عملية التبادل التجاري مع ازدياد الطلب ، وحاجة السوق المحلية ، وازدياد عدد السكان . مما أدخل عدداً كبيراً من غير العرب إلى داخل الجزيرة العربية حبّاً باعتناق الإسلام ، والحياة داخل رقعة حكمه . أو حبّاً بالإتجار والكسب مما أسهم في ازدياد رقعة اللحن ، وازدياد عدد اللاحنين .

التوسّع الاجتماعي :

وهو بدوره من الأسباب المهمة التي ساعدت على نشر اللحن ، ومن الأسباب التي نتجت عن التوسع العسكري . فلقد شغل المسلمين هم نشر العقيدة وتدعيمها في البلاد التي دخلت تحت رايتهم بشكل يوافق النظام الإسلامي ، الذي أفرَّته الحكومة في المدينة المنوَّرة[١] . فبعد أن كانت العملية محصورة بحدود الجزيرة العربية ، إن لم نقل ببعض نواحيها التي ارتبطت بعامل اللغة على الأقل ، إضافة إلى عامل المناخ الصحراوي المتشابه ، وعامل العادات القبلية المتقاربة ، أصبحت الآن منتشرة على حدود الدولة الإسلامية المترامية الأطراف من مصر حتى العراق ، والشام فضلاً عن الجزيرة . مما استدعى عملاً دؤوباً لتبليغ النظام الإسلامي الموحَّد ، وتعميمه ، ونشره ليطبَّق وفق مقتضيات الشريعة ، وما تطلبه من زكاة ، وخراج ، وفيء ، وأمور أخرى تنتظم وفق نظام الجباية الإسلامية التي تسعى الخلافة من خلاله إلى الوصول إلى التكافؤ الاجتماعي المنشود[٢] . وبدهي أن ذلك سيتمُّ تبليغه ، وتعميمه باللُّغة العربية ، لغة الدولة الرسمية والوحيدة ، التي تبنَّتها الحكومة المركزية بعد أن تبنّاها الكتاب الكريم .

---

(١) فقد عمل النبي ﷺ والخلفاء من بعده على تدعيم أسس المفاهيم الإسلامية في المجتمع الإسلامي الناشيء ، من المؤاخاة والمساواة بين المهاجرين والأنصار نواة الدولة الإسلامية إلى مبدأ توزيع الثروات بالحق والعدل إلى نبذ القومية والعصبية القبلية والعرقية إلى تحصين أواصر المجتمع بسن الحدود واحترام الحرمات ووضع القوانين التي تعالج كل شائبة مهما صغرت وكبرت .

(٢) الصالح صبحي ، النظم الإسلامية ، الباب ١٣ النظم السياسية والإدارية ص : ٢٤٧ - ٣٣٤ . والباب الرابع النظم المالية والاقتصادية ص : ٣٣ - ٤٢٩ والباب الخامس النظم الاجتماعية والحضارية ص : ٤٣١ - ٤٨١ .

الفصـــل الثاني

اللحن والشعر الجاهلي[1]

ومن منطلق عدم ظهور اللحن بصورة مفاجئة يتحتم علينا الحديث عن اللحن ، وأثره في الشعر الجاهلي ، وعن مدى الفساد الذي لحق بهذا الشعر الذي عدَّه العلماء الأوائل على درجة كبيرة من الصفاء ، ومن الصحة البنيوية والمنهجية ، مما لا يرقى إليه الشك ، ومما لا يصل إليه لحن . بل إنهم لم يكتفوا بذلك حتى قدَّموا الاستشهاد بالشعر ، على الاستشهاد بالقرآن . « ولذلك حكموا على بعض آياته بالشذوذ لمجيئها بما لا يقاس عليه لقلَّته عند أتباع المدرستين البصرية والكوفية »[2] . « ولذلك أولع كثير من النحاة بمناقشة القراءات ، وردِّها إذا لم تكن متطابقة مع ما ألفوه من مذاهب البصريين ، والكوفيين ، وكان المنهج الحق يطالبهم بالنظر في القراءة نفسها ، فمتى صح سندها ، ووافقت الرسم القرآني[3] لا يصح ردّها وتعدُّوا ذلك إلى جواز الاستشهاد بالأبيات المجهولة الصاحب من الشعر من دون إجازة الاستشهاد بالآيات

---

(١) تمَّ اختيار الشعر في هذا المجال وتقديمه على القرآن الكريم لأننا مارسنا في الكتاب وظيفة النحوي الأساسية باستقراء ما كان لا فرض ما نريده أن يكون . وعليه فقد قدَّم النحاة كما هو مشهور الاستشهاد بالشعر الجاهلي على الآيات ؛ كل مدرسة بحسب ما ترى لتوافق العملية قواعدهم التي وضعوها كما نقل ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء ، ص: ٢٣ « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم أصح منه » والقرآن نزل عربياً بمحاكاة تلك الأشعار . فاعتمدوا الأصل ووقعوا في هذا الخطأ الكبير .

(٢) عبد الوهاب حمودة ، اللهجات والقراءات ، ص: ١٢٩ فقد تحدَّث في الموضوع وانظر لعباس حسن ، اللغة والنحو ص: ٩٣ ـ ١٠٠ فهو صاحب العبارة أعلاه .

(٣) انظر اللهجات والقراءات ، ص: ١٣٠ .

على ما نقله صاحب « كتاب اللهجات ، والقراءات » حيث أورد ما نصه : « إذا جوَّزْنا إثبات اللغة بشعر مجهول فجواز إثباتها بالقرآن أولى . وكثيراً ما نرى النحويين متحرزين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن . فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا به »[1] .

وبعودتنا إلى موضوع الشعر الجاهلي واللحن ، نستطيع أن نتصوَّر من خلال الخلاف بين اللهجات العربية المتعددة مع لهجة قريش عدم خضوع جميع الشعراء للّهجة القرشية في قصائدهم كلها[2] . شأنهم في ذلك شأن أبناء قبائلهم ، الذين لم يستطيعوا اللحن بغير لحنهم ، أو التعبير بغير لهجتهم . لا سيَّما بين أقوامهم ، وفي مضاربهم حيث لا يُضطرون إلى استعمال لهجة قريش لسبب أو آخر . أضف إلى ذلك أن الغلبة القرشية كانت غلبة سياسية ، ودينية ، واقتصادية ، بدأتها قريش عبر مكانة أم القرى في الجاهلية ، ودعَّمتها في الإسلام حيث كان النبي ، والوحي الذي يوحي إليه ، يلهجان بها . مما ساعدها على السيطرة على غيرها بالإقناع تارة .

---

(١) م . ن . والصفحة نفسها وص: ١٣١ وقد نقله الكاتب عن الرازي الإمام صاحب التفسير ، والمعروف بالفخر الرازي .

(٢) فقد ذكر القالي في أماليه عن أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي قوله : جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال : يا أبا عمرو ما شيء بلغني أنك تجيزه قال وما هو قال بلغني أنك تجيز «ليس الطيب إلاَّ المسكُ» بالرفع . قال أبو عمرو : نُمت يا أبا عمرو وأدلج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، ولا في الأرض تميمي إلاَّ وهو يرفع . ثم قال : قم يا يحيى وأنت يا خلف فاذهبا إلى أبي المهدي فلقناه الرفع فإنه لا يرفع ، واذهبا إلى أبي المنتجع فلقناه النصب فإنه لا ينصب . قال : فذهبنا فأتينا إلى أبي المهدي فإذا هو يصلي فلما قضى صلاته التفت إلينا وقال : ما خطبكما . قلنا : جئنا نسألك عن شيء من كلام العرب قال : هاتيا . فقلنا : كيف تقول ليس الطيب إلا المسك بالرفع . فقال : أتأمراني بالكذب على كبر سني . . . فقال : ليس هذا لحني ، ولا لحن قومي . فكتبنا فاسمعنا منه ثم أتينا أبا المنتج . . . فلقناه النصب فلم ينصب ، وأبى إلاَّ أن يرفع . فأتينا أبا عمرو وأخبرناه وعنده عيسى فأخرج عيسى خاتمه من يده . وقال : ولك الخاتم . بهذا والله فقت الناس ، راجع في القصة الأمالي ج ٣ ص: ٣٩ والمزهر للسيوطي ج ٢ ص٢٧٧ وطبقات الزبيدي ص: ٣٨ ، وقارن لبلاشير تاريخ الأدب العربي ص: ٩١ .

والتحبُّب حيناً ، والإكراه أحياناً . عملاً بقاعدة عدم إحياء النسيء التي خافها العلماء إسلامياً(١) .

وبـدهي أن ينشأ خلاف ، وإسفاف ، ولحن ، وتقصير في التعبير بغير اللهجة الأصلية . وهذا مما يؤكد فساد بعض الشعر الجاهلي الذي وصلنا ، واجتهد العلماء في الدفاع عن أخطاء أصحابه ، وإيجاد القواعد له بما وصلهم من أبيات شعرية منثورة في الكتب . كالذي وصلنا عن امريء القيس(٢) ، وطرفة بن العبـد(٣) ، وعدي بن زيد(٤) ، وقس بن ساعدة(٥) ، والنابغة الذبياني(٦) ، وأمية بن الصلت(٧) ، ولبيد بن

---

(١) سورة التوبة ، الآية : رقم سبع وثلاثون . ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر يُضل به الذين كفروا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ وحيث توسُّع الفقهاء في عدم العودة إلى عادات ومعارف الجاهلية خوفاً من الوقوع في الحرام والكفر .

(٢) امرؤ القيس بن حجر الكندي أبوه ملك أسد وغطفان وأمه أخت المهلهل ، أخذ الشعر عن خاله وأنشده فتياً مشبباً لاهياً فابعده أبوه إلى (حضرموت) فجعل يطوف في أحياء العرب مع أصحابه حتى قتل والده فطلب الثأر وأدركه . إلى أن لاحقه المنذر اللخمي ، فاستجار بالسموأل ثم فرّ إلى قيصر طالباً المساعدة على الفرس وعاد إلى بادية فلسطين والياً عليها إلا أنه مات بأنقرة في حدود ٥٤٥ م لقب بالملك الضلِّيل راجع الأعلام ج ٢ ص: ١٢ .

(٣) طرفة بن العبد من الطبقة الأولى ولد في البحرين واتصل بعمرو بن هند الملك اللخمي الذي قتله بعد أنه بلغه أن هجاه وهو أحد أصحاب المعلقات . تفيض الحكمة على لسانه في أكثر شعره توفي ٥٦٤ م راجع الأعلام ج ٣ ص: ٢٢٥ .

(٤) عدي بن زيد شاعر فصيح من شعراء الجاهلية . يقول فيه الأصمعي وأبو عبيدة : عدي بن زيد من الشعراء بمنزلة سهيل من النجزم يعارضها إلاّ أنه لا يجري مجراها توفي ٥٩٠ م تقريباً راجع فيه الأعلام ج ٤ ص: ٢٢٠ .

(٥) قس بن ساعدة أسقف نجران ، وأول عربي خطب متكئاً على عصا أو سيف كان يفد على قيصر فيكرمه وهو من المعمرين مات في حدود سنة ٦٠٠ م . راجع فيه الأعلام ج ٥ ص: ١٩٦ .

(٦) النابغة الذبياني زياد بن معاوية شاعر جاهلي من الطبقة الأولى وحكم سوق « عكاظ » وأحد أشراف الجاهلية ومعمريها توفي ١٨ هـ لا تكلف في شعره وقد اشتهر في اعتذارياته . أخذ عليه أقواؤه ، راجع فيه الأغاني ط دار الكتب ج ١١ ص: ٤ وما بعدها والأعلام ج ٣ ص: ٥٤ .

(٧) أميّة بن أبي الصلت شاعر جاهلي نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً وكان ممن حرّم الخمر على نفسه وشك في الأوثان وطمع في النبوّة لأنه قرأ أنه يكون نبي العرب فكان يرجو أن يكونه . راجع الأغاني . ج ٤ ص: ١٢٠ .

ربيعة[1] وعمرو بن أحمر[2] .

فقد نقل صاحب الوساطة[3] ، في كتابه عن امريء القيس ما يلي :

قـولـه :

يـا راكـبـاً بـلغ إخـوانـنـا   من كـان من كـنـدة أو وائـل

بنصب (بلّغ) وهو فعل أمر .

وقوله :

لـهـا متـنتـان خـظّاتـا كـمـا   أكبَّ على سـاعـديـه النمـر

بإسقاط نون المثنى من خظاتـان[4] دون إضافـة تستدعي ذلك .

وقوله :

فـاليوم أشـرب غير مستحقب   إثـمـاً مـن الله ولا واغـل

بتسكين أشرب وهو فعل مضارع مرفوع .

كما نقل القاضي الجرجاني عن طرفة قوله في أرجوزة له[5] .

فـقـد رفـع الفـخ فـمـاذا تحـذري

بحذف نون المضارع وهو من الأفعال الخمسة المرفوعة .

---

(1) لبيد بن ربيعة . أبو عقيل مخضرم وفد على النبي ﷺ واعتنق الإسلام وترك الشعر وهو أحد أصحاب المعلقات توفي ٦٦١ م الأعلام ج ٥ ص: ٢٤٠ .

(2) عمرو بن أحمر شاعر مخضرم . أسلم واشترك في مغازي الروم وعاش طويلا . وتوفي ٦٥ هـ بسقيا في البطن راجع فيه خزانة الأدب للبغدادي ج ٣ ص: ٣٨ والأغاني ج ٨ ص: ٢٣٤ .

(3) علي بن عبد العزيز أبو الحسن الجرجاني ، قاض من العلماء بالأدب ، كثير الرحلات وله شعر حسن وكتب عدة أشهرها « الوساطة بين المتنبي وخصومه » توفي ٣٩٢ هـ راجع الأعلام ج ٤ ص: ٣٠٠ والوساطة ص: ١١٢ وما بعدها في أبيات اللحن .

(4) خظاتان : مكتنزتان باللحم .

(5) ديوان طرفة بن العبد ، ص: ٤٦ .

أما عدي بن زيد[1] فقد نقل صاحب الأغاني عنه أنه أخذ عليه أشياء عيب فيها وقال ابن قتيبة فيه : إنه كان يسكن الحيرة ، ويدخل الأرياف ، فثقل لسانه وعلماء العربية لا يرون شعره حجة .

أما قس بن ساعدة ، فهو من خطباء الجاهلية ، وحكمائها ، وكهانها . وقد استعمل كلاماً غير مفهوم في شعره ، وهو أول من استعمل أما بعد[2] .

وأما النابغة الذبياني فأُخذ عليه إقواؤه حسب ما نقله الأصبهاني[3] عن أبي عبيدة كان فحلان يقويان : النابغة ، وبشر بن أبي حازم . فأما النابغة فدخل يثرب ، فهابوه أن يقولوا له لحنت ، فدعوا قينة ، فأمروها أن تغني من آل مية :

من آل مية رائحٌ أو مغتدِ   عجلان ذا زادٍ وغير مزوَّدِ
زعم البوارح أن رحلتنا غداً   وبذاك خبرنا الغراب الأسودِ

ففطن ولم يعد إلى اللحن .

كما نقل الأصبهاني عن أُميَّة بن أبي الصلت[4] إنه كان يأتي في شعره بأشياء لا تعرفها العرب ، ومنها قوله :

قمر وساهور يسلّ ويُغمَدُ   في استعماله لكلمة «ساهور»

وقوله :

«والسلطيط فوق الأرض مقتدر»؛   وكان يسمي الله «السلطيط»

وقوله :

«وأيده   التغرور» ؛   وسمَّاه أيضاً «التغرور»

قال ابن قتيبة : وعلماؤنا لا يحتجون بشيء من شعره لهذه العلَّة ، ونقل عنه

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ج ٢ ص: ٩٧ .
(٢) م . ن . ج ١٥ ص: ٢٤٦ والأعلام للزركلي ج ٥ ص: ١٩٦ .
(٣) م . ن . ج ١١ ص: ٤ وما بعدها .
(٤) م . ن . ج ٤ ص: ١٢٠ وما بعدها .

أيضاً قوله : يلومونني في اشتراء النخيل أهل فكلهم ألومُ(1) . حيث جمع الفعل مع تقدّمه على الفاعل الجمع .

وكذلك نقل الجرجاني عن لبيد بن ربيعة قوله :

تـرّاك أمـكـنـة إذا لـم أرضـهـا أو يـرتبط بعض النفـوس حمـامهـا(2)

فسكّن يرتبط مع أن حرف الجزم لا عمل له فيه .

أما ابن أحمر فقد أخذ عليه علماء العربية(3) ألفاظاً غريبة في شعره منها « مأموسة » صفة للنار « وبابوس » لحوار الناقة(4) .

وعليه يتبين لنا أن بعض الشعر الجاهلي ، لم يخل من فساد لحق به من جراء الاختلاط ، بالرحيل إلى إمارات التخوم من قبل الشعراء الذين تراوحت مكانتهم . فكان منهم المعروف مثل ابن أحمر ، والمشهور مثل أمية بن أبي الصلت ، وعدي بن زيد ، والذائع الصيت ، بل كبار الفحول ، وأصحاب الطبقة الأولى مثل حكم عكاظ النابغة ، والملك الضليل امرىء القيس ، والغلام القتيل طرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة . أضف إلى ذلك أن الشعراء الذين نظموا بلهجة قريش ؛ لينتشر شعرهم ، بعد أن نشطت وانتشرت هذه الأخيرة ، كانوا قد نظموا أو ألِفوا النظم بلهجاتهم . وبدهي أن لا يُجيد المقلدون الإداء شأن القرشيين الأصليين ، وهذا منشأ آخر من مناشيء اللحن باعتبار القياس على لهجة قريش .

كما نستطيع القول : إن شعر الشعراء ساعد في نشر اللحن إلى درجة محدودة ، نقول : هذا بصورة متحفظة للرّد فقط على من يؤكد إن عامة الشعر الجاهلي كان نقياً من اللحن صالحاً للاستشهاد على صحة ما سبق . مع التاكيد على

---

(1) الجرجاني ، عبد القاهر الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص: ١١٢ وما بعدها والأغاني ج ١٥ ص: ٣٦١ .

(2) م . ن . والصفحة نفسها .

(3) نقل ذلك الأصبهاني في الأغاني ج ٨ ص: ٢٣٤ .

(4) لسان العرب ج ٤ ص: ٢٢١ . « والحوار أو حوار الناقة ولد الناقة من حين وضعه ، إلى فطامه .

أن لا يفوتنا أن معظم ما وصلنا من شعر جاهلي مخالف لما بين أيدينا من أصول وقواعد استنبطها العلماء من الوثائق اللفظية السماعية بما يوافق لهجة قريش . لا يُعدّ خطأ ، لأنه جاء أصلاً على غير قواعد اللهجة القرشية في حقبة لم تكن قد سادت فيها بعد ، أو في جلسة ضمت الشاعر وأفراد قبيلته ، مما لا يضطره إلى استعمال غير لهجته . منعاً للاجحاف اللاحق بالدراسات النحوية ، ورميها بالتعقيد ، والذي لم يلحق بها إلاّ بسبب النحاة ، الذين انطلقوا بصورة عكسية لما تفرضه طبيعة الأمور المنهجية . فقد بدأوا بوضع القواعد وفاق لهجة قريش ، بعد أن بلغت هذه الأخيرة مرحلة مهمة من النضج . وفاتهم أنّ ما رفضوه ليس خطأ لو أعادوه إلى أصله ، لأنه ليس أصلاً من أصولهم يقيسون عليه ، لعدم إنتمائه إلى دائرة عملهم .

الفصـــل الثالث

منشـأ اللحن

أ ـ منشـأ اللحن[1] :

السؤال الذي يطرح نفسه الآن ، ترى هل كان اللحن شيئاً دفيناً في اللغة وجد مع وجودها الأول ؟ أم أنه تيسرت له أسباب دفعت إليه وهيأت لوجوده ؟

لم يكن ظهـور اللحن أمراً مفـاجئاً ، يشكـل زاوية حـادَّة في تاريـخ الحضارة العربية الإسـلامية ، وإنما كان أمراً ضارباً في القدم ، دعت إليه طبيعة الحياة العربية الجاهلية . حيـث كانت تعتبر مأوى للمهاجرين من الشعوب المجاورة جغرافياً لحدود الجزيرة العربيـة مثل اليهود ، والروم والأحباش ، والفرس ، الساعين وراء الكسـب ، والارتزاق ، والذين كانوا يَلجون أرض جزيرة العرب ، حبـاً بالمشـاركة في الحـركة التجارية الناشطة في الأسواق العربية الموجودة على مدار أيام السنة ، والشهيرة جداً في الجاهلية[2] . حيـث كـانوا يفـدون محمَّلين بالبضـائع ، واللوازم الاستهـلاكية ، والتي كانت تجد نفاذاً ورواجاً في تلك الأسواق المنتشرة على حدود الجزيرة العربية .

---

(١) بدهي أن للأمور أسبابها التي ترتبط بها ارتباط الفرع بالأصل ، والفنن بالجذع . وإذا كان النحو من المسببات التي ظهرت إثر عوامل معينة في تاريخ الحضارة الإسلامية . فالعودة إلى هذه العـوامل تبيِّن ويكـل بسـاطـة الأسبـاب التي دعت إلى ظهـور هـذه النتـائج . ليصـح التعـرُّف على الأساس الذي انطلق منه النحو قبل أن يغدو علماً له موضوعه ، وأسسه وأبعاده ، وأطـره . وليصح بالتالي ربط النهاية بالبداية ، ليُثمر البحث ويُؤتي أكله ، ويُنظر إلى الموضـوع نظرة تامة محيطة بجوانبه .

(٢) الصفحة ٤٥ من هذا الكتاب فقد سبقت الإشـارة إليها .

وعليه يتضح مدى الأثر الذي كان ينتج عن اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب ، وما يتبع ذلك من استيطان بعض هؤلاء الأجانب من التجار ، والرحّالة ، وأصحاب القوافل وغيرهم . في المدن التي كانت تقام فيها هذه الأسواق طلباً للإتّجار ، أو الكسب عن أي طريق آخر[1] .

ومع عودتنا إلى تاريخ العصر الجاهلي ، نجد أثر تلك المخالطة في شيوع اللحن ، وانتشاره . فلقد ساهم الاختلاط الناتج تارة عن الهجرة إلى شمال الجزيرة العربية في الداخل . وأخرى إلى خارجها للعودة إليها من جديد بإفادة اللغة ، وأهلها ، والذي ظهر كما يلي :

إلى الداخـــل :

بعد أن هاجر أهل اليمن من جنوب الجزيرة إلى شمالها مع سقوط المملكة وضعف التجارة بين القرن الثالث ، والقرن الرابع ق . م .[2] ، مع ما رافق ذلك الانتقال من بلبلة لغوية نتيجة الاختلاف اللغوي البارز ، « فلغة اليمن كانت تخالف لغة الحجاز في أوضاعها ، وتصاريفها »[3] وبعد دخول البعوث الدينية المسيحية ، واليهودية ، والتي لعبت دوراً مهماً في تعزيز الاختلاط بما له من فوائد ، إيجابية تتلخص : بتعريف العرب على التوحيد عبر الديانتين وإفادتهم بالمستويين : الحضاري ، والثقافي ، اللذين انطلقت منهما االديانتان التوحيديتان : اليهودية ، والمسيحية . وسلبية تتلخص : وتنحصر بذلك اللحن الناتج عن الاختلاط بغير العرب ، واللحن بغير العربية مما يناسب تعاليم الديانتين . وبعد لجوء الرومان ، والأحباش إلى إقامة بيوت خاصة لهم يستخدمونها للإشراف على مصالحهم التجارية كما يدّعون ، ويحاولون إظهاره في العلن ، وللتجسس على العرب ، وأحوالهم الداخلية المهمة بالنسبة « لروما » في الباطن[4] . وبعد انتشار عادة إقتناء الإماء الذي تطوُّر إلى تحول البعض منهن إلى احتراف مهنة البغاء وكن في غالبيتهن ينتمين إلى

(١) الصفحة ٦٠ من هذا الكتاب تحت عنوان اقتناء الإماء .

(٢) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص: ٥ السطر قبل الأخير .

(٣) م . ن . ص: ٥ وسط الصفحة تحت عنوان « الثاني » .

(٤) م . ن . ص: ١٣ أسفل الصفحة وقد نقله أحمد أمين عن المستشرق أوليري . وانظر أيضاً للأفغاني سعيد ، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، ص: ٤٥ وص: ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

الروم ، والفرس ، والأحباش . وما قصة عنترة بن شدّاد العبسي مع أمه زبيبة الحبشية إلاّ خيرُ شاهد على وجود مثل عادة استخدام الإماء .

وإلى الخـــارج :

عبر التجارة ، وإعادة التصديـر . بنقل غـلأت بعض الممالـك(1) إلى البعض الآخر . للعودة بعدها من جديد إلى شمال الجزيـرة بما اشتملت عليه البلدان التي زارتها القوافل من غلال ، ومحاصيل ، ومنتجـات . وعبر رحيـل الشعراء إلى أمـراء الغســاسنـة ، والمنـاذرة ، والممـالــك الأخـرى لــلإفـادة من الخلع ، والهبــات ، والمناصب ، والأموال ، التي كان يوفرها الأمراء اللخميون ، والغسانيون(2) .

هذا في الجاهلية ، أما في عصر صدر الإسلام ، فقد استمرت الحال على ما كانت عليه في الجاهلية من النواحي التجارية فقط . بعد أن توقفت عمليات التبشير ، ووضعت الحدود للمحرمات ، ومحاربة المنافقين في الداخل إلاّ أنه برز عنصر جديد مهم جداً هو الاختلاط بالأعاجم بشكل لم يسبق له مثيل . حيث أتيح للبعض منهم ، بعد دخولهم في الإسلام أن يلعبوا أدواراً مهمة في التاريخ الإسلامي . نذكر منهم على سبيـل التمثـل لا الحصـر : سلمـان الفــارسي(3) ، وصهيبـاً الــرومي(4) ، وبـلالاً

---

(1) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص: ١٢ تحت عنوان « التجارة » .

(2) فقد كان عـرب الحيرة في رخـاء يحسدهم عليه غيرهم من العـرب لخصـب أرضهم وغنى إقليمهم . وكانوا هم الصلة بين عرب الجزيرة والفرس ، وكانوا أرقى عقلاً من عرب الجزيرة لتحضرهم ولمجاورتهم مدنية الفرس بل إنهم نعموا بالاً بما تـسرّب إليهم من علوم اليونان ، وآدابهم عبر الفرس ولم يكمن عرب الشام أقل حظاً من عرب الحيرة بل كانوا أرقى عقلية من المناذرة لأنهم كانوا أقرب إلى الثقافة الهلينية القديمة بحكم وجود إمارتهم على حدود الروم . ومع هذه الحال قصد الشعراء ملوك الإمارتين طمعاً بنوالهم فكان من الذين قصدوا المناذرة : النابغة الذبياني ، والمتلمّس ، وطرفة ، وعدي بن زيد ، وممن قصدوا الغساسنـة : النابغـة الذبياني ، والأعشى ، والمرقش ، الأكبر ، وعلقمة الفحل .

(3) سلمان الفارسي ، صحابي جليل من مقدميهم من المعمرين رحل من فارس إلى الشام بحثاً عن الحقيقة ، عدا عليه قوم من بني كلب فباعوه لرجل من المدينة بعد استعباده . وعندما بعث النبي ﷺ أبى أن يتحرر بالإسلام ؛ فأعانه المسلمون على شراء نفسه . وهو صاحب فكرة الخندق في يوم الأحزاب ، وفيه قال الرسول ﷺ « سلمان منا أهل البيت » . توفي في ٣٦ وله قصة مطولة رواها ابن هشام في السيرة النبوية ، ج ١ ص: ١٩٨ وما بعدها .

(4) صهيب الرومي ، بن سنان بن مالك من بني النمرين قاسط . صحابي من أرقى العرب سهماً . =

الحبشي[1] ، والذين كانوا يُدعـون من قبل الأرستقـراطية القـرشية « بـأرذال النـاس » كونهم من العبيد ، وغير العرب ، ولما كانوا يلحنون بـه من لسان أعجمي ممـا دفع النبي ﷺ إلى توجيه الملامة إلى من سخر من سلمان لطريقة نطقه ، وتلفـظه عندمـا دخل المسـجد ، وسمعهم يتندرون عليه في حـديث مشهور[2] على أن هـذا العنصر الجديد سيزداد بروزاً بعد الفتوحات ودخول العـراق ، والشام ، ومصـر تحت سلطة دولة الخلافة لما عقب هذا الدخول من انضواء أعـداد كبيرة من الـروم ، والفرس ، والأحباش تحت راية الدين الجديد .

وبـدهي أن يستعمل المسـلم اللغة العربية للصـلاة ، وقراءة القـرآن مما يـرفد اللحن برافد لا يغيض معينه ، منبعه ألسنة هؤلاء المسلمين الطارئين على العـربية . ولا تفوتنا الإشارة بالخط العريض ، من باب الإحاطة بالموضـوع بحثاً ، وتحقيقـاً . إلى وجود الجالية اليهودية في شمالي الحجاز ، والتي تعود بأصولهـا إلى صنفين من اليهود :

الأول : عبارة عن يهود نزحوا إلى تلك البـطاح هربـاً من التنكيل الـذي لحق لهم ، وبنسـائهم ، وأولادهم على يد الروم في بلاد الشـام . وهم بأصـولهم من غير العرب[3] .

= وهو أحد السابقين كان أبوه من أشراف الجاهلية ولي لكسرى على البصرة مدة من الزمن ، وقع في الأسر عندما أغارت الروم على أرض الموصل حيث منازل أهله فـتي وهو صغير ونشأ بينهم فكان لكناً . ومنها جاءه لقب الرومي . اشتراه أحد المكيين ثم أعتقه فأسلم . واحترف التجارة وربح مالاً وفيراً من تجارته توفي عام ٣٨ هـ . راجع الأعلام للزركلي ، ج ٣ ص: ٢١٠ .

(١) بـلال بن رباح الحبشي ، مؤذن الرسول ﷺ وخازن بيت أموال المسـلمين أيامه ، وأحد السـابقين للإسلام ، شديد السـمرة . اشـتراه أبو بكر وأعتقه بعد أن عذّبه مشركوا مكة لإسلامه . ولم يؤذن بعد الرسول . توفي بالشام ٢٠ هـ راجع للزركلي ، الأعلام ، ج ٢ ص: ٧٣ .

(٢) انظر في ذلك الحديث لإبراهيم أنيس ، من أسرار العربية ص: ٣٦ والحديث هـو : « أيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد وليست العـربية ، بـأحدكم من أب ولا أم وإنمـا هي اللسـان ، فمن تكلّم بالعربية فهو عربي » . وقد روى الحديث ابن عساكر ، وابن تيميّة في اقتضـاء الصراط المستقيم مخـالفة أهـل الجحيم ص: ٨٠ ومحمد رشيـد رضا في الـوحي المحمدي ص: ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

(٣) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص: ٢٤ أعلى الصفحة .

الثاني : عبارة عن عرب تهوّدوا كما ذكر ياقوت في معجمه حيث « يُذكر أن يهود يثرب عرب تهودوا »[1] . هذا مع ما كان لتلك الجالية من صلات تجارية ، وثقافية متبادلة مع من جاورها من العرب جعلتها مثاراً للّحن ، ومنشأ له ، وعاملاً مهماً على نشره .

ب ـ الفرق بين اللحن والخطأ :

هل هناك فرق بين اللحن ، والخطأ ؟

إن بحث موضوع اللحن ، يفضي بنا إلى بحث الفرق بينه وبين الخطأ ، لما قد يظهر مع النظرة الأولى من تقارب بين اللفظين في المفهوم والمدلول ، إضافة إلى أن ذلك يساهم في التعرف على طبيعة التسمية ، وأساسها ، ودورها في تاريخ النحو بدلالتها الخاصة بها .

تعريف اللحن :

جاء في لسان العرب[2] :

لحن الرجل في كلامه ـ أي أخطأ والتلحين : التخطئة . وفلان لا يعرف كيف يغنيه ، ورجل لحن عارف بعواقب الكلام ظريف ، واللحن بفتح الحاء الفطنة وبسكونها الخطأ . ولحن له لحناً ، قال له قولاً يفهمه عنه ، ويخفى على غيره ، ومنه حديث الرسول ﷺ لمن أرسلهما إلى بعض الثغور ، « الحنوا لي لحناً » ، ليفهم دون سائر المسلمين خوفاً من وقوع الرهبة في قلوبهم من بأس العدو . ومنه ما ورد في التنزيل . ﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول** ﴾[3] . أي في فحواه ، ومعناه . ومنه ما ورد مروياً عن الرسول ﷺ : « **إن القرآن نزل بلحن قريش** » . أي بلغتهم وما روي عن عمر بن الخطاب تعلّموا الفرائض ، والسُنّة ، واللحن بالتحريك أي بالمعنى ، ومثله ما جاء على لسان أبي عمرو بن العلاء زعيم القرّاء السبعة عندما حدّث الأصمعي عن طلبه لقراءة القرآن قال : . . . قدمنا مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على رسول الله ﷺ مثل مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، وغيرهم ، فقرأت عليهم

---

(١) م . ن . ص: ٢٤ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٣ ص: ٣٧٩ ـ ٣٨١ مادة لحن .

(٣) سورة محمد رقم ٤٧ آية : ٣٠ .

القرآن ، وأخذت العربية عن العرب الذين سبقونا باللحن »[١] .

ولقد جمع ابن برّي [٢] معاني اللحن الآنفة الذكر بقوله : « للُّحن ستة معانٍ : الخطأ في الإعراب ، واللغة ، والغناء ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى »[٣] . أما أساس البلاغة[٤] ، والقاموس المحيط[٥] ، فقد أوردا المعاني نفسها بصورة مختلفة حيناً ، ومتشابهة حيناً آخر .

بينما نرى هذه المعاجم تعرّف الخطأ بما يلي :

تعريف الخطأ :

جاء في أساس البلاغة :

أخطأ في المسألة ، وفي الرأي ، وأخطأ المطر الأرض ، لم يصبها[٦] .

وجاء في لسان العرب :

الخطأ عند الصواب ، وأخطأ الرامي الغرض ، لم يصبه[٧] .

وردّد القاموس المحيط المعاني نفسها ، ولم يتجاوزها[٨] .

وعليه نرى مدى الاختلاف في مدلولي اللفظين بل سعته . فبينما يعني اللحن عدة معان منها الخطأ في الإعراب ، وطريقة النطق باللغة ، وهذا ما يعنينا في

---

(١) الشريشي ، شرح مقامات الحريري ج ٢ ص : ١٨٨ السطران الثامن والتاسع من حديث طويل .

(٢) هو عبد الله بن بري ، أبو محمد من علماء العربية ولد وتوفي بمصر ٥٨٢ هـ له كتب منها الرد على ابن الخشاب مطبوع ، انتصر فيه للحريري ، وغلط الضعفاء من الفقهاء مطبوع وشرح شواهد الإيضاح مخطوط في النحو راجع فيه الأعلام ج ٤ ص : ٧٤ .

(٣) تمّ ترتيب هذه المعاني بصورة توافق الأمثلة التي سبقتها في الصفحة السابقة لقد ورد ذكرها في لسان العرب ص : ٣٧٩ وما بعدها .

(٤) الزمخشري ، أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، بيروت دار المعرفة ١٩٧٩ م ص : ٤٠٦ مادة لحن .

(٥) الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ج ٤ ص : ٦٨ باب النون فصل اللام .

(٦) أساس البلاغة ، مادة خطأ ص : ١١٤ .

(٧) لسان العرب ، ج ١ ص : ٦٥ .

(٨) القاموس المحيط ج ١ ص : ١٤ .

موضوعنـا الذي نبحث فيـه . نرى الخـطأ يعني عكس الصواب في كـل شيء : في التعبيـر اللفظي ، وفي كـل تصرف إنسـاني ، أو طبيعي ، لا يتم نسبيـاً وفق قـاعـدة وضعت له ومنه ، نستطيع وضع قاعـدة لا يصح عكسهـا ، وهي خاصـة بعلم النحو وهي :

كل لحن نحوي ـــيعدُّــــ← خطأ وليس العكس .

لاختصـاص كلمة لحن بمعنى دون غيـره من المعاني ، وشمـول كلمـة خـطأ وعمومية استعمالها .

وعليه فإن دلَّ تقليب معاني الكلمة على شيء ، فهو يدل على براعة العربي في إطلاق تسمياته ، ووضع مصطلحاته ، ومفرداته التي لم يطلقها يوماً على عواهنهـا . فلقـد عرف العـربي معنى كلمة « لحن » في أسـاس وضعها ، بـأنه « مغـايرة الشيء للقـاعدة التي ينبغي أن يكـون عليهـا » . وبعـد التـطوُّر اللغـوي المتـلاحق ، وغيـر المحدود بزمن عملاً بقانون تطوُّر اللغات[1] . طبَّق العربي هذا القانون في أموره التي احتـاج معها إلى التعبيـر عنها بـألفاظ دالـة عليها ، فـأكثر من استخـدام « المشتـرك اللفظي »[2] . واستخدم الكلمة نفسها لأكثر من معنى ، لاشتراك المعاني في أساس واحد ـ ألا وهو « الخروج على القاعدة ها هنا » ـ ومن هنا نستـطيع أن نـردَّ على من أنكر على العرب معرفتها لمعنى كلمـة « لحن » مقولتـه التي احتجَّ فيها بعدم معـرفة العرب لهذا المعنى ، إلاَّ بعد أن تواضع العلماء عليـه ، بعد أن استعملهـا « تاريـخ النحو » ويؤيدنا القرآن في ذلك الردّ[3] . داحضاً مزاعم هؤلاء العلماء الذين يطعنون بها على الأحاديث الشريفة »[4] ويرفضونها كما هي الحال مع حديث « أنا من قريش

---

(١) راجع حاشيتي الصفحتين ٣١ و ٣٣ من هذا الكتاب .

(٢) مبحث هـذا الموضـوع (المشترك اللفـظي) في دراسات في فقـه اللغـة لصبحي الصـالـح ص: ٣٠١ .

(٣) سورة رقم ٤٧ آية رقم ٣٠ حيث يخاطب النبي ﷺ محمد لتعرفنهم في لحن القول أي في فحواه ومعناه الذي يحدد شخصية اللاحن لخطئه أو أصابته راجع للطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن ، ج ١٨ ص: ٢٤٣ .

(٤) الصفحتان ٤٧ و ٦٢ من هذا الكتاب فقد مرّ الحديث عنها مفصلة .

ونشأت في بني سعد ، فأنى لي اللحن »[1] حيث يحكمون بأن رائحة الوضع تفوح من هذه الأحاديث ، وبشكل صارخ كما يقولون[2] . والتي يطعنون بها أيضاً على أحاديث الخليفة الثاني[3] ، ونسبتها ـ كما يرون ـ إلى الوضع تارة ، وإلى عدم دلالتها على المعنى (استعمال كلمة لحن) تارة أخرى ، بحجة أن العرب لم تعرف معنى كلمة « لحن » لأنهم لم ينطقوا بغير الصواب[4] . كأن يرفضوا ما نقل عن أبي الأسود : « إني لأجد للّحن غمراً كغمر اللحم »[5] .

كما يدفعنا هذا الفهم الدقيق لكلمة « لحن » ، وهذا الدور المهم لها إلى التفكير ملياً في قصة « نشأة النحو » ، وإعادة النظر فيها على أساس استحالة ظهور النحو بصورة مفاجئة كما حدثتنا الروايات بذلك فالشعب الذي يدرك معنى كلمة « لحن » لا بدّ وأنه حاول أن يخفّف منه ، أو أن يقبّحه ، ويستهجنه قبل أن تعتمر نفسه بملكة تدفعه إلى محاربته عبر رجال عايشوه ، وتألموا منه ، قبل أن يناجزوه العداء ، ويقرروا محاربته .

---

(١) الصفحة ٤٧ من هذا الكتاب .

(٢) من ذلك ما جاء به الأستاذ صبحي الصالح في كتابه في فقة اللغة ص : ١٢٧ أو حاشيتها حيث يقول : ولفظ اللحن هنا يكاد يصرخ بنفسه ثم يضج في الصراخ منكراً وجوده في هذا السياق مؤكداً أقوال الأستاذ سعيد الأفغاني في الحاشية حيث يشير بعبارة : أشار الأفغاني بحق إلى توهين . . . . وإن رواه السيوطي في الجامع الصغير عن الطبراني فليراجع .

(٣) الصفحة ٦٢ من هذا الكتاب في حديث عمر آخر المقطع الثالث .

(٤) الصفحات ٤٥ ـ ٦٢ من هذا الكتاب وقد بينّا أن الرأي واهٍ لا قيمة له .

(٥) الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص: ١٥ والغمر بفتح العين والميم الرائحة المنبعثة وهي الدسم .

الفصـل الـرابع

أقسام اللحن وأنواعه

بعد أن تأكد وجود اللحن تاريخياً[1] ، وحضارياً[2] ، ولغوياً[3] ، في البيئات العربية قبل الإسلام ، وبعده بمراحل وفترات زمنية قريبة منه ، وحقب متباعدة عنه ، نعود إلى الحديث عن أشكال هذا اللحن الذي انتهت إلينا أخباره تجنباً للتعميم ، وحباً بالتعرُّف عليها عن كثب ، لما قد يفيده الدارس من استعراض أنواع اللحن ـ التي وصلتنا ـ موزعة على أزمانها ـ إن أمكن ـ مما يساهم في كشف أشياء ما تزال مستورة حتى الآن أو يوجِّه الأنظار بشكل يساعد على فهم نشأة النحو ، وتطوّره بصورة واضحة .

وعليه نستطيع أن نسجِّل أقسام اللحن موزعة على الزمان ، والمكان ، والموضوع ، فاللحن[4] .

١ ـ جاهلي .

٢ ـ وإسلامي .

---

(١) تاريخياً عبر تاريخ النحو وما يثيره عن الموضوع بكتبه المتخصصة ، فيه ذاكراً رواياته وأخباره .

(٢) حضارياً عبر الكتب التي بحثت الأوضاع الجديدة الناشئة عن الاختلاط بالأعاجم قبل الإسلام وبعده .

(٣) لغوياً عبر الكتب التي تحدَّثت عن فساد اللغة والسليقة واختلاف القراءات وقد شملها البحث راجع ص : ٩١ ـ ٩٧ من الكتاب .

(٤) أدخلنا الأموي في الحساب لأنه الزمن الفصل الذي وصل فيه اللحن إلى الخاصة بعد أن انحصر بالعامة في الزمانين السابقين ولأنه المرحلة التي شهدت بداية التحوُّل تجاه العلمي المنظَّم .

٣ ـ وأموي .
بحسب الزمان .

وللحن :
١ ـ بدوي (وبري) .
٢ ـ وحضري (مدري) .
بحسب المكان .

واللحن :
١ ـ لغوي صرف .
٢ ـ لغوي قرآني .
حسب الموضوع .

كما نستطيع أن نسجِّل أنواع اللحن موزعة على الدرجات بحسب خطورتها وهي :

١ ـ الدرجة الأولى من الخطورة ، وهي اللحن بالإعراب ، وعلاماته . وهذا اللحن كما مرَّ[1] من العوامل المهمَّة المتسبِّبة في وضع النحو .

٢ ـ الدرجة الثانية من الخطورة ، وهي اللحن بمباني الألفاظ ، وأوزانها .

٣ ـ الدرجة الثالثة « لحن النطق » الناتج عن عدم تمكُّن غير العرب الطارئين على العربية من نطق الأحرف الحلقية ، وبعض اللسانية اللثوية ، وبعض الأسنانية ، وهو ما نسمِّيه « باللكن »[2] .

٤ ـ الدرجة الرابعة ، وهي الأقل خطورة ، وهي لحن الاستعمال الناتج عن استعمال كلمة مكان أخرى .

---

(١) الصفحات ٤٥ ـ ٤٧ من هذا الكتاب .
(٢) الحروف الحلقية هي : العين والحاء والأسنانية هي : الظاء ، والذال والثاء وحرف الضاد من بينها لا يقدر غير العرب على نفطة . واللسانية اللثوية هي : التاء والدال والنون والطاء من بينها لا يتأتى للأجنبي نطقها وهذا مستفاد من محاضرات شفهية للدكتورين رشيد الضعيف ، وهيام كريدية في كلية الآداب الجامعة اللبنانية وراجع فيه لريمون طحان الألسنية ، ولعبد الواحد وافي علم اللغة .

ونعود إلى بحث موضوع اللحن بحسب الأقسام ، ليتمّ تطبيق هذه الأقسام على أنواعها ، وحسب درجاتها من الخطورة . فنبدأ بالقسم الأوّل منه ، وهو التقسيم الزمني : الجاهلي ، والإسلامي ، والأموي .

١ ـ اللحن الجاهلي :

وهو ما وردنا عن حقبة الجاهلية الثانية المتّصلة بالإسلام من مثل أخبار امرىء القيس ، وطرفة ، وعُدَيّ ، وقس ، والنابغة ، وأُميّة ، ولبيد ، وعمرو بن أحمر[١] ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي[٢] . لخضرمتهم ، ومشاركتهم في عملية اللحن في الجاهلية قبل الإسلام وهذا اللحن على قلّته لعدم وفرة النصوص عن الجاهلية ، بل لانعدامها تقريباً : يقدم لنا فكرة واضحة كما سيتبيّن عن مستوى الفساد اللغوي في الجاهلية بشكل علمي صادق .

فقد نقل عن امرىء القيس عدة لحون[٣] يصنف ضمن الدرجة الأولى من اللحن أيضاً .

وهكذا بالنسبة إلى الشاعر لبيد الذي يدخل لحنه[٤] أيضاً ضمن الدرجة الأولى من اللحن[٥] .

والأمر نفسه مع أمية الذي نقل عنه استعماله لكلام لم تستعمله العرب : « كالساهور[٦] ، والسلطيط[٧] ، والتغرور[٨] ، ويمكن إدخال هذه اللحون في الدرجة

---

(١) الصفحة ٥٣ من هذا الكتاب حيث التعريف بهم والحديث عن أخبارهم في اللحن متناً وحاشية .

(٢) الصفحتان ٦٠ ـ ٦١ من هذا الكتاب حيث التعريف بهم .

(٣) الصفحة ٥٤ من هذا الكتاب في المتن حيث أخبار هذه اللحون .

(٤) الصفحة ٥٦ من متن هذا الكتاب .

(٥) الصفحة ٥٦ في متن هذا الكتاب في لحن لبيد ، والصفحة ٥٤ في الحاشية بالتعريف به .

(٦) الساهور دارة القمر سرياني ، راجع لابن منظور ، لسان العرب ، ج ٤ ص: ٣٨٤ مادة سهر .

(٧) لم يرد في المعاجم عنها شيء يذكر راجع الصفحة ٥٣ من هذا الكتاب في المتن والحاشية .

(٨) لم يرد في المعاجم عنها شيء يذكر راجع الصفحة ٥٤ من هذا الكتاب في المتن والحاشية .

الرابعة من اللحن وهذا يوضح ما نقله ابن قتيبة[1] من عبارة « عدم اعتداد العرب بشعره » بعض الشيء، وقد نقل عنه جمعه للفعل مع تقدُّمه على الفاعل [2] وهذا يدخل ضمن الدرجة الأولى من اللحن في « يلومونني . . . . أهلي » .

أما قس بن ساعدة ، وعدي بن زيد فقد أجمل صاحب الأغاني الحديث عنهما عند حديثه عن لحنهما إذ قال في الأوَّل ، وقد استعمل كلاماً غير مفهوم دون أن يتمثل ، وفي الثاني : وعلماء العربية لا يرون شعره حجة[3] .

وأما ابن أحمر ، فقد نقل عنه علماء العربية استعماله ألفاظاً لم تعرف في كلام العرب ، ومنها مأموس ، وبابوس[4] ، ويمكن إدخال هذين اللحنين في الدرجة الرابعة من حيث الاستعمال ، أو التفرُّد به .

وأمَّا إقواء النابغة المشهور[5]وقد رواه ابن جني في كتابه الخصائص ، على غير الصيغة المتقدمة[6] فقال : والخبر المشهور في هذا للنابغة الذبياني ، وقد عيب عليه قوله في الدالية المجرورة ، وبذاك خبَّرنا الغراب الأسود . فلمَّا لم يفهمه أُتي بمغنية ، فغنَّته ، ومدت الوصل ، وأشبعته بالخفض ، في البيت السابق على شطر « خبَّرنا الغراب الأسود » الذي مطلت واو الوصل فيه ، فلما أحسَّه عرفه ، واعتذر منه ، وغيَّره » ويمكن إدخال هذا اللحن ضمن الدرجة الأولى من اللحن .

٢ ـ اللحن الإسلامي :

أما لحون سلمان ، وصهيب ، وسحيم ، فقد نقل لنا الجاحظ[7] صوراً عنها ، ومنها أن صهيباً كان يقول : إنك « لهائن » وهو يعني « إنك لخائن » ومثله « سحيم »

---

(١) الأصبهاني ، الأغاني ، ج ٤ ص: ١٢٠ أخبار أمية .

(٢) متن الصفحة ٥٦ المقطع الأوَّل من هذا الكتاب .

(٣) متن الصفحة ٥٥ من هذا الكتاب المقطع الثاني والمقطع الثالث .

(٤) لم يرد في الكلمتين استعمال في معاجم اللغة ولابن جني في الخصائص ج ٢ ص٢١ رأي وخبر في غرائبه تفرَّد به . فليراجع لأهميته .

(٥) ابن جني ، الخصائص ، ج ١ ص: ٢٤٠ .

(٦) الصفحة ٥٥ من هذا الكتاب .

(٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ص: ٣٢ .

الذي كان يقول « سعرت » بدل « شعرت » وواضح أنها لحون تصنف ضمن الدرجة الرابعة من اللحن ، حيث كان يسمى الواحد منهم لَكِناً لعدم تمكّنه من النطق بالأحرف سليمة المخرج كالعرب وهم لم يستنكروا هذه الأنواع من اللحن التي وصلتنا عن هؤلاء الأعاجم ، استنكارهم لزيغ الأعراب[1] .

أما الأخبار التي نقلت عن النبي ﷺ أحاديث[2] قالها لسماعه لحناً ما فلم تحدِّد شكل هذا اللحن ، لتمكننا من تصنيفه على درجته من الخطورة . إلاّ أنها تفيدنا في تأكيد وجود اللحن أيام الرسول ﷺ ؛ وعدم بروزه بصورة مفاجئة بعد الفتوحات من دون سابقة تذكر .

ومن الأخبار عن اللحن إبان العهد الراشدي خبر نقله السيوطي عن أبي بكر ومفاده « لئن أقرأ فأسقِطُ أحبُّ إليَّ من أن أقرأ فألحن »[3] . من دون أن يعين ، شأن أخبار اللحن أيام الرسول ﷺ ، السبب المباشر الداعي إلى هذا القول .

وإذا ما انتهينا إلى عهد عمر ، طالعتنا عدة روايات نقل فيها المؤرخون أخبار تلك اللحون مفصلة فقد نقل صاحب معجم الأدباء « أن عمر مرَّ بقوم يمارسون الرماية فساءه رميهم فقال : ما أسوأ رميكم ، فأجابوه : نحن قوم متعلمين ، فقال : والله لخطؤكم في لسانكم أشد علي من خطئكم في رميكم »[4] . وواضح إنتماء هذا اللحن إلى الدرجة الأولى منه ، وهي اللحن بالإعراب ، وعلاماته .

كما نقل ابن خلّكان[5] رواية أخرى حصلت أيام الخليفة عمر ، وهي أن كاتباً

---

(١) ابن جني ، الخصائص ، ج ٢ ص: ٢٦ - ٢٧ .

(٢) متن الصفحة ٤٧ من هذا الكتاب في أعلاها ، ومن هذه الأحاديث أيضاً حديث « رحم الله امرء أصلح من لسانه » .

(٣) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ج ٢ ص: ٣٩٧ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ج ١ ص: ٦٧ ، وانظر في ذلك أيضاً لابن جني الخصائص ج ٢ ص: ٨ وللأنباري ، الأضداد حيث ورد بصيغة « إنّا قوم متعلمين » .

(٥) هو ابن خلكان أحمد بن محمد بن إبراهيم ، والمؤرخ الحجة ، الأديب المعروف صاحب وفيات الأعيان . وهو أشهر كتب التراجم للرجال ، ومن أحسنها ضبطاً وإحكاماً توفي بدمشق ٦٧٤ هـ راجع في سيرته وترجمته الأعلام ج ١ ص: ٢٢١ .

لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب كتاباً ورد في أوله : « من أبو موسى »[1] . . . فكتب عمر إلى عامله بضرب الكاتب سوطاً على هذا اللحن .

ومثلها تلك الرواية التي ساقها صاحب نزهة الألباء على لسان الخليفة عمر بن الخطاب ، وساقها ابن جني أنها حدثت مع علي ، ومفادها أن أعرابياً قدم إلى المدينة في خلافة عمر ، فقال : « من يقرئني شيئاً مما أنزل على الرسول محمد ﷺ فاقرأه رجل سورة براءة فقال : ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس أن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾ بكسر لام رسوله الثانية (أي التي جاءت وراء المشركين لا الأولى) . فقال الأعرابي : إن يكن الله بريئاً من رسوله ، فأنا بريء ، أو أبرأ منه . فبلغ عمر مقالة ذلك الأعرابي ، فدعاه فقال : يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ، وقصّ القصة عليه ، فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابي ، فقرأها له بوجهها الصحيح ، وأمر ألا يُقرِيءُ القرآن إلّا عالم به[2] . وغني عن القول إن هذه الرواية تعود بلحنها إلى الدرجة الأولى من اللحن .

أما في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، فقصة جمع القرآن[3] أشهر من أن تُعرّف وقد فزع عثمان إلى ذلك بعد أن حدّثه حذيفة بن اليمان[4] إثر عودته من فتح أرمينية ، وأذربيجان عن اختلاف المسلمين في القراءة قائلاً له : « أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب » . . . فأمر عثمان بالمصحف فنسخ ، وأرسل إلى كل أفق نسخة منه ، وواضح من هذه الرواية ، وإن لم تنص على نوع اللحن لنسجّله ،

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٥ ص: ٩٩ وتزيد بعض كتب التراجم أنه طلب إلى أبي موسى « أن قنّع كاتبك سوطاً وأخر عطائه سنة » .

(٢) الأنباري ، أبو البركات ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ص: ٢٠ السطر الخامس ، وانظر أيضاً مراتب النحويين للغوي ص: ٨ ، ولابن جني الخصائص ج ٢ ص: ٨ ، حيث يروي ابن جني الحادثة مع علي ابن أبي طالب فيقول وروي من حديث علي مع الأعرابي الذي أقرأه المقريء : إن الله بريّ . . . . حتى أنكر الإمام علي ذلك ؛ ورسم للدؤلي من عمل النحو ما رسمه .

(٣) صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ص: ٧٨ .

(٤) أبو عبد الله ، دليل النبي ﷺ، على المنافقين ولي لعمر، وفتح الدينور ، وهمذان ، والري توفي في المدائن عام ٣٦ هـ راجع فيه الأعلام ج ٢ ص: ١٧١ .

على درجته من الخطورة أن اللحن وصل إلى آي الذكر الحكيم مما دعا إلى الاختلاف في التأويل ، والذي ينشأ عادة عن الاختلاف في القراءة للاختلاف في اللهجات ، ووضع علامات الإعراب بل إنعدامها في تلك المرحلة .

٣ ـ اللحن الأموي :

أما في المعهد الأموي[١] فقد بلغت الروايات من العدد ، والكثرة ؛ المستوى اللافت للنظر ، بعد أن كثر الاختلاط ، مما أفسد الألسنة ، وبلبلها فعمَّ الاضطراب ، والخطل ، مما حدا بالخلفاء إلى إرسال أولادهم ليتعلموا العربية مشافهة عن الأعراب .

من تلك الروايات ما ورد عن خالد بن صفوان[٢] ، الشاعر المعروف « بالقناص » وكان يحسن الكلام ، ويلحن في الإعراب حتى قال له بلال بن أبي بردة : « تحدِّثني حديث الخلفاء ، وتلحن لحن السقاءات » . كما نقل عنه الميمني أنه صاحب مفردات يعوزها التعمق في النحو ، واللغة وعليه يسلك في الدرجة الأولى في اللحن .

ومنها ما روي عن قصص حدثت مع زياد بن أبيه ، إحداها قصة تلك الآية التي قرئت خطأ ، ونسبت إلى أيام عمر بتصحيحه ، أو بتصحيح علي فقال : أبو الأسود منكراً وهو العالم الذي تعيد الرواية أمر تصحيح خطأ القاريء ، ووضع النحو إليه : وما ظننت أمر الناس آل إلى هذا »[٣] وسبق أن صنَّفنا هذه الرواية في الدرجة الأولى من اللحن .

---

(١) قد أدخلناه في نطاق عملنا كونه المعهد الذي عمَّ فيه اللحن وطبق بانتقاله من العامة إلى الخاصة مع لحن الخلفاء والأمراء والقادة مما حدا بهؤلاء إلى إرسال أولادهم إلى البادية ، مما يدل على انتباههم لوجود السليقة عند الأعراب كما يدل على قدم اللحن وشموله .

(٢) هو خالد بن صفوان الشاعر ، من شعراء الصدر الأوَّل مجهول الولادة والوفاة اشتهرت له قصيدة باسم « العروس » حتى قال فيه بعض أهل الأدب : كفى غنى بمن حفظ قصيدة خالد بن صفوان وقد أوردها الميمني محققة في ٧٨ بيتاً انظر في الحديث عنه الطرائف الأدبية للميمني ص : ١٠٢ حيث قصيدته . وبلال بن أبي بردة هو أمير البصرة وقاضيها ، فصيح أديب مات سجيناً عام ١٢٥ هـ . ولم يكن قاضياً نزيهاً راجع فيه الأعلام للزركلي ج ٢ ص : ٧٢ .

(٣) الصفحة ٧١ من هذا الكتاب وانظر للقفطي ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ج ١ ص : ٥ سطر ١٣ .

ومنها ما ساقه القفطي على لسان قوم جاءوا إلى زياد ، بعد أن اختلفوا فيما بينهم إثر وفاة والدهم فقالوا : أصلح الله الأمير ، « توفي أبانا وترك بنون » ، وهي تدخل ضمن الدرجة الأولى من اللحن(1) .

ومن الروايات التي وردت عن لحن العصر الأموي رواية لحن ابنة أبي الأسود عند دخوله عليها بالبصرة ، فقالت له : يا أبتِ ما أشدُّ الحرُّ (ورفعت أشدّ) ، فظنّها تسأله ، وتستفهم منه فقال : شهرُ (صفر) فقالت : « يا أبت إنما أخبرتك ، ولم أسألك » . وواضح أن هذه الرواية تدخل ضمن الدرجة الأولى من اللحن(2) .

ومنها أيضاً مع أبي الأسود ما نقله القفطي(3) أن رجلاً من أهل « نونبدجان » قدم إلى البصرة مع جماعة من أهله ، وأسلموا . . . ولما مرّ سعد (الرجل الفارسي) بأبي الأسود ، كان يقود فرساً له ، ويسير ، فقال له الدؤلي : ما لك لا تركبه يا سعد فقال : « إن فرسي ظالعاً ، ويريد ظالع » وجليٌّ أنها أيضاً تدخل ضمن الدرجة الأولى من اللحن .

ومنها ما ورد عن عبيد الله بن زياد(4) . من أنه كان يلحن ، روي عنه أنه قال مرة مخاطباً جنوده : افتحوا سيوفكم ، يريد سُلوا سيوفكم من أغمادها(5) . وتدخل هذه الحادثة ضمن الدرجة الرابعة من اللحن (وهي الأقل حتى الآن) . وقد نقل الجاحظ عنه صورة أخرى من لحنه وهي اللكن حيث كان يجعل الحاء هاء(6) . ويمكن أن يدخل هذا اللحن ضمن الدرجة الثالثة .

---

(1) م . ن . ج 1 ص: 15 على الرغم من أن رائحة الوضع تفوح من هذه الرواية .

(2) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 12 ص: 298 أو طبعة دار جمّال فهي مصورة عنها وأخبرتك أي تعجبت .

(3) القفطي ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ج 1 ص: 6 المقطع الأول .

(4) هو ابن زياد بن أبيه أمير مثله ، وهو قاتل الحسين بن علي بن أبي طالب وكان نشأ في فارس وأمه فارسية راجع التعريف به الأعلام ج 4 ص: 193 .

(5) الجاحظ ، أبو عثمان ، البيان والتبيين ، ج 2 ص: 210 - 112 .

(6) المصدر السابق نفسه ج 1 ص: 74 - 75 .

ومنها ما نقله ابن سلاّم الجمحي[1] عن يونس بن حبيب[2] قال : قال الحجاج لابن يعمر[3] : أتسمعني ألحن قال : الأمير أفصح الناس . قال : عزمت عليك أتسمعني ألحن قال : نعم ، قال : في القرآن قال : ذلك أشنع فما هو؟ قال : تقول : « إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحبُّ إليكم » فرفعت أحبُّ وهو منصوب (كونها خبر كان ، وإن طال الكلام) قال يونس : فقال الحجاج : لا جرم ، لا تسمع لي لحناً أبداً . فألحقه بخراسان[4] . وواضح أن هذه اللحنة تدخل ضمن الدرجة الأولى من اللحن .

ومنها ما أثر عن عمر بن عبد العزيز[5] ، وكان جالساً صبيحة عيد في المسجد ، أثناء خلافة الوليد بن عبد الملك[6] بن مروان ، وكان مشهوراً بكثرة اللحن عندما خطب الناس فقرأ في خطبته هذه الآية ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾[7] وضمَّ تاء يا ليتها بدل فتحها فقال عمر بن عبد العزيز : « عليك وأراحنا الله منك »[8] وواضح أنها تنتمي إلى الدرجة الأولى من اللحن .

ولو توقّف اللحن عند هذا الحد ، لهان الأمر إلاّ أنه تعدّى ذلك إلى الفقهاء

---

(١) هو محمد بن سلاّم ، بصري إمام في الأدب مات ببغداد ٢٣٢ هـ من كتبه طبقات فحول الشعراء راجع فيه ولأعلام ج ٦ ص: ١٤٦ .

(٢) من موالي بني حنيفة تتلمذ للحضرمي وسمع عن الأعراب وهو من أساتذة سيبويه راجع للأنباري نزهة الألباء ص ٤٧ .

(٣) عالم بالعربية من الفصحاء والقضاة ، صاحب غريب توفي ١٢٩ هـ راجع للزبيدي الطبقات ص ٢١ .

(٤) ابن سلاّم ، طبقات الشعراء ص: ١٣ ، والآية من سورة التوبة ورقمها ٢٤ فليراجع الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص: ٢٨ .

(٥) من ملوك الدولة المروانية ، زاهد منع سبُّ عليّ على المنبر ، مات مسموماً سنة ١٠١ هـ . راجع الأعلام ج ٥ ص: ٥٠ .

(٦) من ملوك الدولة المروانية ، ولوع بالبناء والعمران ، وأول من استحدث المستشفيات ، راجع الأعلام ج ٨ ص: ١٢١ .

(٧) الآية من سورة الحاقة : ٢٧/٦٩ .

(٨) مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ج ١ ص: ٢٤٦ .

ورؤساء المذاهب حسب ما حدثتنا به بعض الروايات فها نحن أولاء مع الحسن البصري[1] الذي نقل عنه قوله لبعض جلسائه : توضيت ، فقالوا له : أتلحن فقال : « إنها لغة هذيل » (من باب حسن التخلص) . وهي الرواية الأولى التي زودتنا بخبر أو حادثة لحن تعود إلى الدرجة الثانية من اللحن حتى الآن .

ولو اكتفى بذلك لما عدَّ مع اللاحنين ، إلاَّ أنه تجاوز ذلك إلى القرآن فقد نقل الجاحظ خبراً عنه مفاده إنه قال : ص والقرآن . . . . بضم نون قرآن بدل كسرها ، وقال أيضاً :﴿ما تنزلت به الشياطون﴾ بدل الشياطين[2] وكما هو ملاحظ ، فإن مفاد الخبرين يدخل ضمن الدرجة الأولى من اللحن .

وما أمر أبي حنيفة[3] ، بأهون من أمر الحسن البصري . إذ روى أبو هلال العسكري[4] ، أنه سمع سعيد بن أوس يقول : لقيت أبا حنيفة فحدثني بحديث فيه « يدخل الجنة قوم حفاة عراة منتنين قد محشتهم النار » فقلت له : « منتنون » . . . حيث أخطأ أبو حنيفة ، فجمع على التكسير بدل المذكَّر السالم . وهذا اللحن يدخل ضمن الدرجة الأولى من اللحن .

على أن الخبر الذي نقله الجاحظ[5] عن لحن أبي حنيفة يفوق الخبر الأوَّل أهمية لسهولة تخطِّيه على من كان مثل أبي حنيفة في العلم . فأبو عثمان يروي أن أبا عمرو بن العلاء كان يلاحق لحن « أبي حنيفة » ، وينصحه بتعلّم العربية . ومفاد الخبر أن أبا عمرو سأل أبا حنيفة « مرة عن القتل بالمثقل فقال : ما تقول في رجل أخذ صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله ، أتقيده به ، فقال أبو حنيفة : لا ولو قتله بأبا

---

(١) هو أبو سعيد ، إمام البصرة ولد بالمدينة وشب في رعاية علي بن أبي طالب توفي ١١٠ هـ راجع فيه الأعلام ج ٢ ص: ٢٢٦ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ص: ٢١٩ .

(٣) النعمان بن ثابت ، إمام الحنيفة ، فارسي الأصل ، قيل فيه الناس عيال في الفقة عليه . توفي ١٥٠ هـ راجع فيه الأعلام ج ٨ ص: ٣٦ .

(٤) الحسن بن عبد الله عالم بالأدب من كتبه « الصناعتين : النظم ، والنثر » من كبار علماء القرن الرابع توفي بعد ٣٩٥ هـ. راجع فيه الأعلام ج ٢ ص: ١٩٦ وانظر في حديثه كتابه المعجم في بقية الأشياء ص: ٢٩ .

(٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ص: ٢ .

قبيس »[1] فلحن ، وهذا اللحن مما يدخل في باب الدرجة الأولى من أنواع اللحن كما يدخل معها ما نقل عنه من قراءة أحادية في « إنما يخشى الله من عباده العلماءُ » برفع اسم الجلالة ، ونصب العلماء وهذه قراءة أحادية مردودة جملة وتفصيلاً[2] .

٤ ـ اللحن بحسب المكان :

وبانتقالنا إلى القسم الثاني من أقسام اللحن يمكننا أن نلاحظ من خلال أمكنة إقامة اللاحنين ، وأمكنة تنقلاتهم ، ورحلاتهم ، توزُّعُ اللحن على مناطق البدو ، والحضر ، على السواء في الحقبة الجاهلية بصور متباعدة ندرك معها مدى انتشار الفساد ، والتسبب في انتشاره ، بعامل الرحلات الذي لمع نجمه في تلك المرحلة والذي غطّى مساحة شملت بعض الشام ، وحدود الجزيرة المتصلة ببلاد الشام ، وقلبها ، وحدود الجزيرة المتصلة بالعراق (المدائن والحيرة) فضلاً عن العراق نفسه .

فقد نُقِلَ عن أمية بن أبي الصلت[3] أنه كان كثير التجوال والسفر فقد أقام في الطائف ، وغادرها إلى الشام زائراً قبل الإسلام ، ورحل إلى البحرين ، وعاد إلى مكة .

كما نُقِلَ عن عُدي بن زيد[4] أنه أقام في الحيرة ، وهو « قروي » والحيرة حاضرة ٪ كما انتقل إلى المدائن حيث أقام مدة ، ثم زار بلاد الشام ، ودخل

وهكذا نُقِلَ عن النابغة الذبياني[5] أنه أقام في الحجاز ، وارتحل إلى العراق ، وزار الشام .

وقل الأمر نفسه عن قس بن ساعدة[6] حيث سكن نجران ، ووفد على قيصر

(١) أبو قبيس جبل مشرف على مكة .

(٢) ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر ، ج ١ ص: ٣٤ وانظر في حاشية الصفحة: ٧٠ من هذا الكتاب .

(٣) الزركلي ، الأعلام ، ج ٢ ص: ٢٣ والصفحة من هذا الكتاب في الحاشية .

(٤) م . ن . ج ٤ ص: ٢٢٠ .

(٥) م . ن . ج ٣ ص: ٥٤ .

(٦) م . ن . ج ٥ ص: ١٩٦ .

الروم ، كما حضر « عكاظ » ، وبمعنى آخر دخل الحجاز .

وليس أمر عمرو بن أحمر[1] مختلفاً عن سابقيه ، فقد كان نزيل الشام قبل الإسلام ، ودخلها مع خالد بعد الإسلام ، وسكن الجزيرة .

كما أُثر عن سلمان[2] أيام الجاهلية ، أنه أقام في بلاد الشام ، ثم دخل العراق ، ثم انتقل إلى المدينة .

كما أقام صهيب[3] في البصرة ، والموصل ، ثم دخل بلاد الروم ، وانتقل بعدها إلى مكة ، ثم سكن المدينة .

وهكذا بالنسبة إلى بلاد[4] فقد أقام في مكة ثم ارتحل إلى المدينة ، ثم دخل إلى الشام ، وفيها مات .

أما في الحقبة الإسلامية الأولى ، فقد انتشر اللحن في معظم الحواضر الإسلامية وبشكل خاص في تلكما المدينتين اللتين كان لهما أبعد الأثر في نشوء علم النحو : « البصرة والكوفة » . يؤيدنا في ذلك « أخبار اللحن »[5] التي حدثت في المدينة أيام الخليفتين : أبي بكر ، وعمر بن الخطاب ، كما تقدَّم مع عمر ، والقوم الرماة[6] ، ومثله مع الأعرابي القادم إلى المدينة لقراءة القرآن[7] ، ومثله ما حصل له مع كاتب الأشعري الموجود في البصرة[8] . والاختلاف العام في قراءة القرآن أيام عثمان بن عفان الذي حدث في أكثر من منطقة من مناطق الثغور البعيدة عن الأصالة ؛ بعامل المخالطة ، والأغراب عن الجزيرة[9] .

---

(١) م . ن . ج ٥ ص: ٧٢ والأغاني ، ج ٨ ص: ٢٣٤ .
(٢) م . س . ج ٣ ص: ١١١ ـ ١١٢ .
(٣) الزركلي الأعلام ج ٣ ص: ٢١٠ .
(٤) م . ن . ج ٢ ص: ٧٣ .
(٥) سبق ذكر هذه الأخبار ، راجع فيها الصفحة من هذا الكتاب .
(٦) الصفحة ٧٠ من هذا الكتاب . أخبار عمر .
(٧) الصفحة ٧١ من هذا الكتاب . أخبار عمر .
(٨) الصفحة ٧١ من هذا الكتاب . أخبار عمر .
(٩) الصفحة ٧١ من هذا الكتاب . أخبار عثمان .

وفي الحقبة الأموية ، وأخبارها في اللحن ، أوسع الأخبار[1] ، وأكثرها تدويناً في كتب « تاريخ النحو » نجد خبر اختلاف الأخوة في شأن تركة الأب ، لعهد زياد بن أبيه ، خير شاهد على اللحن في الأمصار حيث كان زياد في البصرة[2] ، كما نجد خبر لحن ابنة الدؤلي ، وقد حصل في البصرة[3] أيضاً ، وفيها حصل أيضاً حادثة سعد الفارسي مع الدؤلي[4] . وأخبار عبيد الله بن زياد[5] تنقّلت معه في المدن التي حلّ بها من البصرة ، إلى الشام ، إلى خراسان ، كما نستفيد من خبر لحن الحجاج[6] عن وجود اللحن في العراق ، وخبر الوليد[7] عن وجوده في الشام ونختتم بلحن الحسن البصري[8] في البصرة ، ولحن أبي حنيفة[9] في الكوفة . مع الإشارة إلى أن الأخبار الأربعة الأخيرة قد حدثت على لسان الخاصة وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على سرعة انتشار اللحن قياساً على ما كان عليه أيام الإسلام الأولى ، فضلاً عن تأكيده ما سبقت الإشارة إليه ، من حجة عدم اهتمام النحويين بالأخذ عن أهل الحضر ، كما أخذوا عن أهل المدر[10].

كما يمكننا أن نلاحظ بعودتنا إلى أخبار اللحن عند أبي عثمان الجاحظ[11]. خبراً مفاده « أن أول لحن سُمِعَ في البادية « هذه عصاتي » بدل « هذه عصاي » وأول لحن سُمِعَ بالعراق « حيّ على الفلاح » بكسر الياء من حيّ بدل فتحها . . . وهذا الخبر على ما فيه من الاضطراب[12] (للتعميم الذي فيه ، وعدم دقته لاستحالة

---

(1) الصفحة ٧٣ من هذا الكتاب . أخبار الحقبة الأموية .

(2) الصفحة ٧٢ من هذا الكتاب . أخبار زياد .

(3) الصفحة ٧٣ من هذا الكتاب . أخبار الدؤلي .

(4) الصفحة ٧٣ من هذا الكتاب . أخبار الدؤلي .

(5) الصفحة ٧٣ من هذا الكتاب . أخبار ابن زياد .

(6) الصفحة ٧٤ من هذا الكتاب . أخبار الحجاج .

(7) الصفحة ٧٤ من هذا الكتاب . أخبار الوليد .

(8) الصفحة ٧٥ من هذا الكتاب . أخبار الحسن البصري .

(9) الصفحة ٧٥ من هذا الكتاب . أخبار أبي حنيفة .

(10) الصفحات ٣٦ - ٤٠ من هذا الكتاب .

(11) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ص: ٢١٩ .

(12) لأن الأسلوب العلمي المنهجي يرفض هذا الحديث وهذا التعيين لاستحالة صدقه وانتفاء الدّقة فيه .

تسجيل أول لحن لعدم انحصار اللحن بمنطقة دون أخرى ، أو بقبيلة دون أخرى) أرّخ للّحن بملاحظة الأقسام الموزّعة على الأنواع فقد عيَّن الزمان ، ولو بصورة غير محدّدة ، بأول لحن سُمِعَ ، وعين المكان فهو البادية ، والعراق وعين الدرجة من الخطورة ، فهو لحن في علامات الإعراب من الدرجة الأولى مع لحن العراق . وهو لحن في بنية الكلمة من الدرجة الثانية مع لحن البادية .

٥ ـ اللحن بحسب الموضوع :

ولقد تمَّ تسجيله على نوعين[١] فهو :

١ ـ لغوي صرف .

٢ ـ ولغوي قرآني .

أما اللغوي الصرف فيشتمل على معظم أخبار اللحن الوارد ذكرها في الأقسام الثلاثة : الجاهلي ، والإسلامي ، والأموي . بلحون طرفة ، وأمية ، وعُدي ، وامرىء القيس ، والنابغة ، وقس ، وابن أحمر ، ولبيد ، وصهيب ، وسحيم ، وسلمان ، وبلال في الجاهلية ، لحون لغوية . هكذا قل بالنسبة إلى بعض لحون الأربعة الأخيرين في الإسلام (باعتبار أن بعض لحونهم في صدر الإسلام كان لغوياً للكنهم)[٢] . والحكم نفسه مع أخبار اللحن أيام أبي بكر وعمر ـ ما عدا خبراً واحداً ـ[٣] وخبر لحن ابن زياد ، وخبر المختصمين بين يديه ، وخبر لحن ابنة أبي الأسود ، والرجل الفارسي أمامه . وبعض لحن الحسن البصري ، وأبي حنيفة[٤] .

أما اللغوي القرآني ، فيشتمل على بعض لحون سلمان ، وصهيب ،

---

(١) راجع الصفحتين ٦٦ ـ ٦٧ من هذا الكتاب .

(٢) في هذه اللحون مجتمعة (تجنباً للإطالة) الصفحات ٥٤ ـ ٥٦ في لحن الشعراء من امرىء القيس حتى ابن أحمر ولبيد أما بالنسبة لصهيب وبلال وسلمان فراجع الصفحتين ٦٩ ـ ٧٠ من هذا الكتاب في لحونهم وراجع في التعريف بهم وبأدوارهم الصفحتين ٦٠ ـ ٦١ من هذا الكتاب .

(٣) أخبار لحن العهد الراشدي راجع فيها الصفحتين ٧٠ ـ ٧١ من هذا الكتاب والخبر المستثنى هو خبر الأعرابي مع عمر والآية من سورة التوبة .

(٤) في هذه اللحون الصفحات ٧٣ ـ ٧٥ من هذا الكتاب .

وسحيم ، وبلال ، أثناء تلاوتهم القرآن وخبر لحن المقرىء للآية مع الأعرابي أيام عمر[1] وأخبار اللحن القرآني أيام عثمان[2] ، وخبر لحن الحجاج في إحدى آيات التنزيل[3] ، وخبر لحن الوليد بن عبد الملك في إحدى الآيات[4] ، وخبر لحن الحسن البصري في آي الذكر الحكيم[5] ، وخبر لحن أبي حنيفة في إحدى الآيات أيضاً[6] .

وبعد هذا العرض المستفيض في أقسام اللحن وأنواعه ، يتبين لنا في المحصلة بما لا يقبل الشك . أن اللحن بدأ جاهلياً ، واستمر إسلامياً ونما ، وفشا وشاع أموياً . كما يتأكد لنا ، ومن خلال التقسيم الذي توزَّعت عليه أقسام اللحن . أنه لم يظهر بصورة مفاجئة على الإطلاق ، وأنه انتقل من القليل المنحصر ، إلى الكثير المنتشر ، بعامل تقادم الزمن وتوفر الأسباب الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والدينية ، المساعدة على ذلك . كما يتأكد لنا منهجياً ، ما سجّله الكبار من العلماء الأوائل الذين أرَّخوا للنحو ، والنحاة من أن اللحن لم يكن السبب الوحيد لوضع النحو . وبتعبير آخر لم يكن السبب المباشر وهو الدافع الأوَّل لوضع النحو . فلو كان اللحن هو الداعي لهذا الوضع فقط ، لحدث هذا جاهلياً ، أو إسلامياً مع نمو اللحن ، ولكان ذلك الحدوث على يد النبي ﷺ ـ وهو سيد العلماء دون منازع ـ الذي اكتفى بالتبرّم من اللحن ، والإشارة إلى وجوب معالجته لأنه ضلال . إلاّ أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، إلاّ في الفترة التي ظهرت فيها الحاجة ، وفي الفترة التي دهمت كتاب الوحي ، والتنزيل ، أمور ليس أقلها الاختلاف في التأويل ، الناشىء عن الاختلاف في القراءات ، الأمر الذي سببه اختلاف اللهجات ، وطروّ الفساد ؛ لمخالطة الأعاجم . كما نستطيع القول بأن اللحن الحضري كان من الأمور الداعية إلى وضع

---

(١) في هذا الموضوع الصفحة ٧١ من هذا الكتاب .

(٢) في هذا الموضوع الصفحة ٧١ من هذا الكتاب .

(٣) في هذا الموضوع الصفحة ٧٤ من هذا الكتاب .

(٤) في هذا الموضوع الصفحة ٧٤ من هذا الكتاب .

(٥) في هذا الموضوع الصفحة ٧٥ من هذا الكتاب .

(٦) في هذا الموضوع الصفحة ٧٥ من هذا الكتاب .

النحو أكثر منه في البدوي ، لمجيء أغلب الروايات بل مجملها على ألسنة أهل الحضر ؛ لطروء الفساد اللغوي على ألسنتهم تبعاً للظروف الجديدة الناشئة . كما نستطيع القول : إن كثرة اللحن اللغوي الصرف بالمقارنة مع اللغوي القرآني . أمر يدلنا على مقدار شيوع اللحن في كلام الناس الحياتي ، ومعاملاتهم اليومية العادية ، مما يؤكد التقهقر اللغوي الصرف قياساً على ما كانت عليه الحال قبل فساد الألسنة ، كما يؤكد مقولة إعراب القرآن الذي حاكى به الوحي أتم لهجة وصلت إليها اللغة عبر لهجة قريش .

جبه النحويين الأوائل لهذا اللحن :

أمام هذا السيل الجارف من اللحن ، الذي هدّد اللغة في سلامتها ، وفصاحتها والقرآن في بلاغته ، وبيانه نهض أبو الأسود الدؤلي ، بإشارة من علي بن طالب(*) .

(*) هذا ما تفيدنا به الروايات التي تحدثت عن الموضوع ولم يخرج عن اتفاقها المؤيّد بسبع عشرة رواية سوى واحدة تحدّث ابن النديم في شق منها عن دور علي وأوردها دون إسناد شأنه مع رفيقتها دلالة على ضعفها عندما ذكر خبرها على سبيل الأمانة العلمية القائل بإسناد الأمر إلى ابن هرمز . ولم يخرج على تلك الروايات إلاّ المُحدَثُون بظنونهم فقط ودون أي سند تاريخي وقد وصلتنا هذه الروايات عن طريق كتب النحو ، والوفيات ، والتراجم والطبقات ، وتاريخ الأدب ، وهي على الترتيب الزمني بحسب وفاة أصحابها تتقادم من القرن الثاني للهجرة باعتبار حياة أصحابها فيه وموتهم في غيره حتى القرن الحادي عشر وهي :

١ ـ رواية ابن سلام ، محمد ، المتوفي (+٢٣٢ هـ) . وهو إمام في الأدب ، من أهل البصرة مات ببغداد له كتب منها طبقات الشعراء حيث روايته (٥ـ ١٠) . راجع فيه الأعلام ج ٦ ص: ١٤٦ .

٢ ـ رواية ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم المتوفى (+٢٧٦ هـ) . من أئمة الأدب ، والمصنفين ولي القضاء من كتبه الشعر والشعراء ط ١٣٦٦ هـ روايته ج ٢ ص: ٧٠٧ . راجع فيه الأعلام ج ٤ ص: ١٣٧ .

٣ ـ رواية المبرد ، محمد بن يزيد ، المتوفى (+٢٨٦ هـ) إمام العربية ببغداد في زمنه له كتب مشهورة منها الكامل والمقتضب ، نقل روايته الزبيدي ، في طبقاته ص: ١٣ ، راجع فيه الأعلام ج ٧ ص: ١٤٤ .

٤ ـ رواية اللغوي ، أبو الطيب ، عبد الواحد بن علي المتوفى (+٣٥١ هـ) ، له كتب منها الإبدال ، والأضداد ، ومراتب النحويين حيث روايته ص: ٦ ، راجع فيه الأعلام ج ٤ ص: ١٧٦ .

للتصدِّي لموضوع اللحن فكانت بداية التحول تجاه النحو العلمي ، ولهذا تُعد هذه المرحلة الخطوة الأولى التي تلت عمل علي وتوجيهه لتنفيذ الضوابط المانعة للّحن ، وهي مرحلة النحو التطبيقي .

وعليه يمكن تسمية أبي الأسود بأول معلم للنحو ، وهذا لا يتناقض مع ما سبقت الإشارة إليه في دور الإمام علي ، بل لا يعني أنه كان أول نحوي ، ولكنه يعني أنه كان أول من جمع النحو سليقة إلى جانب المعلم ، فاحتجّ بعلمه لسليقته ، وتصدّى لتعليم الناس فامتاز بعلمه ، وسليقته ، بعد تقيُّده بإشارة علي ، بإمامة الناس في النحو ولاختلافه إليه ، وتلمذته على يديه ، بقراءة القرآن عليه ، وتأييده في السياسة والدين ؟ وهذا ما حدا بابن خلدون إلى القول (أ) : « ويقال : بإشارة علي . . . . لأنه رأى تغير الملكة ، فأشار عليه بحفظها ، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة ، ثم كتب فيها للناس من بعده » .

وعليه يتحدَّد الجواب ، وتتقرر النتيجة ، فالبدايات محصورة بعلي ، وأبي

---

٥ ـ رواية أبي سعيد السيرافي ، المتوفى (+٣٦٨ هـ) وهو الحسن بن عبد الله ، نحوي عالم بالأدب من المعتزلة ، له كتب منها أخبار النحويين البصريين حيث روايته ص: ١٥ راجع فيه الأعلام ج ٢ ص: ١٩٦ .

٦ ـ رواية الأزهري ، محمد بن أحمد المتوفى (٣٧٠ هـ) معاصر للسيرافي ، ينقل عنه صاحب « اللسان » ج ١٥ ص: ٣١٠ طبعة دار صادر عبارته : « وبلغنا أن أبا الأسود وضع وجوه العربية وقال للناس أنحوا نحوه » .

٧ ـ رواية الزبيدي ، محمد بن الحسن الاشبيلي المتوفى (+٣٧٩ هـ) عالم باللغة والأدب من القضاة من كتبه طبقات النحويين واللغويين ، حيث روايته ص: ١٣ الفقرة الأخيرة عن لسان المبرد راجع فيه الأعلام ج ٦ ص: ٨٢ .

٨ ـ رواية ابن النديم محمد بن إسحاق المتوفى (+٥٣٨ هـ) بائع للكتب وهو صاحب الفهرست أشهر الكتب القديمة الخاصة بالموضوع حيث روايته ص: ٥٩ و ٦١ في إثبات دور علي بروايات مسندة مرفوعة ، وص: ٥٩ في نسبة النحو لابن هرمز ونصر بن عاصم دون سند . راجع فيه الأعلام ج ٦ ص: ٢٩ .

٩ ـ رواية ابن فارس ؛ أحمد المتوفى (+٣٩٥ هـ) من أئمة اللغة والأدب ، أستاذ البديع والصاحب ، من كتبه المشهورة الصاحبي في فقة اللغة حيث روايته ص: ١٠ راجع فيه الأعلام ج ١ ص: ١٩٣ .

الأسود . فأما علي ، فدوره توجيهي ، وضعت معه الحدود الأوليّة الكبرى للنحو(ب) . وأما أبو الأسود ، فدوره تنفيذي تطبيقي مثّل فيه شخصية العالم المتبصّر والمستقرىء الملاحظ الذي يسترشد بفكرة لغيره فينبري إلى تحقيقها من دون أن يدّعيها لنفسه ، أو أن يسيء إلى صاحبها ، أو إلى نفسه ، بتصنّع السبق إليها محاولاً الوصول إلى الحقيقة التي رمى إليها صاحب الفكرة ، وهو هنا أستاذه[1] .

---

١٠ ـ رواية ابن عساكر علي بن الحسن المتوفى (+٥٧١هـ) المؤرخ المشهور محدث بلاد الشام من كتبه تأريخ دمشق الكبير الذي اختصر باسم « تهذيب تاريخ ابن عساكر » حيث روايته ج ٧ ص: ١٠٩ راجع فيه الأعلام ج ٤ ص: ٢٧٣ .

١١ ـ رواية الأنباري ، عبد الرحمن بن محمد (+٥٧٧ هـ) من علماء اللغة والأدب وتاريخ الرجال من الزاهدين ، من كتبه نزهة الألباء حيث روايته ص: ١٨ وص: ٢١ راجع فيه الأعلام ج ٣ ص: ٣٢٧ .

١٢ ـ رواية ياقوت الحموي المتوفى (+٦٢٦ هـ) . راجع فيه الأعلام ج ٨ ص: ١٣١ .

١٣ ـ رواية القفطي ، علي بن يوسف المتوفى (+٦٤٦ هـ) قاض ووزير وصاحب مكتبة مشهورة وكبيرة . من كتبه أنباه الرواة حيث روايته ج ١ ص: ٤ وص: ٦ راجع فيه الأعلام ج ٥ ص: ٣٣ .

١٤ ـ رواية ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد المتوفى (+٨٠٨ هـ) المؤرخ المشهور مؤسس علم الاجتماع . من كتبه تاريخه وله اسم آخر وهو سبعة أجزاء أولها المقدمة حيث روايته فيها ص: ٥٤٦ ـ ٥٤٧ راجع فيه الأعلام ج ٣ ص: ٣٣ .

١٥ ـ رواية ابن حجر أحمد بن علي ، المتوفى (+٨٥٢ هـ) من أئمة العلم والتاريخ له كتب كثيرة منها الإصابة حيث روايته ج ٢ ص: ٢٤١ ـ ٢٤٢ راجع الأعلام ج ١ ص: ١٧٨ .

١٦ ـ رواية السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر المتوفى (+٩١١ هـ) إمام حافظ مؤرخ يلقب بابن الكتب وله قصة طريفة من كتبه بغية الوعاة حيث روايته ج ٢ ص: ٢٢ راجع الأعلام ج ٣ ص: ٣٠١ .

١٧ ـ رواية البغدادي عبد القادر بن عمر المتوفى (+١٠٩٣ هـ) من كبار عصره في الأدب والتاريخ والأخبار أشهر كتبه خزانة الأدب حيث روايته ج ١ ص: ١٣٦ راجع الأعلام ج ٤ ص: ٤١ .

أ ـ ابن خلدون المقدمة ، بيروت ، ص: ٥٤٦ ـ ٥٤٧ .

ب ـ سنناقش ذلك لاحقاً ومطولاً انظر الصفحة ١٢٦ والصفحة ١٢٩ والصفحة ١٣٠ .

(١) هذا الكتاب من ص: ١٢٩ ، تلمذة أبي الأسود الدؤلي لعلي ، راجع للأنباري نُزهة الألبّاء =

ويمضي التلاميذ[1] مسترشدين بخطى الأستاذ في الموضوع ، محاولين تطبيق تلك المبادىء التي وضعها الإمام علي ، وثقفها الدؤلي ، وعممها عليهم ، بعد زيادته عليها ، وتوسُّعه في شرح فروعها ، معتمدين على علمهم الذي حصَّلوه ، وعلى براعتهم في تطبيق تلك المباديء بحسب المسائل التي عرضت لهم ، وواجهتهم كالذي مرَّ ذكره عن مواجهة يحيى بن يعمر النحوي للحجَّاج بن يوسف الثقفي[2] . حيث يُنفى واحد من هؤلاء التلاميذ من العراق إلى خراسان ، لمجرَّد تصويبه للأمير في خطأ قرآني يتلفَّظ به[3] .

إن المتأمل في هذه الحادثة يلاحظ فيها شيئاً مهمًاً جداً فهي وثيقة حية شاهدة على طبيعة المسائل التي تأتّى لهؤلاء التلاميذ معالجتها . أو قل هي الشاهد المهم على استمرار تلامذة الدؤلي بانتهاج الطريق التي اختطُّها أستاذهم بالاهتمام بحركات الأواخر من الكلمات كما كان الأمر معه عند نقط القرآن بنقط الإعراب رفعاً ، ونصباً ، وجرّاً . ولذا يمكننا الجزم بأن دور الريادة في العمل النحوي ظلَّ للدؤلي بعد أن فرض عمله نفسه على الممارسات النحوية ، حتى كان ابن أبي إسحاق الذي تمكَّن من أن يخطو بالنحو خطوة مهمة وجديدة . كما يمكننا الجزم بأن أعماله في النحو ، وإعراب القرآن هي التي وجُّهت إلى الاهتمام بملاحقة المسائل إن وقعت بالاهتمام بأواخر الكلمات وحركاتها . وهذا ما يمكُّننا من الكشف عن الحلقة المفقودة بين إعراب القرآن ، واكتشاف موضوع العلَّة النحوية ـ إذ هو الرائد غير المنازَع ـ بالاهتمام بحركات أواخر الكلمات ؛ لأهميتها في تبيان المعاني والمقاصد ، مما هداهم إلى كشف سرٍّ مهم من الأسرار العربية ، وهو أنَّ هذه الحركات لها أسباب توجب تغيّرها من حال إلى أخرى ، مع إطِّراد في هذه الأسباب بين الحال والأخرى . وعليه يجب الكشف عنها فكانت « العلَّة » .

---

* ص : ١٧ ـ ١٩ وراجع للقفطي إنباه الرواة على أنباه النحاة ج ١ ص : ٤ .

(١) عنينا بهم تلامذة الدؤلي وقد آثرنا عدَّهم في الأوائل لسبقهم ولأن بعض الروايات أعادت البدايات إليهم وهي إن كانت خاطئة كما بيَّنا ص : ٨١ تدلُّ على مكانتهم العلمية خاصة في تلك المرحلة التي احتاج فيها الناس لعلم الدؤلي .

(٢) الصفحة ٧٤ من هذا الكتاب .

(٣) الصفحة ٧٤ من هذا الكتاب .

العمليات الأولى تمت على أسس[1] :

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ، والجواب عنه تصوّر بحث يعوزه الدليل السندي الذي يُسجل الخطوات الأولى في القرن الأول ، مع هؤلاء الأوائل - اللهمّ إلاّ تلك الروايات التي أكّدها البعض ، ورفضها البعض الآخر[2] - ترى هل يعقل أن يكون عمل علي ، وأبي الأسود ، وتلاميذ أبي الأسود ، قد تمّ من دون سياق ملحوظ ، أو قاعدة ، مستنتجة ، أو تقليد معيَّن ، أو هل يعقل أن يفرض هؤلاء الرواد جميعاً ، شيئاً ما على اللغة من خارج دائرتها تبعد عنه ، ولا تسيغه ، ويتقبله الجميع ، ويطبّقونه من دون مراجعة ، أو منافرة[3] ؟

طبعاً لا ، فالأمر مختلف تمام الاختلاف ، فمع العودة إلى الروايات[4] التي وصلتنا عن طبيعة عمل علي ، نلاحظ أن الإمام في تلك الروايات لم ينطلق من فرض

---

(١) راجع في ذلك الصفحتين ١٢٩ - ١٣٠ من هذا الكتاب .

(٢) راجع في تلك الروايات الصفحتين ١٦١ - ١٦٣ من هذا الكتاب وعنينا بقبول البعض ورفض البعض الآخر آراء المحدثين الواردة ص : ١٦٤ من هذا الكتاب فلتراجع مفصلة .

(٣) الصفحة ٣٩ من هذا الكتاب حول حادثة ابن جني مع الأعرابي والسجستاني .

(٤) وردت في هذا الأمر روايات متعددة مر ذكرها ص ٨١-٨٣ نذكر منها رواية متقدمة وأخرى متأخرة ، أما الأولى فهي للأنباري من النزهة ص: ١٨ يقول : وسبب وضع علي لهذا العلم ما روى أبو الأسود قال : دخلت على أمير المؤمنين علي فوجدت في يده رقعة فقلت : ما هذا يا أمير المؤمنين فقال : إني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء ، فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه ، ثم ألقى إليَّ الرقعة وفيها مكتوب (الكلام اسم ، وفعل ، وحرف) . فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبئ به ، والحرف ما جاء لمعنى ، وقال انح يا أبا الأسود هذا النحو واضف إليه ما وقع إليك . واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، واسم لا ظاهر ، ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا بمضمر ، وأراد بذلك الاسم المبهم . ثم قال وضعت بابي التعجب ، والاستفهام إلى أن وصلت (إلى إن وأخواتها) ما خلا لكنّ ، فلما عرضتها عليه أمرني بضم لكنّ إليها ، وكنت كلما وضعت باباً في النحو ، عرضته عليه إلى أن حصلت بما فيه الكفاية قال : ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت فلذلك سمي « النحو » .
أما الثانية فهي للقفطي في إنباه الرواة ص: ٤ يقول : الجمهور من أهل الرواية على أن أول من وضع النحو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال أبو الأسود : دخلت على أمير المؤمنين فرأيته مطرقاً مفكراً . فقلت : فيم تفكر يا أمير المؤمنين . فقال : سمعت ببلدكم لحناً فأردت أن =

القواعد ، بل من استقراء الحقائق ، كما أن تلك الروايات تفيدنا أمراً مهماً وهو بحث الأمر بين علي والدؤلي بما يتناسب مع طبيعة المرحلة ، إضافة إلى فوائدها في التركيز على سبب ذلك البحث ، وهو استشراء الفساد بين الناس بمخالطة الحمراء ، وشيوع اللحن إلى درجة هدّد معها القرآن الكريم ، والوحي ، المكتوب باللغة العربية ولذلك حدثتنا الروايات عن الأسباب الباعثة على وضع النحو ، فذكرت منها سببين يتعلقان بالقرآن واللحن في تلاوة آياته ، الأول عندما سمع الإمام علي إعرابياً يقرأ ﴿**لا يأكله إلاّ الخاطئين**﴾[1] فأنكر ذلك ، وبادر إلى التفكير في وضع النحو ، وكان دخول الدؤلي عليه كما مرَّ . . .[2] والثاني عندما قرأ أحدهم آية : ﴿ **إن الله بريء من المشركين ورسوله** ﴾ بكسر لام رسوله بدل ضمها ، فأنكر الدؤلي ذلك (أيام عمر ، أو زياد ، على اختلاف يشرح لاحقاً)[3] وبادر إلى نشر مبادىء النحو التي أخذها عن علي كما نلاحظ إضافة إلى ما سبق موضوع تردُّد الدؤلي على الإمام عليّ ، وملاحظة الرقعة ، والدخول عليه بصورة يُستَدَل عليها من الحديث أنها معتادة ودائمة . وما ذلك إلاّ لتلمذة الدؤلي على الإمام في قراءة القرآن إذ هو من التابعين الذين درسوا على الصحابة . وعلى سيد القراء ، والصحابة ، ولذا فقد لزمه ، وتتلمذ على يديه ، وأيّده في السياسة . وهذا هو الأمر المراد ، والزبدة المطلوبة ، فالنحو لم يطلب مع هذه الروايات المجتمعة لذاته كما يتبين ، وإنما طلب لغيره وليس كثيراً على من ثقف اللغة سليقة ، وممارسة ، وفصاحة ، عن لسان قومه من قريش أولاً ، وعن لسان أفصح الناس ثانياً أن يبادر إلى حفظ البيان والوحي ، بوضع بعض المبادىء التي تساعد

= أصنع كتاباً في أصول العربية فقلت له : إن فعلت هذا أبقيت فينا هذه اللغة ، ثم أتيته بعد أيام فألقى إلي صحيفة فيها بسم الله . . . . . . الكلام كله اسم ، وفعل ، وحرف . . . وتتابع الرواية الأولى . . . . فلتراجع .

(1) الأنباري ، نزهة الألباء ص: ١٩ السطر ١٣ والآية من سورة الحاقة : ٣٧/٦٩ والصواب « إلا الخاطئون » .

(2) الصفحة ٨٥ من هذا الكتاب في الحاشية .

(3) الآية من سورة التوبة رقمها ٩ ورقم الآية : ٣ وانظر في التعليق على نسبة حصول الخطأ إلى أيام من ص : ١٢٠ من هذا الكتاب . وحاشية الصفحة ٧١ من هذا الكتاب . حيث جرى التعليق على ذلك .

الناس على الموضوع ، وحري بالتلميذ أن يقتدي بما رسمه أستاذه له من قواعد ، وسنن استوحيت من القرآن كونه أول أثر مكتوب ، ومن السليقة كونها المعين النمير ، لحفظ اللغة على فصاحتها ؛ حباً بحفظ الوحي المكتوب بها .

وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدل في النهاية على صحة ما سبق من شأنِ اللغة قياساً على ما آلت إليه أيام انتشار اللحن ، ووضع النحو العلمي ، كما يدلُّ على صحة ما كان من أمر القرآن ، وتحدِّيه للعرب بالفصاحة ، والبلاغة لمحاكاته أفصح لهجاتهم بأتمّ شكل ، لينتزع المبادرة منهم ، فيصبح هو مضرباً للمثل في ذلك ، ومفخرة لهم ، يحوطونه ما استطاعوا ، ويخدمونه ما قدروا ، لأنه الأساسِ الدالُّ على أصالة فصاحتهم ، وبلاغتهم فضلاً عن كونه كتاباً لدينهم ودنياهم . بما مثّله من نضج في الممارسات اللغوية السابقة .

الباب الثالث

أثر القرآن في وضع النحو

الفصـــل الأول

القرآن واللحن

أ ـ طرق اللحن على قراءة القرآن :

رأينا سابقاً بعض الأسباب الداعية إلى نشوء النحو العربي[1] ، والتي كان من أهمها ، الحفاظ على الوحي وكتابه ، المعلّق بأحرف العربية من الفساد واللحن ، مما أبرز دور القرآن في الموضوع من دون مناقشة أو تعليق ، رغبة في تأجيل ذلك إلى مكانه .

ومع العودة إلى تاريخ الصدر الأول نلاحظ أن القرآن حُمل عن الرسول ﷺ مشافهة أولاً ، مع تعليقه على « الرقاع » بواسطة كتبة الوحي ، الذين اتخذهم النبي ﷺ لذلك[2] . « وكان النبي ﷺ سيّد الحفّاظ وأول الجمّاع »[3] . واشتهر بتلاوته عليه ، وإقرائه للناس قراء مشهورون كان على رأسهم علي ، وعثمان[4] ، في محاولة منه تعليم الناس أحكام الإسلام بتعليمهم تلاوة آي الذكر الحكيم . حيث تجبهنا أول إشارة من النبي ﷺ إلى وجوب الاهتمام بالحفاظ على القرآن ، خارج دائرة اللحن ، بطلبه إلى من أحاط من المسلمين برجل لحن في القرآن ﴿ أرشدوا

---

(١) الصفحات ٤٥ ـ ٤٧ من هذا الكتاب .

(٢) صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ص: ٦٩ .

(٣) م . ن . ص: ٦٥ .

(٤) م . ن . ص: ٦٨ وفيه أسماء سبعة هم : علي ، عثمان ، ابن أبي كعب ، زيد بن ثابت ، عبد الله بن مسعود ، أبو الدرداء ، أبو موسى الأشعري .

أخاكم فقد ضلّ ﴾[1] معتبراً اللحن في القرآن ضلالاً عن الحق .

ويمضي عهد النبي ﷺ ، ليأتي عهد الصديق حيث ينبري إلى جمع القرآن ، في صحف مرتبة السور ، والآيات ، وضمن كتاب واحد[2] . وحيث تطالعنا فيه رواية مهمة نقلها السيوطي عن لسان أبي بكر يقول فيها : « لإن اقرأ فأُسْقِطُ احب إليَّ من أن أقرأ فألحن »[3] . ومفادها أن أبا بكر يفضِّل نسيان شيء من كلام القرآن لأنه سيعلم ذلك ، على اللحن فيه مخافة أن يَلْتَبِسَ المعنى على السامع ، أو أن يسيء إلى السياق تأكيداً منه على صعوبة ما نبَّه إليه النبي ﷺ سابقاً .

وما الخبر أيام الخليفة عمر ـ إن صحت نسبة تلك الرواية[4] ـ إلّا خير شاهد على توسُّع دائرة اللحن بالقرآن بعد اشتغال غير واحد بإقرائه للناس حيث يصوِّب عمر الأعرابي لقراءة آية : ﴿ إن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾[5] ، فيقرأها له بالضم بدل الكسر ، ويعمِّم على الناس « ألَّا يُقرِيء القرآن إلَّا عالم به »[6] .

ونصل إلى عهد عثمان حيث يسترعي إنتباهنا خبر حذيفة بن اليمان[7] عن اختلاف المسلمين في قراءة القرآن ، لعدم وجود علامات الإعراب ، وللاختلاف المعروف في اللهجات . الأمر الذي أدَّى إلى الاختلاف في التأويل ، والتفسير . حيث يبادر الخليفة الثالث إلى إبقاء القرآن خارج دائرة اللحن ، والفساد ، بنسخه للنسخ وتوجيهها إلى الأمصار ، على قراءة واحدة ، بعد أن أحرق المصاحف التي كتبت بغيرها .

---

(١) المتقّي الهندي علي بن عبد الملك ، المتوفى ٩٧٥ هـ ، كنز العمال ، ٤ مج ط دار المعارف النظامية بالهند ج ١ ص: ١٥١ وراجع في صاحب الكتاب الأعلام ج ٤ ص: ٣٠٩ .

(٢) الصالح صبحي ، مباحث في علوم القرآن ص: ٧٤ ـ ٧٨ ، وهناك روايات تعيد العمل نفسه لعلي راجع فيها مطولاً الكتب التالية : تاريخ القرآن للزنجاني ص: ٤٤ ، وأصول الكافي ص: ٤٥٣ ، والاتقان للسيوطي ، ص: ٥٨ وفضائل القرآن لابن كثير ص: ١٤ .

(٣) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة ج ٢ ص: ٣٩٧ .

(٤) الصفحة ٧١ من هذا الكتاب في الحاشية رقم ١ والمتن أيضاً .

(٥) سورة التوبة : ٩/٣ .

(٦) الأنباري ، نزهة الألباء ، ص: ١٨ ـ ١٩ .

(٧) الصفحة ٧١ من هذا الكتاب .

أما بالنسبة إلى عهد علي بن أبي طالب ، أو دوره بملاحظة وجوده خلال العهود الأربعة السابقة ، ومعاصرته للحن منذ أيام الرسول ﷺ .وبملاحظة شيوخ القرّاء ، المهتمين بإقراء القرآن للناس منعاً للمداخلات فيه . وباعتماد استحالة سكوته عن اللحون ، والأخطاء التي كانت تتناهى إلى مسامعه ، فضلاً عن تدخله المباشر فيما انتهى إليه من مسائل حدثتنا بها الروايات المتواترة التي نقلت عنه توجيه اللاحنين . ومنها ما ذكر آنفاً لعمر[1] ، ومنها ما مرّ ذكره من توجيهه للأعرابي الذي لحن في آية ﴿ لا يأكله إلاّ الخاطئين ﴾[2] فنصب الخاطئين بدل رفعها بالواو .

هذه الأخبار مجتمعة تؤكد دور القرآن الأهم في الحضّ على وضع النحو علماً بعد ممارسته سليقة ، بعد أن عمّ اللحن بآياته وانتشر وإلاّ كيف نفسّر اللحن جاهلياً ، ومع بداية الدعوة أيام النبي ﷺ ، وأيام أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي دون أن يكون تفكير في وضع هذا العلم[3] .

ب ـ أثر اللهجات في قراءة القرآن :

لم يكن اللحن الطارىء على القرآن ، وليد أخطاء نحوية ، ناتجة عن قصور اللاحنين من اللحاق بفصاحة القرآن فحسب وإنما كان لأمورٍ منها ، اختلاف اللهجات ، وتنافرها في الجاهلية قبل الإسلام مما أدّى إلى الاختلاف في القراءة فيما بعد ، لا سيّما في الفترة التي سبقت شكل المصحف بحركات الأواخر من الكلمات ، مع أبي الأسود الدؤلي[4] ، وإعجام حروفه وإهمالها ، مع نصر بن

---

(١) الصفحة ٧١ من هذا الكتاب وأعلى هذه الصفحة أيضاً .

(٢) الصفحة ٨٦ من هذا الكتاب أعلى الصفحة .

(٣) آثرنا التوقف بالبحث عند هذه النقطة وعدم تجاوزه إلى القراءات القرآنية لأن ذلك متأخر على بدايات النحو التي كانت قبل ٤٠ هـ فضلاً عن دخول ذلك في باب أثر النحو في القرآن وقراءاته وأثر اللهجات أيضاً وهذا يغاير موضوع البحث ومنهجه القائم على الاستقراء الصحيح دون إسقاط أو إقحام لأن القرّاء أعملوا مبادىء (البصرة والكوفة) فضلاً عن اللهجات ؛ في القراءات وهذا متأخر جداً عما نحن بصدده راجع لبلاشير ، تاريخ الأدب العربي ص: ٧٧ ـ ٩٠ .

(٤) السيرافي ، أخبار النحويين البصريين ، ص: ١٦ ما مفاده : اختار الدؤلي كاتباً لقناً وأمره أن ـ

عاصم ، ويحيى بن يعمر تلميذي أبي الأسود[1] .

ومما هو معروف أن هذا الاختلاف ليس بالأمر الجديد الخطير الذي يهدّد وحدة الأمة الإسلامية ، بقدر ما هو انعكاس للأوضاع : السياسية ، والجغرافية ، والاجتماعية ، السابقة على الفترة الإسلامية عندما كان نظام القبيلة ، والعشيرة هو النظام المسيطر ، وعندما كانت السمات الشخصية ، والمناقب الفردية هي الهمُّ الأكبر للفرد في ذلك المجتمع إلاّ أن هذا الاختلاف انعكس فيما بعد على قراءة القرآن الذي نزل بلهجة قريش ، فقرأت القبائل بلحونها ولسنها التي لا تستطيع مغايرتها خاصة في الفترة الأولى ، وقبل وضع أصول النحو مع علي ، وأبي الأسود ، وقبل شكل المصاحف ، وإعجام حروفها[2] ، مع الدؤلي وتلاميذه .

ومن تلك الخلافات في القراءة ما أثر من اختلاف في لهجات القبائل ، كالذي نقل عن اختلاف بالتلفظ بالأحرف ، كما في الكشكة مع تميم ، وأسد ، وبعض ربيعة ، وإثبات الهمزة ، وعدمها بين لهجتي تميم ، والحجاز ، وتشديد الحرف بإدغامه مع تميم ، وعدم تشديده ، وفكّه مع الحجازين ، وتغيير حركات أواخر الكلمات[3] بين لهجتي تميم والحجاز ، وغير ذلك مما انعكس على القرآن قراءة فبينما يقرأ جمهور القراء . ﴿نظرة إلى ميسرة﴾[4] بكسر الظاء يقرأ مجاهد[5] الآية

---

* يأخذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد وقال له : إذا رأيتني ، قد فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوق الحرف على أعلاه ، فإن ضممت فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف . . .

(١) السيرافي ؛ أخبار النحويين البصريين ، ص: ١٥ ـ ١٦ ، والاتقان في علوم القرآن ؛ للسيوطي ج ٢ ص: ٢٩٠ والمصاحف ؛ لابن داود ، نشر ليدن ١٩٣٧ م ص: ١٤١ .

(٢) في هذا الموضوع الصفحتين ٣٥ ـ ٤٠ من هذا الكتاب تحت عنوان أثر السليقة ، ودائرة المعارف الإسلامية مادة لحن .

(٣) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ص: ١٢١ ـ ١٣٠ وبلاشير ، تاريخ الأدب العربي ص: ٧٧ ـ ١٠٦ .

(٤) الكشكشة هي زيادة الشين على كاف المخاطبة عند الوقف مثل عليكش ، أما الهمز كما في عباءة وعباية والتشديد مثل ردّ أو ردد، وتغيير الحركات مثل هيهات بالفتح وهيهات بالكسر .

(٥) سورة البقرة : ٢/ ٢٨٠ .

(٦) هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج ، تابعي مكي ، شيخ القراء والمفسّرين أخذ التفسير عن ابن=

بسكون الظاء من نظرة ، وهي لغة تميم وبينما يقرأ الجمهور ﴿ رِضوان الله أكبر ﴾[1] بكسر الراء ، وهي لغة الحجازيين تُقرَأ بضمها ، وهي لغة تميم وبكر . وبينما يقرأ الجمهور ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما ﴾[2] بياءين ، وهي لغة أهل الحجاز ، يقرأ عبد الله بن كثير[3] الداري بياء واحدة ، وهي لغة تميم . إلى ما هنالك من أوجه اختلاف في اللهجات (في الفتح ، والأمالة ، والترقيق ، والتفخيم ، والهمز ، والتسهيل ، وكسر حروف المضارعة ، وقلب بعض الحروف ، وإشباع ميم جمع الذكور ، وإتمام بعض الحركات ، الأمور التي ظهر أثرها واضحاً في اختلاف القراءات القرآنية[4] ، هذا كله يدفعنا إلى تفهُّم موقف حذيفة بن اليمان[5] ، عندما جاء إلى الخليفة عثمان إبان خلافته مستنجداً به على حفظ كتاب الأمة من الفساد[6] بعد أن لمس باليد ، وشاهد بأم العين ، وسمع بأم الأذن ، الخلافات التي قامت بين المسلمين ، أثناء فتحهم لأرمينية ، وأذربيجان ، وهو المتوفى قبل ٣٦ هـ[7] . أي في وقت مبكِّر جداً على ما أفادتنا به الروايات من تاريخ اللحن أيام زياد ، وأبي الأسود ، والحجَّاج ، وصاعداً حتى نهاية العصر الأموي ، مما يؤكد دور علي ، والدؤلي في وضع النحو لاستحالة انتهاء الأمر إليهما ، وسكوتهما عنه مع عظم خطره ، وأهميته كما يؤكد لنا دور اللهجات ، إضافة إلى اللحن في الضغط على أولي الأمر من العلماء للتفكير في وضع مانع للُحن مقوّم للألسنة ، كما يؤكِّد دور القرآن ، وأثره في النحو ،

= عباس بعد أن قرأ عليه القرآن ثلاث مرات يقف عند كل آية ويسأل عن نزولها وأسبابها توفي ١٠٤ هـ راجع فيه الأعلام ج ٥ ص: ٢٧٨ .

(١) سورة التوبة : ٩/٧٢ .

(٢) سورة البقرة : ٢/٢٦ .

(٣) هو عبد الله بن كثير الداري المكي ، أبو معبد أحد القراء السبعة كان قاضي الجماعة بمكة ، وكان عطاراً ويسمون العطار « دارياً » فعرف بالداري وهو فارسي الأصل توفي بمكة ١٢٠ هـ راجع فيه الأعلام ج ٤ ص: ١١٥ .

(٤) راجع في هذه الأمور مجتمعة لصبحي الصالح ، مباحث علوم القرآن ، ص: ١١٢ ـ ١١٣ ، والفصل ١٠١ ـ ١١٦ مهم جداً وقيم . (٥) الصفحة ٧١ في المتن قصة مجيئه إلى عثمان وفي الحاشية ـ التعريف به وبشخصه ح رقم ٣ .

(٦) الصفحة ٧١ من هذا الكتاب .

(٧) هامش الصفحة ٧١ من هذا الكتاب .

كونه السبب الأهم ، والدافع الأقوى إلى وضع النحو .

مـوت القـرَّاء :

وهو بدوره موضوع مهم له أثره في توجيه الأنظار ، إلى إيجاد علم النحـو ، وذلك أثر الخلافات التي بدأت بعد النبي ﷺ ، المـوجّه والمسـدِّد ، وازدادت في الفترات اللاحقة شيئاً إثر شيء . تبعاً للظروف المستجدة .

قد يُظن مع النظرة العاجلة غير المتفحصة ، أن لا علاقة لهذا العنوان بموضوع النحو ، وأثر القرآن فيه ـ ولكننا مع عودتنا إلى سير الحوادث التاريخية مع مرحلة صدر الإسلام نلاحظ أن موت سبعين من حفظة القرآن وقرَّائه[1] في موقعة « اليمامة » التي كانت سنة ١٢ هـ إبَّان حروب الرِّدة التي قادها مسيلمة الكـذَّاب[2] أمر يـدعو إلى التفكير ، وإنعام النظر في مسألة تركت أثرها الواضح مع تناقص عدد هؤلاء القراء الذين أخذوا القرآن كلَّه ، أو قِسطاً منه مشافهة عن لسان الرسول ﷺ . هـذا الأثر الذي ظهر في فقدان هؤلاء الذين انبروا لإقراء الناس ، دون أن يُعْمِلوا في القرآن نظراً خاصاً ، أو أن يتّبعوا في تلاوته لهجة مميزة كالتي تقدَّم الحديث عنها[3] .

وينقضي عهد الصحابة ، ليحل عهـد التابعين من أولادهم وأولاد المسلمين عـامة ، لتـزداد الهوة اتسـاعـاً بين أبنـاء الجيلين : الأول ، والثـاني بعـد أن أخـذ « التصحيف » دوره في عملية اللحن القرآني ، إثر انتشار النسخ من القرآن بين أيدي العامة قبل الخاصة كالذي اشتهر عن الحسن البصري[4] ، وأبي حنيفة[5] ، وتناقله المؤرخون ، والمتأدبون في كتبهم إذ تعددت أخطاء الأوَّل على مكانته ، وزيادته ،

---

(١) صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ص: ٧٤ .

(٢) هو مسيلمة من بني حنيفة ، ومن المُعمرين ، أدرك الإسلام ، وادَّعى النبوة في قومه ، لقبه النبي بالكذاب ، حاربه المسلمون بعد موت النبي ﷺ بقيادة خالد بن الوليد حتى قتلوه بعد معركة قاسية قتل فيها المسلمين ألف ومئتا رجل فيهم أربعمائة وخمسون صحابياً وسبعون من حملة القرآن راجع الأعلام ج ٧ ص: ٢٢٦ .

(٣) الصفحات ٩٣ ـ ٩٥ من هذا الكتاب .

(٤) التعريف به حاشية الصفحة ٧٥ من هذا الكتاب والأعلام ج ٢ ص: ٢٢٦ .

(٥) التعريف به حاشية الصفحة ٧٥ من هذا الكتاب والأعلام ج ٨ ص: ٣٦ .

في حقلي الحديث الفقهي الديني ، وقراءة القرآن وهو من التابعين ، وقد شب في رعاية علي بن أبي طالب[1] ، أما الثاني وهو من هو في المكانة العلمية ، والمذهبية ، فقد نقلت عنه أخطاء في مجال الفتيا ، والأحكام[2] الدينية ، والفقهية وقراءة القرآن[3] وذلك كله يدعو إلى التفكير والتأمل فهذه الأسباب ليست بالسهلة ، ولا يمكن التغاضي عنها ، ولعلّ الحدس بها يمكّن من الوصول إلى نتيجة مفيدة فمن المؤكد أن هؤلاء التابعين ، وأولادهم على كثرتهم ، وقلّة عدد المقرئين الذين أخذوا صدراً بصدر عن الرسول ﷺ ، قد اضطروا عند قراءاتهم للآيات القرآنية ، إلى الاعتماد على أطباعهم ، وسجاياهم وهي أمور لم يحرزوها ، ولم تكن لبعضهم كونهم من غير العرب ، وزاد اللحن ، وانتشاره هذه القراءات ضعفاً ، خاصة مع الفترة التي سبقت ظهور علم النحو المانع من اللحن مما ساهم في كثرة الأخطاء في قراءة القرآن على لسان الخاصّة ، والعامّة ، وأحوج إلى وضع النحو .

د ـ الحروف السبعة[4] :

يتفرع موضوع الأحرف السبعة عن أثر اللهجات ، وأثر القراءات بعد موت القراء ، ليشكّل معهما مدخلاً من المداخل التي أدّت إلى تأثير القرآن المباشر بصفته سبباً رئيساً في وضع علم النحو وذلك نستوحيه من حادثة جرت أيام النبي ﷺ بين عمر بن الخطاب[5] ، وهشام بن حكيم[6] . ومفادها أن عمر تعجّب من قراءة هشام

(١) متن الصفحة ٧٥ من هذا الكتاب .

(٢) متن الصفحة ٧٥ من هذا الكتاب .

(٣) ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر ، ج ١ ص: ٣٤ وفيه خبر مرفوع عن لسان عمر بن عبد العزيز عن أبي حنيفة مفاده : أنه كان يقرأ الآية : ٢٨ من سورة فاطر « إنما يخشى الله من عباده العلماء » برفع الله ونصب العلماء . ويشرح ذلك بتخريج لا يمُت إلى الواقع بصلة في محاولة لتبرير لحن أبي حنيفة . كما في شرح الزركشي حيث يقول : « أن الخشية هنا بمعنى الاجلال والتعظيم لا الخوف » وراجع البرهان في علوم القرآن ، ج ١ ص: ٣٤١ في تفنيد هذه القراءة الأحادية المردودة تماماً .

(٤) صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ص: ١٠١ ـ ١١٦ .

(٥) الخليفة الثاني ، الفاروق ، أوّل من دون الدواوين ، وفي عهده فتحت الشام والعراق والقدس ومصر راجع فيه الأعلام ج ٥ ص: ٤٥ .

(٦) صحابي ، أسلم يوم الفتح عاش كالسائح ، لم يتزوج ، ولم ينجب ، وتنقّل من مكان لآخر =

لسورة « الفرقان » ، أثناء صلاته ولاختلاف هذه القراءة عما أخذه هو عن الرسول ﷺ فاقتاده إلى الرسول ﷺ ليسمع منه ، وليؤكد الرسول ﷺ حسن قراءته ، وقراءة عمر قائلاً : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه »[٣] .

ومع التعليق على هذه الحادثة يلاحظ أن عمر ، وهشاماً من قريش ، ولا خلاف بين لهجتيهما . اللهمّ إلاّ في حيث الفصاحة ، والبلاغة بأن يكون الواحد منهما ، أقوى فصاحة ، وأكثر بلاغة من الآخر لعيٍّ ، أو للثغة معينة ، مما يساعدنا بصورة مبسطة على فهم موضوع الأحرف السبعة التي أُنزل القرآن عليها ، وتساهل النبي ﷺ بها طلباً للتيسير على المسلمين وبُعداً عن التضييق عليهم طالما أن هذه القراءة تتقيّد بشروط[٤] لا تغيّر معها شيئاً من الأساس القرآني . إذ يستحيل أن يتقيّد أبناء العربية جميعهم بقراءة واحدة لتفاوتهم في الفصاحة ، وفي القدرة على نطق اللغة بلهجة قريش لتعدُّد انتماءاتهم ؛ ولميلهم الفطري إلى الاستقلال ، وعدم التبعية ، في كل شيء وخاصة اللغة التي تمثل نظرتهم إلى الحياة والكون . والمهم هنا أن الشخصين في القبيلة نفسها (أي عمر وهشام) ولم يستطيعا ضبط لسانيهما ، ومخارج الحروف في نطقهما بالطريقة نفسها ، علماً أنهما من أصحاب اللهجة التي نزل القرآن بها .

ومع تراخي الزمن بين نزول القرآن وتبليغه ، وموت النبي ﷺ ، وازدياد انتشار اللحن القرآني ، بعامل الدخول تحت لواء الدين الجديد ، لعدم توافر المقرئين الذين

---

* توفي بعد ١٥ هـ راجع الأعلام ج ٨ ص: ٨٥ .

(١) صحيح البخاري ج ٦ ص: ١٨٥ ، ومسند أحمد ج ١ ص: ٣٤ ، والبرهان في علوم القرآن ج ١ ص: ٢١١ .

(٢) عالج الصالح في كتابه مباحث في علوم القرآن ، هذا الموضوع بكثير من الأمانة والدقة والموضوعية . الأمور التي مكنته من إعطاء صورة عامة وشاملة عن موضوع الأحرف السبعة واستنتج في النهاية شروطاً سبعة لا يخرج اللفظ القرآني عنهما مما تعدد أداؤه وهي : الاختلاف في وجوه الأعراب ، والاختلاف في الحروف ، والاختلاف في الأسماء وأفرادها وتثنيتها وجمعها ، وتذكيرها وتأنيثها ، الاختلاف بإبدال كلمة بكلمة الاختلاف بالتقديم والتأخير ، الاختلاف بشيء يسير في الزيادة والنقصان ، الاختلاف في اللهجات بالإمالة والترقيق ، والهمز ، والتشكيل . فليراجع ذلك بتوسع ص: ١٠١ ـ ١١٦ في المباحث .

أخذوا القرآن مشافهة عن الرسول ﷺ ، بما يكفي العدد الهائل الداخل في الإسلام ، وبعامل استخدام اللهجات الخاصة المغايرة للهجة قريش ، والقراءات غير المرفوعة إلى الصحابة المقرئين الذين تمكّنوا من قراءة القرآن على الرسول ﷺ أي تمكّنوا من سماعه منه . تزداد الهوة اتساعاً ، ويُرفد اللحن القرآني برافد جديد زاد من أهميه ، سعة انتشاره وكثرة وقوعه . مما زاد من أهمية الحصول على علم يصحح الأوضاع الفاسدة .

وعليه نستطيع القول : إن للقرآن أثراً في النحو انطلاقاً ، وتجميعاً ، وتوحيداً فلولاه لما وجده الدراسات ، والملاحظ أنه كان باعثاً على الخلاف في التأويل فيما بعد ؛ لاعتماد النحاة على مناحيهم الخاصة في فهم الآيات ، أو لتخريجهم إياها بما يوافق مسائلهم ، ومدارسهم التي أنشأوها في النحو[1] .

---

(١) وذلك يستدعي دراسة خاصة تخرج عن موضوع الكتاب وهي : « أثر النحو في القرآن » وراجع لبلاشير ، تاريخ الأدب العربي ، ص: ٩١ - ١٠٦ .

الفصـــل الثاني

القرآن ولهجة قريش

أ ـ أثر لهجة قريش في وضع النحو وحقيقة وجودها :

ينبغي قبل الدخول في الحديث عن لهجة قريش ، وحقيقة وجودها في الجاهلية ، والإسلام ، الإشارة إلى أن هذا الحديث لا ينفصل عن موضوع الكتاب ، كما قد يظن ، كونه موضوعاً لغوياً لا علاقة له بالنحو علماً إن البحث قد راعى جانب الفصل بين الدراستين اللغوية والنحوية ، ولكن هذا الأمر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنحو كونه الأساس الذي جاء القرآن به ، والأصل الذي اعتمد علم النحو عليه ، ولذا نقول :

كان العرب في جاهليتهم موزّعين على قبائل متفرّقة تسكن في بقاع متنارخة ، تجمعها جزيرتهم جغرافياً ، وأصولهم التي تنتهي عند جدين كبيرين هما « عدنان » ، و « قحطان » عرقياً ، ولغتهم الموزّعة على لهجات متقاربة حيناً آخر لسانياً[1] ، وقد تمكنوا كغيرهم من الأمم الأخرى من إقامة تجمعات سكنية توافق مراحل تطوّرهم الإنسانية قبلياً في البادية[2] ، وملكياً عند تخومها[3] . وكان لهم في مجتمعاتهم

---

(١) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، ص: ١٧ ـ ١١٧ وهو بحث قيِّم جداً فليراجع وبلاشير تاريخ الأدب العربي ص: ٩١ ـ ٩٢ .

(٢) عنينا بهذا الحياة القبلية الغالبة على معظم الجزيرة العربية .

(٣) أردنا بهذا الحياة المدنية والممالك التي قامت في جنوب وشمال الجزيرة العربية في الجاهلية الأولى ، والثانية . راجع الفقرتين لشوقي ضيف العصر الجاهلي ١٧ ـ ٩٧ وتاريخ العرب المطوَّل ، لفيليب حتي ص: ١٠ ـ ١٠٠ وبلاشير ، تاريخ الأدب العربي ص: ٥٥ ـ ٦٨ .

تلك ، مدن قامت ، وأزدهرت لعوامل حياتية ، وحضارية ، واقتصادية ، ودينية ، واجتماعية ، وكان من تلك المدن مكة التي خطّت للسكنى ، مع رحيل إبراهيم النبي إلى أرضها بإبنه . وزوجته هاجر ، ليقيما فيها بعد بناء البيت الحرام ، وزواج إسماعيل من أهلها - وليدعو فيها أسماعيل بعد أبيه إلى الحنيفية ، والإسلام ، والحج بعد بناء الكعبة ، والبيت الحرام ، ولتغدو مكة « أم القرى » ومعبراً للقوافل ، ومركزاً للدائرة ، لمكانتها الدينية أولاً ، والاقتصادية ثانياً ، والسياسية ثالثاً ، والاجتماعية رابعً . ولتغدو قريش التي تحدّرت من جرهم ، وإسماعيل القبيلة المقدمة في الشؤون السياسية ، والإدارية ، والدينية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، لمكانتها من إسماعيل ، وفضلها على غيرها بطيب المحتد ، والأرومة .

وتمضي الأجيال ، ومكانة « قريش » تتدعم بازدياد مكانة « مكة » التي تمكّنت من فرض نفسها على العرب قاطبة دينياً ، واقتصادياً ، بل وعلى غير العرب كون أرضها ، معبراً للقوافل ، ومحطّاً للرحال ، ومع هذه الحاجة الملحّة « لمكة » من النواحي الأربع الآنفة الذكر ، ومع تمكّن رجالاتها من النواحي الحياتية والاقتصادية ، وحاجة الجميع إليهم تمكنت «مكة» ومن خلالها قريش من الاحتكاك بالعرب على اختلاف قبائلهم ، وبغير العرب من الأمم التي ارتبطت بمصالح تجارية معها[1] . إحتكاكاً مباشراً يستخدم اللغة المحلّية - على الأظهر - مما قيّض للهجة قريش ذيوعاً ، وصقلاً نتيجة للتعامل بها مع الغير ، ونتيجة للاستماع إلى لهجات غيرهم التي يلهجون بها مع عدم تمكّنهم من إجادة القريشية كأصحابها . مما يوفر للقريشيين ذوقاً لغوياً نظراً لمدنيتهم النسبية - يختارون فيه الأفضل من بين ما يستمعون إليه من لهجات عبر المقايسة ، والمناظرة ، ويضمونه إلى لغتهم ، أو قل يبتعدون عنه لمجرد كراهيتهم له[2] . ولقد أكّد الفرّاء[3] ذلك بقوله : « كانت العرب تحضر الموسمَ كلَّ

---

(١) الصفحة ٥٩ من هذا الكتاب .

(٢) ولذلك كما يقول صاحب « تاريخ العروس » تمكّنوا من الابتعاد في كلامهم عن عنعنة تميم ، وعجرفية ضبة ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوزان ، راجع مجلة المجمع العربي مج ٣ ص: ٧٤ والخصائص لابن جني ، ج ٢ ص: ١١ .

(٣) الإمام يحي بن زياد ، من أئمة الكوفيين في اللغة والنحو ، مؤدّب المأمون توفي عام ٢٠٧ هـ راجع فيه الأعلام ج ٨ ص: ١٤٥ .

عام ، وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسجلون لغات العرب فما استحسنوه من لغـاتهم تكلّموا بـه ، فصارو أفصـح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ[1] . هذا فضلاً عن تواضع القبائل جميعاً على استعمال لهجة قريش في أسواقهم التي يقيمونها في منـاطق الجزيرة المختلفة[2] . على مدار السنة لمكانة هذه اللغة ومكانة أهلها أولاً ، وفضاً للمنازعات الحـاصلة بتقديم لغـة هذه القبيلة وتـأخير لغة تلك . بمراعاة مكانة « أم القرى » الدينية ولعل أهم الأمور دلالة لي مكانة لهجة قريش في الجاهلية ، إعتراف القبائل بها طوعـاً ، وإختيارهـا أساسـاً للتعامـل في الأسواق العامة إضافة إلى اختيارها لها لغة للشعر ، والأدب ، بشهادة نصوص الشعر الجاهلي[3] . ولذا تركت هذه اللهجة أثرها الواضح على اللغة ، بعد أن عُدت لاحقاً أفصح اللهجات فحملت الفصحى قـواعدهـا ، وأجري على بـاقي اللهجات إسم الخطأ ، واللحن ، والشذوذ .

ومع وصولنا إلى العصر الإسلامي ، يلاحظ أن أثر العوامل السياسية والدينية والاجتماعية ، والاقتصادية ، يزداد رسوخاً ، وحضوراً بعد أن هيأ الدين الجديد لدور مكة المُناخ الملائم في الإستمرار ، والنمو . فلقد نزل الوحي بلهجة قريش بشهادة القرآن القائلة ﴿ وما أرسلنا من رسـول إلاّ بلسـان قـومه ﴾[4] والنبي من قـريش ، وقريش من مكة ، والأخيرة هي « أم القرى » سابقاً ، ولاحقاً ، لوجود البيت الحرام فيها ، ولدورها التجاري الذي لا يخفى على أحد ، ولإنحصار الأرستقراطية فيها ، والمتمثلة في أشخاص تسلّموا زمام المسؤولية في السياسة ، والاقتصـاد ، ورعايـة البيت الحرام ، والاهتمام بالأعراف الاجتماعية القـائمة أيـام الجاهليـة ، والإسلام على حدّ سواء .

وهنا يمكننا الخروج بالنتيجة التالية وهي أنّ متابعـة الدين الجـديد لمـا كان

---

(١) السيـوطي ، المزهـر في علوم اللغـة ، ط ٣ ج ١ ص: ٢٢١ ، وانـظر لأحمـد بن فـارس ، الصحابي في فقه اللغة ، ص ٢٣ رواية بالمعنى نفسه .

(٢) الصفحتان ٤٥ ـ ٤٦ من هذا الكتاب في الهامش .

(٣) الصفحة ١٧ من هذا الكتاب وبلاشير ، تاريخ الأدب العربي ص: ٩١ ـ ١٠٦ .

(٤) سورة إبراهيم : ٤/١٤ .

سائداً ، ومسيطراً كان من باب الإقرار بالأمر الواقع إذ لا يعقل أن يفرض الإسلام على الناس إتّباع لغة غير ذائعة ، ولا منتشرة لأن ذلك سيغلو ومن باب المعوّقات التي تعترض سبيله إلى النجاح . وهذا ما يؤكده قول السيوطي الذي بيّن فيه حال لهجة قريش في الجاهلية ، والإسلام إذ قال[1] : « إن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك إن الله اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمداً فجعل قريشاً قطان حرمه ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب ، من حجّاجها ، وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم ، وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لغتها ، ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم ، وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيّر من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طُبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب » .

وعليه نستطيع تلخيص أسباب سيادة لهجة قريش في الجاهلية ، والإسلام بستة هي :

١ ـ الأسواق وإضطرار الجميع إلى لغة موحّدة .

٢ ـ إفادة قريش من لهجات العرب عبر المخالطة .

٣ ـ الدعاوى ، والمنازعات التي تُحل لدى قريش لمكانتها .

٤ ـ أيام العرب ، وإزدهار الحديث عنها في المواقف العامة .

٥ ـ خوف العرب من هجوم الديانتين : اليهودية ، والمسيحية على وثنيّتهم[2] .

٦ ـ أثر القرآن والحديث .

ب ـ دور القرآن في تثبيت لهجة قريش :

بعد أن احتلت لهجة قريش المكانة الأولى بين مثيلاتها في الجاهلية[3] إلى

---

(١) السيوطي المزهر في علوم اللغة ج ١ ص : ٢١٠ وراجع ليلاشير ، تاريخ الأدب العربي ص : ٩٥ ـ ٩٧ رأي في الموضوع .

(٢) الصفحة ٥٩ من هذا الكتاب . وما بعدها .

(٣) للأسباب الآنفة الذكر ، فلقد كان منها خمسة أسباب من الجاهلية بينما كان القرآن وإلى جانبه الحديث سببين إسلاميين لتدعيمهما . وهذا لا يعني تفضيلاً للدور الجاهلية ، ولكنه يعني الرد على البعض الذين يرون أن القرآن هو الذي فرض لهجة قريش ، دون مقدمات تذكر ، حباً =

درجة أصبحت معها لغة العرب العامة الوحيدة في شمال الجزيرة العربية، وجنوبها[1]. كان الإسلام، وكان القرآن الذي لعب الدور الأهم في تثبيت هذه اللهجة، وتدعيمها إسلامياً، بعد المكانة التي وصلت إليها جاهلياً، باتخاذها لغة له. فلقد سما القرآن بلهجة قريش إلى أعلى درجات الكمال اللغوي الإنساني فوضعها في الذروة، وأحلّها المكان الأسمى من الأعين، بأن جعلها لغة الوحي الذي يصل السماء بالأرض بعد أن كانت لغة تواصل إنسانية، وأضفى عليها حلّة فوقية أتمّت تلك الحلّة الأرضية، التي أضفاها أصحابها على أنفسهم إجلالاً، وإكباراً بفصاحتهم التي افتخروا بها قائلاً: ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً، لتنذر أم القرى ﴾[2].

وهنا يبرز دور القرآن، وأثره فلقد خصّ لهجة قريش من بين مثيلاتها، بعد أن خصت نفسها بالفصاحة بما تهيأ لها من ثروة، وغزارة، ورقة أسلوب، ودنو إلى الكمال نسبياً، لا لمكانة أرادها لأهلها تفضيلاً لهم على غيرهم - كما يفهم الأعمّ الأغلب من الدارسين - وإنما كون هذه اللهجة لسان «أم القرى»، والله لا يعذب حتى ينذر إذ ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً ﴾[3]، ولذا أرسل الرسول في مكة لأنها المركز من الدائرة، ولأنه ابنها، ليحدّث أهلها بلسانهم لأنه ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾[4]، وليتمكن من إنذار مكة ومن حولها بعدها، باعتبار مكانتها السياسية، والدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، بشهادة القرآن ﴿ ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾[5]. وباعتبار سيرورة لغتها بين أهل القرى، وتمكّنهم من فهمه، وفهم دعوته. وبهذا توفّر للهجة قريش ما لم يتوفّر لغيرها، فلقد

= بإعطاء الدور للإسلام. علماً أنهم يشيرون إليه بصورة غير مباشرة. كما تبين في المتن راجع الصفحة السابقة.

(١) بدليل إرسال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لتعليم أهل اليمن القرآن وأحكام الإسلام وقدوم هؤلاء إلى النبي ﷺ وحديثهم معه بلغته قبل عودتهم بمعاذ فضلاً عن الأدلة السابقة الواردة في البحث ص: ٨٥ - ٨٧ حول انتشار لهجة قريش.

(٢) سورة الشورى: ٤٢/٧.

(٣) سورة القصص: ٢٨/٥٩.

(٤) سورة إبراهيم: ١٤/٤.

(٥) سورة الأنعام: ٦/٩٢.

جاءهاالقرآن متحدياً الخاصّة من رجالها القادرين على التعبير بتلك اللغة بأقرب ما يكون إلى الكمال الإنساني ، ومتحدياً العامّة من العرب ، والناس بأن يأتوا بمثله إن تمكنوا من ذلك بقوله: ﴿أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله﴾[1] ومنتزعاً المبادرة من أيديهم ليصبح مضرب المثل في الفصاحة ، والبيان ، والتعبير فإنعكس ذلك على ممارستهم التعبيرية اللغوية ، وأزدادوا تيهاً على تيه لسببين :

١ ـ ظناً منهم بأنه جاء بلغتهم لفضلهم ، مكانة ، ولغة .

٢ ـ ظناً منهم أن مجيء الوحي بهذه اللغة زادها رفعة ، وسبباً إلى أسباب تفضيلها السابقة[2] .

ـ إهمال اللهجات لتفضيل القرآن لهجة قريش :

أمام هذا الموقف القرآني بتفضيل لهجة قريش على غيرها من بقية اللهجات العربية الأخرى ، بإعتمادها لساناً للوحي ، وبعد رضوخ الجميع لبلاغة القرآن وفصاحته التي لا تجاري ، تحولت الأنظار تجاه لهجة قريش ، وتنافست في سبيل تحصيلها ، وتعلّم أصولها ، حباً بإحراز قراءة آي الذكر الحكيم وفق منهجها ، أقبل الناس من عرب ، وعجم على تعلُّم العربية (لهجة قريش) متبرِّكين بها كونها لغة الوحي ، والتنزيل الذي استولى على ألبابهم ، وأخذ بمجامع قلوبهم ، وحباً بإحراز التعاليم الإسلامية النازلة فيها . مما ساعد على تفرُّدها وإطلاقها نهائياً ، لهجة وحيدة بين العرب ، وغير العرب ، فأُهملت اللهجات الباقية بعد أن تجاوزها القرآن ، وأعلنت القرشية ـ بصورة غير مباشرة ـ لغة الكتابة ، والتأليف ، والتدريس ، والتصنيف في الإسلام ، بعد أن أُعلنت في الجاهلية . بدليل ما وصلنا من شعر جاهلي نظم بها .

---

(١) سورة يونس : ١٠/٣٨ ولقد ورد غيرها في معناها كالآية : ٢٣ من سورة البقرة : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزل على على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ وأخرى هي الآية : ١٣ من سورة هود : ﴿ أم يقولون إفتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ وأخرى هي الآية : ٨٨ من سور الإسراء : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون » .

(٢) عنينا بها الأسباب الستة المتقدمة في الصفحة ١٠٣ من هذا الكتاب راجع في هذا لبلاشير ، تاريخ الأدب العربي ص: ٩٧ ـ ١٠٦ .

د ـ ظهور اللحن في القرآن هو الذي دعا إلى ظهور النحو بلهجة قريش :

وهنا نصل إلى نقطة شغلت الكثير من الذين اهتموا بالنحو العربي ، ونشأته قديماً وحديثاً :

١ ـ قديماً : بإهتمام النحاة الأوائل بلهجة قريش دون غيرها ، عن تصميم منهم وإدارك لطبيعة عملهم الذي فهموا معه دور هذه اللهجة المهم كلغة للوحي ، مما حدا بهم إلى خلع صفة القداسة عليها[١] ، لغناها اللافت للنظر من حيث السعة في التعبير، والرقة في العبارة ، والفصاحة في الإبلاغ ، وعدم إحتياج غيرها ، للتعليق بواسطة الأحرف ؛ لعدم الحاجة إلى ذلك التعليق في الحديث ، بإعتبار أنه يمكن أن يتحدث بلغة غير مكتوبة ـ وفي العالم حتى اليوم أكثر من لغة منطوقة لا تعرف شكلاً من أشكال الكتابة[٢] ـ وفي الكتابة لعدم الكتابة بها في المجالات العلمية المستجدَّة بعد إعتماد لهجة قريش . إضافة إلى قناعاتهم بأن ما كان من أمر اللهجات قد حكم عليه بالموت ، بعد سيادة لهجة قريش ، فضلاً عن إقتناعهم بعدم جدوى معاكسة التيار الذي سار تجاه سير إستعمال لهجة قريش[٣] .

٢ ـ حديثاً : بإهتمام المحدثين بمحاولة الكشف عن اللهجات الباقية ، بعد مهاجمتهم للأقدمين ، لإهتمامهم بلهجة قريش وحدها ، ولخلعهم عليها صفة القداسة التي لم يفهموها حقّ فهمها[٤] ، متناسين دور القرآن في إبطال ، العمل

---

(١) صبحي الصالح ، دراسات في فقة اللغة ص: ٢٣ تحت عنوان تطوّر التأليف، ومفاد الأمر، أن علماء العربية اختلفوا في اللغة : اصطلاح هي أو توقيف . وجماع الأمر خلاف ابن جني مع أستاذه أبي علي ، فبينما يقول الفارسي بالإلهام «ويحتج بآية علم آدم الاسماء» . . يأول ابن جني الآية على أساس أنه أقدره على وضع الاسماء ولذا قال بالوضع . . . . . فليراجع ذلك .

(٢) اللغات البربرية ، الغجرية ، بعض اللغات الإفريقية ، والهندية وغيرها قارن ، ببلاشير تاريخ الأدب العربي ص: ١٠٢ .

(٣) وذلك عند اتباع الفريقين : فبينما يقول أصحاب التوقيف بقدسية اللغة ، ويعني هذا إهمال غيرها لعدم مساواته لها يرى أصحاب الاصطلاح بأن اللغة ظاهرة اجتماعية تحيا وتموت ولذا عاشت القرشية ومات غيرها فلا حاجة لإعادة بعثه .

(٤) فهم المحدثون معنى القداسة خلوْ اللغة من العيوب . بينما فهمه الأقدمون بمعنى الاجلال لمجيء الوحي بها ، مما شرّف اللغة العربية على غيرها وليس غير ذلك .

بسائر اللهجات ، وعدم جدوى علم اللهجات باعتباره ـ وبنظر القدامى ـ لا ينفع . لأنه لا يملك دافعاً وراءه غير الاكتشاف ، إذ لن يخدم الكتاب ، ولن يحفظ الوحي ، وجلّ ما فيه المقارنة ، والترف الفكري ، لأنهم (القدماء) مقتنعون بأن القرآن إستخدم اللهجة القرشية لأنها تامة ـ نسبياً ـ ولولا ذلك لم يتحدَّ الفصحاء ، والبلغاء بفصاحته ، وبلاغته التي إستند فيها إلى فصاحة أبناء قريش وبلاغتهم[1] .

ونعود إلى ظهور اللحن في القرآن ـ فلقد ساء[2] ـ هؤلاء العلماء وأخافهم أن يصل اللحن إلى آي الذكر الحكيم ، وكتابة المعجز ، فصاحة وبلاغة ، فيفسده عليهم ، كما أفسد لغتهم[3] ولذا بادروا إلى الإهتمام بالقرآن ، وبلغته التي نزل عليها لأن اللغة أداة لقراءته ، وترتيله . وأنبرى الصحابة إلى التصدي لإقرائه الناس على الأصول التي أُنزل عليها ، وقرأ النبي ﷺ بها ، ولذا يشيع مبدأ التشدُّد في تعيين من يمكن أخذ القرآن عنهم ؛ لأخذهم عن الرسول ﷺ مشافهة ، حيث يشتهر منهم نفر غير قليل على رأسهم علي[4] ، وعثمان[5] ، وزيد[6] ، ومعاذ بن جبل[7] ،

(١) راجع آراء المحدثين أيّ كتاب تريده . وعلى سبيل المثال لا الحصر : فقه اللغة ؛ للصالح ، وإحياء النحو ؛ لإبراهيم مصطفى ، وتجديد النحو ؛ لعفيف دمشقية ، والنحو العربي ؛ لمازن المبارك ، والنحو العربي ؛ لإبراهيم السامرائي ، واللغة والنحو ؛ لعباس حسن ، ومن أسرار اللغة ؛ لإبراهيم أنيس . وفي أصول النحو ؛ للأفغاني .

(٢) الصفحات ٦٦ ـ ٨١ من هذا الكتاب .

(٣) هذا باعتماد مدلول الروايات ، راجع الصفحتين ٨١ ـ ٨٢ من هذا الكتاب ، وباعتماد ما آل إليه البحث من نتائج حتى الآن تؤكد دور القرآن راجع الصفحات ٨١ ـ ٩٩ من هذا الكتاب .

(٤) علي بن أبي طالب ، أمير المؤمنين ، وصهر الرسول ﷺ من الأبطال الخلفاء ، الخطباء . توفي غيلة ٤٠ هـ راجع فيه الأعلام ج ٤ ص: ٢٩٥ .

(٥) عثمان بن عفان ثالث الخلفاء قبل علي ، وجامع القرآن في مصحف واحد ؛ حرّق ما عداه . توفي غيلة ٣٥ هـ راجع فيه الأعلام ج ٤ ص: ٢١٠ .

(٦) زيد بن ثابت صحابي من أكابر العلماء من جامعي القرآن لعهدي أبي بكر ، وعثمان ، ومن كتّاب الوحي . توفي ٤٥ هـ راجع الأعلام ج ٣ ص: ٥٧ .

(٧) معاذ بن جبل ، صحابي أحد الستة الذين جمعوا القرآن ، أسلم صغيراً وعيّنه النبي ﷺ قاضياً على اليمن . توفي ١٨ هـ راجع الأعلام ج ٧ ص: ٢٥٨ .

والأشعري[1] . وبذلك تبدأ العجلة العلمية الإسلامية بالدوران ، فتسجّل ظهور أول علم من علوم المسلمين التي يرجع الفضل فيها إلى القرآن بشكل خاص ، فتكون قراءة القرآن ، وترتيله بحسب لهجة قريش .

ومع توسُّع عملية اللحن ، وباستمرار التدفق الطاريء على الجزيرة ، والدين الجديد من خارجها ، تزداد رقعة اللحن ، غير الإرادي إتساعاً ، من قبل تلك الجماعات المسلمة ، مع عدم كفاية الإقراء لتعليم اللغة ، لفقدان الداخلين في الإسلام من غير العرب ، عنصر السليقة التي يتمتع بها أبناء العربية أصحاب اللغة ، ولإتباعهم طريقة التقليد في التلفظ والتزام حالات الأعراب ، والتقليد ناقص غير مبدع أصلاً . كما تزداد الحاجة إلحاحاً « والحاجة أم الاختراع » فيبادر علي[2] للتصدّي لها ، ويكون وضع علم النحو ، ثم الإشارة إلى الدؤلي بالتزام ذلك حباً بإرشاد الطارئين على العربية إلى السبيل الصحيح الذي يمكّنهم من بعض المباديء التي تؤهلهم بدورها لقراءة صحيحة يبتعدون فيها عن اللحن فيعمل الدؤلي وسعه في ذلك ، وينحو منحى عليّ فيزيد على عمله ما يستطيع ، وتمضي الأيام إلى أن يكون نقط الأيات بحركات الإعراب ، مع أبي الأسود[3] . ثم إعجام ، الحروف وإهمالها ، مع تلمذيه نصر ، ويحيى[4] ، ثم توضع الحدود في مرحلة رابعة .

والسؤال الآن هو موضوع اختصاص النحو بلهجة قريش دون غيرها ؟ والجواب عليه أن الرسول ﷺ ينبغي أن يحدّث بلسان قومه[5] والرسول ﷺ أرسل إلى « أم القرى »[6] ولسانها هو اللسان القرشي ولذا كان الوحي بلهجة قريش وبما أن القرآن نزل بها وبما أن إحراز قراءته قراءة صحيحة ، يفرض إحراز لغته ، كان النحو لها دون

---

(١) عبد الله بن قيس ، أبو موسى ، صحابي ، أحد حكمي صفّين . وُلد بزبيد باليمن . ثم ولي إمارتها . وتوفي بالكوفة ٤٤ هـ راجع فيه الأعلام ج ٤ ص: ١١٤ .

(٢) عنينا به علي ابن أبي طالب الخليفة الرابع .

(٣) التعريف به هامش الصفحة ٣٥ من هذا الكتاب .

(٤) التعريف بهما حاشية الصفحة ٧٤ من هذا الكتاب وبعملهما الصفحة ٨٤ من هذا الكتاب .

(٥) سورة إبراهيم ٤/١٤ والآية هي : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ﴾ .

(٦) اسم من اسماء مكة .

سواها ، خدمة للقرآن ، وإبعاداً لآياته عن دائرة الفساد اللغوي الذي استفحل وتوسّع جداً إلى درجة هُدِّد معها الكتاب الناطقُ بالحق ، الحافظ لأوامر الدين والدنيا ، كما كانوا يرون ـ بالفساد والخطل ـ ولذا لم يرض الأوائل بذلك ، ولم يقبلوا به ، وإنما بادروا إلى وضع النحو بلهجة قريش دون غيرها لا تفضيلاً ، ولا تعصُّباً ، ولا إهمالاً[1] . كما رأى بعض الأقدمين[2] ، وأكثر المتأخرين[3] رأوا أن اختيار لغة قريش إنما حدث لفضلها على غيرها ، فصاحة ، وبلاغة ، وسلامة نطق فقط[4] من دون أن يلاحظوا سيرورتها بين العرب ، وإنتشارها بين قبائلهم ، وغلبتها على غيرها كونها لغة أقوى مدينة في تلك النواحي ، سياسياً ، ودينياً ، واقتصادياً ، من دون أن يرعوا دور القرآن في التوجيه إلى رعاية تلك اللغة، لأنها لغة وبها نزل كما يخبر صريحه ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾[5] .

هـ ـ اللغة كانت في دور مهمّ عند ظهور النحو العلمي :

وفي ختام هذا الفصل ومن باب إستدعاء الأمور بعضها بعضاً وباب تحصيل

---

(١) بمعنى الاهمال الإرادي المتعمَّد والمقصود لغيرهما من اللغات .

(٢) من أهل مكة والمدينة (المهاجرين والأنصار) عندما سخروا من سلمان ؛ لعدم مقدرته من اللحاق بهم في الفصاحة وجواب النبي ﷺ على ذلك بحديث مشهور مر ذكره ص: ٦١ من هذا الكتاب في الحاشية رقم (٢) وتبعهم في ذلك بعض العلماء راجع ذلك كتب السيرافي ، وأبي الطيب اللغوي ، وابن سلام ، والزبيدي ، والأنباري وابن فارس والعربية ليوهان فك ص: ٥ .

(٣) أغلب المتأخرين والمحدثين يقولون ذلك ، كالسيوطي ، والمبارك ، ودمشقية ، والأفغاني ، وغيرهم كثير .

(٤) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة . ج ١ ص: ٢١٠ ، لترى كيف يحدِّث عن فصاحة قريش والصفحة ١٠٣ من هذا الكتاب .

(٥) سورة الشعراء : ١٩٥/٢٦ ونزل غيرها بمعناها حول عربي تسع آيات أخرى في سورة النحل : ١٠٣/١٦ وفُصلت : ٤٤/٤١ ويُوسف : ٢/١٢ ، والرَّعد : ٣٧/١٣ ، وطه : ١١٣/٢٠ ، والزُّمر : ٢٨/٣٩ ، وفُصلت : ٣/٤١ ، والشُّورى : ٧/٤٢ ، والزُّخرف : ٣/٤٣ .

الحاصل نستطيع الحكم على اللغة[١]، بأنها كانت في مرحلة مهمّة عند نزول الوحي، لمحاكاة القرآن لها في نضجها، ومنطيقيتها، ودقة تعبيرها، وسعتها وسلاسة عباراتها، وبملاحظة أن القرآن نزل بما عندهم ليكون لهم، وليتحدّاهم بفصاحته التي أصبحت المطلق، بالقياس إلى مستواهم فيها، ولذلك نستطيع بوساطة هذا الأثر المتقدِّم، والوحيد، الحكم على اللغة بأنها كانت في مرحلة مهمة قطعت فيها أشواطاً من النضج تجاه الأحسن، والأكمل الذي أصبح نموذجيا مع القرآن ـ ولذا علينا أن ننتبه إلى الفرق بين إنطلاقة العلم النحوي من الصفر علماً ذاتياً مستقلاً بنفسه وبموضوعه، وإنطلاقته من نقطة تعليق السابق الذي وصل إليه بنظم، سمعية، ولفظية، وبصرية، تحفظه وتمنع عنه الفساد اللاحق به. وبذا نردُّ على المحدثين[٢] مقالتهم باستحالة صدور هذا التفكير عن علي، والدؤلي في تلك المرحلة المبكِّرة لأن عملهما بالرغم من كونه إلتماعة فكرية في سماء ذلك الزمن لا يتجاوز عمل رجلين إستنطقا سليقتيهما القرشية، وإعملا نظريتيهما، واستقرأا الواقع الذي غذّته مئات الآلاف من المخيلات، والعقول، والسلائق، والألسنة حتى غدا نموذجاً ساحراً بتعابيره اللفظية الرائعة.

---

(١) طبعاً اللغة تعني اللهجة القرشية وحدها دون غيرها هنا وقارن لبلاشير، تاريخ الأدب العربي ص: ٧٧/١٠٦.

(٢) لم يبق أحد من المحدثين والمعاصرين إلاّ وأدلى بدلوه في هذه المسألة ومنهم: الأفغاني، ومازن المبارك، وأحمد أمين، ومصطفى صادق الرافعي، والزيّات، وبروكلمان، ولشتنشتر من المستشرقين، ودمشقية، وإبراهيم مصطفى وغيرهم من المعاصرين.

الباب الرابع

تاريخ النحو العلمي

الفصــــل الأول

وضــع النحـو[1]

١ ـ أسباب وضع النحو العربي :

مما تقدَّم خلال البحث ، نستطيع أن نتبين أن تأريخ النحو العلمي في نشأته ممكن التسجيل ، لحصوله في مرحلة كانت فيها الأمة قد انتقلت من طور حضاري ، إلى طور آخر أكثر تقدماً ، وانفتاحاً على الحضارة ، وعلى العلوم التي تنتج عنها . وقد دفع إلى هذا التقدم العام ، الحاجات الجديدة التي أوجدها الدين الجديد خلال القرن الأوَّل للهجرة . حيث توجهت الأنظار إلى إنماط علمية جديدة تمكِّن من نشر الدعوة الإسلامية ، وتعميمها ، ونشر الوعي الإسلامي . فكان إحياء العلوم المرتبطة بالدين ، والمعتمدة في قسم كبير منها عليه لحفظ الشخصية الإسلامية ، وتمكينها من الابتعاد عن الترَّهـات ، والأوهام . بحيث تصبح قادرة على تحمُّل أعباء المسؤولية ، بما يتناسب وطبيعة التحضُّر الإنساني ، وبحيث يتمكَّن المسلمون من ترجمة غـاية الإسلام الحقيقية بخروجهم من « الظلمات إلى النور »[2] بمقارنة ﴿ **الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[3] .

ومع عودتنا إلى تاريخ النحو ، وهو الرائد في تلك العلوم الأولى التي ظهرت في صدر الإسلام ، بل هو أهم تلك العلوم مجتمعة ، يمكننا أن نـلاحظ أن هنالك أسباباً دعت إلى ظهوره ، ووجوده علماً مستقلاً بذاته ، واضحاً بحدوده . بعـد أن

---

(١) الصفحات ٣١ ـ ٤١ من هذا الكتاب .

(٢) ذلك صدى الآية من سورة البقرة : ٢٥٧/٢ .

(٣) ذلك صدى الآية من سورة الزمر : ٣٩/٩ .

كانت ممارسته مقتصرة على حدود السليقة ، والعادة . يدلنا على ذلك الروايات التي تحدثت عن بدايات النحو الأولى[1] كما تدلنا عليه تلك الأخبار التي سجلت اللحن ، واهتم البحث بنقلها ، وتوزيعها على أقسام اللحن ، وأنواعه ودرجاته من حيث الخطورة . بما آل إليه البحث من نتائج[2] .

إذ باستعراضنا لهذه الروايات يمكننا ملاحظة الأسباب الحقيقة ، والصحيحة التي دعت إلى وضع النحو علماً ذا حدود مرسومة معينة ، عبر عرضها وتقسيمها إلى أقسامها التي تتوزع عليها بحسب الترتيب الزمني ، والتطابق في الخبر ، بتأييد الواحدة لمضمون الأخرى ، إما بنقل المتأخر عن المتقدِّم ، وإما بتوافق الروايتين مع اختلاف السند . مما يؤكد الرواية لمجيئها على أكثر من لسان ، وإما باعتبار الشخصية التي ترويها ، وباعتبار مناقبيتها في الرواية ، والأمانة العلمية وعليه نرى :

مع ابن سلام المتوفى (+ ٢٣٢ هـ) ، وهو صاحب أقدم رواية تحدَّثت عن الموضوع قوله : « قال ذلك حينما أضطرب كلام العرب . . . وكان سُراة الناس يلحنون ، فوضع باب الفاعل ، والمفعول به »[3] . حيث نلاحظ أن الجمحي ، يعيد السبب إلى فساد كلام العرب ، ولحن وجوههم ، وخاصتهم . دون أن يعين زمان ، أو مكان ، أو نوع ذلك اللحن ؟ ألغوي ، أم قرآني ؟ .

ومع ابن قتيبة المتوفى (+ ٢٧٦ هـ) تطالعنا ترجمته لأبي الأسود بأخبار يفهم منها مشاركته في العمل النحوي من دون أن يحدِّد ذلك الدور بحجمه الذي كان عليه حيث يقول : « هو ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان بن كنانة وهو يُعدُّ في الشعراء ، والتابعيين ، والمحدثين ، والبخلاء ، والمفاليج ، والنحويين لأنه أول من عمل في النحو كتاباً »[4] . . .

---

(١) راجع الصفحات ٨١ ـ ٨٧ من هذا الكتاب .

(٢) الصفحات ٦٦ ـ ٨١ من هذا الكتاب .

(٣) ابن سلاَّم ، طبقات الشعراء ، ص: ٩ ـ ١٠ مر ذكر الرواية والتعريف به ص: ٨١ من هذا الكتاب . وسنكتفي بتعيين أمكنة وجود الروايات دون سردها تجنباً للتطويل خاصة أنها ذكرت في أغلب الكتب المهتمة بالموضوع فضلاً عن اكتفائنا بخلاصتها .

(٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ج ٢ ص: ٧٠٧ وراجع في ترجمته الصفحة ٨١ من هذا الكتاب .

ومع المبرِّد المتوفى (٢٨٥ هـ) نلاحظ أن أبا العباس يخص أبا الأسود بعد حديثه عنه بأنه « أول من وضع العربية ، ونقط المصاحف أبو الأسود ظالم بن عمرو[١] كما ينص على أخذه عن علي بقوله : سئل أبو الأسود الدؤلي عمن فتح له الطريق إلى الوضع في النحو وأرشده إليه » فقال : تلقيته من علي بن أبي طالب وفي حديث آخر : ألقى علي أصولاً احتذيت عليها[٢] .

ومع أبي الطيب اللغوي المتوفى (+ ٣٥١ هـ)[٣] تطالعنا عدة أخبار يصدِّرها برأيه عن السبب الداعي إلى وضع النحو بقوله : « واعلم أن أول ما اختل في كلام العرب ، فأحوج إلى التعلّم ، الإعراب لأن اللحن ظهر في كلام الموالي أو المتعربين من عهد النبي ﷺ[٤] » . ثم يسوق عن لسان النبي ﷺ[٥] ولسان أبي بكر[٦] ، ولسان عمر[٧] ، عدة أحاديث تؤكد وجود اللحن في أيامهم ، ثم ينقل خبر أخذ الدؤلي عن علي بعد سماعه اللحن ، وطلب علي إليه وضع الحروف للناس في الرفع ، والنصب ، والجر ، من دون أن يشيع أبو الأسود ذلك . وكأنه يريد أن يقول : إن هنالك فرقاً بين نشوء العلم وظهوره ، وبين نشره بين الناس . ولذلك يتابع سرد ما يؤكد هذه الفكرة ، مشيراً إلى مدافعة الدؤلي لرجل لحن في كلامه في حضرة زياد بن أبيه بقوله خطأ : « سقطت عصاي » وإلى تبرمه من لحن رجل آخر لحن بقراءة الآية الكريمة : ﴿ إن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾ بكسر لام رسوله بدل ضمها . مما حدا به إلى رسم النحو ، ونشره على الناس بدليل تعلّم غلام عليه سأله الدؤلي عن أبيه المصاب بالحمى . ويتابع اللغوي تعداد مواضع اللحن التي حدثت أمام أبي

---

(١) قارن هذا برواية القالي التي نقلها الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين ص: ١٣ وراجع فيه الصفحة ٨٢ من هذا الكتاب في الحاشية .
(٢) المصدر السابق نفسه ، والصفحة نفسها ، والراوية نفسه .
(٣) التعريف به وبروايته حاشية الصفحة ٨١ من هذا الكتاب .
(٤) أبو الطيِّب اللغوي ، مراتب النحويين ، ص: ٥ ـ ١١ .
(٥) الصفحة ٤٧ من هذا الكتاب فقد مر ذكر الحديثين فيها .
(٦) الصفحة ٧٠ من هذا الكتاب فقد مر الحديث فيها .
(٧) الصفحة ٧١ من هذا الكتاب . فقد مر ذكر الحديث فيها .

الأسود كما يشير إلى طلب زياد منه ؛ وضع علم العربية (لمعرفته بما لديه) ، لأن أولاده كانوا يلحنون . ويرفض الدؤلي لكرهه زياداً »[1] . إلا أنه يستجيب لاحقاً بعد استماعه إلى اللحن في الآية من سورة براءة[2] حيث يطلب من زياد كاتباً ويكون نقط القرآن .

ومع السيرافي المتوفي (+ ٣٦٨ هـ)[3] نلاحظ أن ما نقله أبو سعيد يتمِّم ما جاء به أبو الطيب اللغوي، من دون أن يضع رأياً خاصاً لنفسه. لأنه يتبنى ما جاء به، فهو يؤكد أخذ الدؤلي عن علي من غير أن يُخرج ذلك إلى أحد من الناس. إلى أن راسله زياد وطلب إليه أن ينفع الناس بالنحو ويعرب القرآن. كما يؤكد استعفاء الدؤلي من ذلك إلى استماعه للآية من سورة التوبة. حيث يعود إلى زياد ليسأله إيجاد كاتب له لينقط القرآن. كما يسوق رواية تعيد الأمر بوضع النحو إلى عبيد الله بن زياد[4] . وأخرى تعيد الأمر نفسه إلى أبيه ، وهي لحن الأولاد الذين شكوا موت أبيهم بعبارة « توفي أبانا وترك بنون »،[5] وأخرى تعيد السبب إلى جواب رجل فارسي أسمه سعد رداً على سؤال أبي الأسود له[6] ، ورواية أخرى تعيد السبب إلى خطأ أحدثته أبنة أبي الأسود[7] ، وأخرى تعيد السبب إلى جواب التلميذ عن أبيه المحموم .

أما مع الزبيدي المتوفي (+ ٣٧٩ هـ)[8] فنحن نجده يؤيد كلام ابن سلام ، وابن قتيبة ، والمبرِّد ، واللغوي ، السيرافي ، بقوله عن الدؤلي : « هو أول من أسَّس العربية ، ونهج سبلها ، ووضع قياسها وذلك حين أضطرب كلام العرب ، وصار سراة

---

(١) بعد أن كان والياً لعلي وتركه إثر مقتله ، والتحق بمعاوية ليصبح والياً له على العراق (البصرة والكوفة) .

(٢) مرت في السطر الأخير من الصفحة السابقة .

(٣) حاشية الصفحة ٨٢ من هذا الكتاب حيث التعريف به وبروايته .

(٤) عبيد الله بن زياد بن أبيه والي خراسان ، يلقب بابن مرجانة وهو قاتل الحسين توفي ٦٧ هـ وراجع فيه الأعلام ج ٤ ص ١٩٣ .

(٥) تقدم الحديث عن هذه الرواية راجع الصفحة ٧٣ من هذا الكتاب .

(٦) تقدم الحديث عن هذه الرواية راجع الصفحة ٧٣ من هذا الكتاب .

(٧) تقدم الحديث عن هذه الرواية راجع الصفحة ٧٣ من هذا الكتاب .

(٨) التعريف به وبروايته حاشية الصفحة ٨٢ من هذا الكتاب .

الناس ، ووجوههم يلحنون . فوضع باب الفاعل ، والمفعول به ، والمضاف وحروف النصب ، والرفع ، والجر ،(1) ثم يسوق خبره مع إبنته(2)، ثم خبره مع زياد و استئذانه منه ، ورفض زياد ثم قبوله بعد حادثة توفي أبانا . . . الآنفة الذكر(3) ثم رواية تعيد السبب إلى مرور سعد الفارسي بالدؤلي (4) ، ثم رواية أخرى تعيده إلى الغلام الذي حدّث عن أبيه المحموم (5) .

أما مع ابن النديم المتوفي (+385هـ)(6) فتطالعنا الروايات بما يؤكد الروايات السابقة عند ابن سلاّم ، وابن قتيبة ، والمبرِّد ، واللغوي ، والسيرافي ، والزبيدي في أخذ الدؤلي عن علي ، وعدم إخراجه لشيء من علمه إلى أن راسله زياد حيث يستعفيه أبو الأسود ، فتكون حادثة الآية ، ويستجيب فيطلب الكاتب من زياد ، ثم ينقط القرآن(7) كما يسوق خبراً آخر هو خبره مع سعد الفارسي (8) سبباً من أسباب وضع النحو .

ومع الأزهري تطالعنا روايته التي نقلها عن صاحب اللسان وفيها : « بلغنا أن أبا الأسود وضع وجوه العربية وقال للناس أنحوا نحوه »(9) .

ومع ابن فارس يطالعنا قوله الذي اعتمد فيه على روايات عدّة لم يسردها والذي يقول فيه : « قد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية . . . »(10).

---

(1) الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ص 13 .
(2) م . ن . ، ص 14 .
(3) م . ن . ، ص 14 .
(4) م . ن . ، ص 15 .
(5) م . ن . ، ص 16 .
(6) حاشية الصفحة   من هذا الكتاب حيث التعريف به وبروايته .
(7) ابن النديم ، **الفهرست** ، ط 1978 ص 60 .
(8) ابن النديم ، م . ن . والصفحة نفسها .
(9) التعريف به في حاشية 82 من هذا الكتاب ، وبروايته ، **لسان العرب** ج 15 ص 310 .
(10) التعريف به في حاشية 82 من هذا الكتاب وبروايته ، **الصاحبي في فقه اللغة** ص 10 .

ومع ابن عساكر تطالعنا روايته أثناء حديث طويل عن أبي الأسود ونسبه وتشيُّعه ، فيورد فيه « أنه هو من تكلم في النحو عن لسان الواقدي ، ثم ينقل عن السيرافي اختلاف الناس في أول من وضع النحو عند قوله : فقال قائلون أبو الأسود وقال آخرون نصر بن عاصم ، وقال آخرون عبد الرحمن بن هرمز ، وأكثر الناس على أن الواضع له أبو الأسود »[1]، ثم يذكر روايات إبن سلام ، واللغوي ، والسيرافي ، والإنباري وما فيها من أخذ عن علي .

ويطالعنا الإنباري[2] المتوفي (٥٧٧٠ هـ) برواية مفادها أن الدؤلي دخل على الإمام علي ليجد في يده رقعة فيها أصول النحو ، ليناوله علي إياها طالباً إليه النسج على منوالها لفساد ألسنة الناس. فيكون النحو ، ثم يسوق أخرى مفادها أن علياً سمع أعرابياً يقرأ ﴿لا يأكله إلاَّ الخاطئين﴾[3] ، فوضع أصول النحو . ثم يسوق رواية مجيء الأعرابي أيام عمر ، وقصة قراءته للآية من سورة براءة (أو التوبة) ، كما يسوقها نفسها أنها حدثت مع زياد بن أبيه ، وأبي الأسود بما يوافق الروايات السابقة في ذلك ويتمم ما رواه ابن سلام ، وابن قتيبة ، والمبرِّد واللغوي ، والسيرافي ، والزبيدي ، وابن النديم ، والأزهري ، وابن فارس ، وابن عساكر ، ويزيد عليها أن زياداً هو الذي دعا الدؤلي ، ورفض الأخير ، مما دعا زياداً إلى وضع رجل في طريق الدؤلي تعمَّد اللحن في قراءة الآية من سورة التوبة ، بحيث يعود بعدها الدؤلي إلى زياد طالباً للكاتب. فكان الاختيار من بين ثلاثين كاتباً ، وكان نقط المصحف بصباغ أحمر مختلف عن اللون الأصلي .

كما يسوق رواية أخرى فيها طلب الدؤلي من زياد بن أبيه الإذن بوضع النحو ، معلِّقاً على رفض الأخير لطلب أبي الأسود ، ثم سماحه له بعد حادثة « توفي أبانا » ثم

---

(١) التعريف به في حاشية ٨٣ من هذا الكتاب ، وبروايته تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ١١٠ .

(٢) حاشية الصفحة ٨٣ من هذا الكتاب حيث التعريف به وبروايته .

(٣) سورة الحاقة ٣٧/٦٩ (والصواب الخاطئون) .

يورد رواية أخرى مفادها تعجب إبنة الدؤلي من السماء[1].

ومع ياقوت الحموي المتوفي (+ ٦٢٦ هـ)[2]. يطالعنا طلب الدؤلي من زياد الإذن بوضع النحو ، حيث يرفض الأخير ، ثم يستجيب له بعد حادثة « توفي أبانا » ثم كان وضع النحو ، (كما يعلق ياقوت) .

ومع القفطي المتوفي (٦٤٦٠ هـ)[3] نرى رواية تؤكّد روايـة الأنباري الأولى ، وأخرى ترويها بصورة ثانية ، ثم يسوق رواية زياد مع الدؤلي بصورة تتفق ما مرّ عنـد ابن سلام ، وابن قتيبة ، والمبرِّد ، واللغوي ، والسيرافي ، وابن النديم ، والأزهري ، وابن فارس ، وابن عساكر ، حيث يطلب زياد من الدؤلي ويستعفي ، إلى حين يسمـع قراءة آية سورة التوبـة حيث استجاب ، وطلب كـاتباً لقنـاً علّمه مـا يطلب ، ثم نقط القرآن ، كما يذكر رواية سعد الفارسي مع الدؤلي[4].

ومع ابن خلدون المتوفي (+ ٨٠٨ هـ) نرى قوله : « . . . وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة ويقال بإشارة علي . . . »[5].

ومع الحافظ ابن حجر صاحب « الإصابة » تطالعنا روايته بما يوافق ما تقدّم من أمر الروايات الآنفة الذكر حيث يقول : « أول من وضع العربية ، ونقط المصاحف ، أبو الأسود ، وسئل عمن نهج له الطريق ، فقال له تلقيته عن علي »[6].

ومع السيوطي المتوفي (+ ٩١١ هـ) نري عبارته بعـد التعريف بـاسم الدؤلي وشخصه : « وهو أول من أسّس النحو ، وهو أول من نقط المصحف »[7].

---

(١) الأنباري نزهة الالبّاء ، ص ١٧ ـ ٢٢ ، حيث الروايات الآنفة الذكر .

(٢) راجع حاشية الصفحة ٨٣ حيث التعريف به وبشخصه وبروايته .

(٣) راجع حاشية الصفحة ٨٣ حيث التعريف به وبشخصه وبروايته .

(٤) الإنباري ، نزهة الالباء ص ٢٠ .

(٥) ابن خلدون، المقدمة ، ص ٥٤٦ .

(٦) ابن حجر ، احمد بن علي ، الإصابة في تمييز الصحابة ، ج ٢ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

(٧) السيوطي ، بغية الوعاة ، ج ٢ ص ٢٢ .

ومع البغدادي المتوفي (+ ١٠٩٣ هـ) نراه بعد التعريف باسمه ونسبه يقول فيه : « وهو واضع علم النحو بتعليم علي ، وكان من وجوه شيعته ، واستعمله على البصرة بعد ابن عباس . . . »(١).

وانطلاقاً من هذه الروايات مجتمعة . يمكننا النفاذ عبر استعراضها ومقارنتها بعضها ببعض إلى خلاصة من الحقائق الموضوعية والمتعلّقة بأسباب وضع النحو حيث يمكننا حصرها في عشرة أسباب هي :

١ ـ خبر الإضطراب في كلام العرب.

٢ ـ خبر قراءة آية : « لا يأكله إلاّ الخاطئين »(٢) بنصب الخاطئين بالياء بدل رفعها بالواو.

٣ ـ خبر قراءة آية : « إن الله بريء من المشركين ورسوله »(٣) بالجر عند لام رسوله بدل الرفع . وهذا الخبر رُوي بثلاثة أشكال : مرة بطلب زياد إلى الدؤلي ورفض الأخير ، ثم استجابته بعد سماع الآية ، وثانية : بطلب الدؤلي ورفض زياد ، ثم استجابته بعد الآية نفسها ، وثالثة مع الخليفة عمر(٤).

٤ ـ خبر سقطت «عصاتي» بدل عصاي .

٥ ـ خبر زياد مع رجل شكا إليه موت أبيه .

٦ ـ خبر ابن زياد مع الرجل الذي حدّث عن موت أبيه(٧).

٧ ـ خبر الدؤلي مع سعد الفارسي ، والفرس الظالع .

---

(١) البغدادي ، عبد القادر بن عمر ، خزانة الأدب ، ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) سورة الحاقة ٦٩/٣٧ .

(٣) سورة التوبة ٩/٢.

(٤) نسبت العملية إلى الخليفة عمر وهذا خطأ تاريخي فادح ، لأن الدؤلي سكن العراق منذ خلافة عمر ولم يزر المدينة أبداً ، ولم يزر عمر العراق أو البصرة حيث الدؤلي ، ولم يلتقيا ، علماً أن العملية نفسها تسند إلى غيره بإجماع المؤرخين وأهل الأدب والاختصاص ، ولذا ينبغي التنبه إلى هذا الأمر وتصحيحه .

٨ ـ خبر الدؤلي مع الغلام الذي حدَّث عن مرض أبيه بالحمى .

٩ ـ خبر الدؤلي مع ابنته .

١٠ ـ خبر مخالطة الأعاجم .

إن التأمل في هذه الأخبار ، التي أجمع الدارسـون من المتقدمين على عـدِّها أسباب وضع النحو ، إضافة إلى التأمـل في الروايات التي نقلت هذه الأخبـار لنا ، يفضي بنا ، باعتماد طريقة إسنادها ، إلى بعض النتائج المطمئنة عن أسباب وضـع النحو علماً ، من خلال مقارنتها ، إذ أن هذه الروايات ليست على درجـة واحدة من الصدق ، والأمانة ، والدقة في النقل ، والمنهجية العلمية في التعبير ، ولذا نشير إلى أن هذه الروايات تنقسم وفق هذا المنظور إلى أسسها ، إلى قسمين :

١ ـ روايات متفقة .

٢ ـ روايات مختلفة .

وهذان القسمان يتوزعان بدورهما على أشكال أربعة هي[1] :

١ ـ الروايات المتُّفقة بنقل الخبر بالإسناد أي برفع الخبر .

٢ ـ الروايات المتَّفقة بنقل الخبر والمختلفة بالإسناد .

٣ ـ الروايات المختلفة بنقل الخبر والمتُّفقة بالإسناد .

٤ ـ الروايات المختلفة بنقل الخبر والمختلفة بالإسناد .

ولذا يكون الحكم على هذه الروايات كالتالي :

١ ـ مع الرقم واحد بأنها جيدة تفيدنا أخذ المتأخر عن المتقدم .

٢ ـ مع الرقم إثنين بأنها أجود وأقوى لتأكيدها على أكثر من لسـان ، وأكثر من راوية واحد .

---

(١) هذا العمل دراسة خاصة ، أفضى إليها طول التأمل والمراقبة ، واعتماد الاستقراء ليس إلاّ . وإن كانت في طريقتها تشبه طريقة و الأحاديث النبوية ، وما يرافقها من علوم .

٣ ـ ومع الرقم ثلاثة بأنها غير موجودة في الخبر النحوي نفسه ، لأنه يستحيل أن يحدِّث الراوية نفسه الحديث نفسه بشكلين بصورة متعمدة .

٤ ـ ومع الرقم أربعة بأننا نأخذ الرواية الأقوى سنداً الموثَّقة عبر شخصية صاحبها ، ووثاقته المشهورة في نقل الأخبار ، أو عكس ذلك .

وعليه يمكن أن نسمِّي الواحدة من هذه الروايات باسم ، أو بأكثر من الأسماء التالية في آن معاً ، فهي رواية : مرفوعة ، أو غير مرفوعة ، أُحادية والصفتان الأخيرتان للتجريح لا التعديل ، كما هي الحال بالنسبة إلى الأولى .

ومن خلال مقارنة الروايات الواردة في وضع النحو[1]، وباعتماد المقياس الآنف الذكر[2]. يمكننا ملاحظة الأمور المنهجية التالية في الأخبار العشرة التي حصرت فيها أسباب وضع النحو :

١ ـ مع الخبر ، أو السبب الأوَّل نلاحظ أنه ورد غير مرفوع في روايات ثلاثة هم : ابن سلام ، والقفطي ، والزبيدي[3] .

٢ ـ ومع الخبر ، أو السبب الثاني نلاحظ أنه ورد برواية مفردة غير مرفوعة ، عند الإنباري دون غيره .

٣ ـ ومع السبب الثالث نلاحظ أنه ورد بست روايات ، منها أربع مرفوعات[4] .

٤ ـ ومع السبب الرابع نلاحظ أنه ورد برواية واحدة مرفوعة مفردة عنده دون غيره[5] .

---

(١) راجع الصفحات ٨٣ ـ ١٢٠ من هذا الكتاب .

(٢) الصفحة من هذا الكتاب .

(٣) ابن سلام طبقات الشعراء ص ٩ وللزبيدي ، طبقات النحويين ص ١٣ ، وللقفطي ، إنباه الرواة ج ١ ص ٤ و ٥ .

(٤) الأنباري ، نزهة الالباء ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، مكتبة الأندلس ص ١٩ سطر ١٣ .

(٥) راجع لأبي الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ، ص ٨ وللسيرافي ، أخبار النحويين البصريين ص ١٦ ، ولابن النديم الفهرست ص ٦٠ ، وللأنباري ، نزهة الالباء ص ١٩ و ٢٠ وللقفطي ، إنباه الرواة ج ٥١ .

٥ ـ ومع السبب الخامس نلاحظ أنه ورد بثلاث روايات مرفوعة[١].

٦ ـ ومع السبب السادس نلاحظ أنه ورد بروايتين : واحدة مفردة غير مرفوعة عند اللغوي ، وأخرى مفردة مرفوعة عند السيرافي .

٧ ـ ومع السبب السابع نلاحظ أنه ورد بأربع روايات : ورد بروايتين مرفوعتين ، مع الزبيدي ، وابن النديم[٢] ، وورد بروايتين غير مرفوعتين مع السيرافي ، والقفطي .

٨ ـ ومع السبب الثامن نلاحظ أنه ورد بثلاث روايات : واحدة مرفوعة مع اللغوي ، وأخريين غير مرفوعتين مع السيرافي ، والزبيدي[٣].

٩ ـ ومع السبب التاسع نلاحظ أنه ورد برواية واحدة غير مرفوعة مع السيرافي[٤].

١٠ ـ ومع السبب العاشر نلاحظ أنه ورد بروايتين غير مرفوعتين عند الأنباري ، واللغوي[٥] .

وهنا وباعتمادنا مفهوم الروايات المتقدم[٦] ، بمراعاة أخذ المتأخّر عن المتقدّم وباستجادة الرواية المروية على أكثر من لسان ، وأكثر من سند ، وباعتماد السند الأقوى ، ووثاقة العلماء الناقلين لهذه الأخبار ، ومكاناتهم في العلم معروفة لا تزاحم من ابن سلام ، وابن قتيبة ، والمبرد ، واللغوي ، والسيرافي ، وابن فارس ، وابن

---

(١) أبو الطيب اللغوي مراتب النحويين ص ٨ .
(٢) السيرافي أخبار النحويين البصريين ، ص ١٧ ، ونزهة الألباء ص ٢١ ومعجم الأدباء ج ١٢ ص ٣٤ .
(٣) اللغوي ، مراتب النحويين ص ٨ والسيرافي اخبار النحويين البصريين ص ١٧ .
(٤) الزبيدي الطبقات ص ٢١٥ ولابن النديم الفهرست ص ٦٠ والسيرافي أخبار النحويين ص ١٨ وللقفطي الانباه ص ٦ .
(٥) اللغوي مراتب النحويين ص ٩ والسيرافي أخبار النحويين ص ١٩ والزبيدي الطبقات ص ١٦ .
(٦) الصفحة ١٢١ وما بعدها من هذا الكتاب .

عساكر ، والزبيدي وابن النديم ، الإنباري ، وياقوت ، والقفطي ، والسيوطي[1] . وبالاعتماد على تلاقيهم في نقلهم للأخبار على الرغم من تباعدهم وتنازحهم ، داراً ، وعهداً[2] . نستطيع أن تركن إلى النتائج التالية مع الأسباب العشرة الداعية إلى وضع علم النحو[3] .

إن الاطمئنان أكثر ما يكون عند الخبر الثالث حيث تتوافر له ست روايات كسبب لوضع النحو منها أربع مرفوعة ، ثلاث منها متّفقة السند ، وواحدة مختلفة السند عنها مما يزيده قوة وجودة لوروده على أكثر من لسان[4] . وعليه يمنح هذا الخبر المرتبة الأولى في التسبب بوضع النحو .

ويليه مرتبة الخبر الخامس حيث يرد بثلاث روايات مرفوعة متفقة السند ولذا يمنح هذا السبب المرتبة الثانية لأنه جيد بعد الأجود .

ويليه في المرتبة الثالثة السبب السابع ، إذ تتوافر له أربع روايات منها إثنتان مرفوعتان مختلفتا السند مما يزيده قوة ويرتبه في هذه المرتبة .

ويليه في المرتبة الرابعة السبب الثامن لوروده في ثلاث روايات منها واحدة مرفوعة فقط .

---

(١) راجع في هؤلاء الأعلام جميعاً حاشيتي الصفحتين ٨١ ـ ٨٣ من هذا الكتاب حيث التعريف بهم وبرواياتهم .

(٢) فبينما نرى أن ابن سلام ولد بالبصرة ومات ببغداد عام ٢٣٢ هـ ونرى ابن قتيبة المولود والمتوفى ببغداد عام ٢٧٦ هـ والمبرِّد البصري المولود والبغدادي الوفاة عام ٢٨٦ هـ واللغوي ابن حلب حيث قتل عام ٣٥١ هـ والسيرافي فارسي درس في عمان وتوفي ببغداد عام ٣٦٨ هـ ويضرب المثل به لعفته ، وكذلك الزبيدي الأندلسي المولد والوفاة عام ٣٧٩ هـ وابن النديم الموثوق بائع الكتب ببغداد والمتوفى فيها عام ٣٨٥ والأنباري ساكن بغداد الزاهد العفيف المتوفي ٥٧٧ هـ وهكذا ياقوت المؤرخ المشهور المتوفى ببغداد عام ٦٢٦ هـ والقفطي المصري المتوفي بحلب وهو الشريف الزاهد المتوفي عام ٦٤٦ هـ والسيوطي الذي اعتزل الناس وسكن قرب النيل حيث توفي عام ٩١١ هـ .

(٣) راجع في الروايات الصفحتين ١١٩ ـ ١٢٠ من هذا الكتاب .

(٤) راجع في الروايات الصفحتين ١٢٢ ـ ١٢٣ من البحث وقد تجنبت ذكر السند لعدم الإطالة فليطلب في مكانه .

ويليه في المرتبة الخامسة السبب العاشر لوروده بروايتين غير مرفوعتين (ونحن نستطيع بدءاً بهذا السبب ، إهمال الأسباب الباقية إذا أردنا التشدُّد في عملية رفع الروايات بالرغم من ثقتنا التامة بروايات هؤلاء الأعلام الذين نقلوا الخبر كما وصل إليهم) .

ويليه في المرتبة السادسة الخبر السادس لوروده بروايتين مفردتين أو أحاديتين كما اصطلحنا (إن كانت واحدة منهما مرفوعة) لغلبة التفرُّد الرفع .

ويليه في المرتبة السابعة الخبر الرابع لوروده برواية « أحادية » مرفوعة .

ويليه في المرتبة الثامنة الخبران : الثاني ، والتاسع لورودهما بروايتين أحاديتين غير مرفوعتين .

وعليه نستطيع القول إن معرفة السبب في وضع النحو أمر بالغ التعقيد والصعوبة ، ولكنه ليس مستحيلاً[1] . فباعتماد المنهج الذي سار عليه البحث في الكشف عن الموضوع من خلال المقارنات ، واستقراء الروايات للوصول إلى النتيجة الحاصلة . يمكننا الإقرار بحقيقة ثابتة هي دور الدؤلي في الموضوع الذي لا يزعزعه شك، لأن الروايات كلها تنص على هذا الدور ، ثم التقدُّم نحو حصر السبب بواحد من الأربعة المرفوعة المسندة ، وهي الأسباب ذوات الأرقام ثلاثة ، وخمسة وسبعة ، وثمانية ، ثم الميل إلى حقيقة انحصار السبب أيضاً بواحد من إثنين من الأسباب الآنفة الذكر وهما السببان : الثالث والخامس لقوَّة سند الأوَّل وشهرته على غيره[2].

---

(١) كما يدّعي بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي ، ج ٢ ص ١٢٨ . حيث ينفي دور الدؤلي وتلامذته ولا يرضى بالتاريخ الصحيح إلّا مع أساتذة الخليل وسيبويه ناسياً أن ما لم يصلنا من وثائق لا يعني عدم وجودها ، ومن العرب أحمد أمين في ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢٨٥ حيث « يرى أن تاريخ النحو في منشئه غامض كل الغموض ، فإنّا نرى فجأة كتاباً ضخماً هو كتاب سيبويه ولا نرى قبله ما يصح أن يكون نواة » . . متناسياً كل المراحل السابقة .

(٢) وله من الأسباب غير ذلك فأبو الأسود علَّم أولاد زياد لأنهم كانوا يلحنون ولمعرفة أبيهم بأمر علمه الذي أخذه عن علي ، وزياد يعلم أمر هذا العلم الذي منعه الدؤلي عن العامة أولاً ولذا استعان به وهو أمير عليه إذ كان من ساكني البصرة ، درءاً لخطره إذ هو من محبّي علي وتلاميذه وزياد يتشدَّد على هؤلاء الشيعة إلى ما هنالك مما مرّ من أمور في متن الكتاب .

عند كافة العلماء المتقدمين ، والمتأخرين . بينما اكتفى الثاني . بإسناد الخبر إلى الرواية نفسه في الروايات الثلاث ، مما يدلنا على أخذ اللاحق عن السابق ، واعتماد الثلاثة على المصدر نفسه ، مما يوهِّن هذا الخبر الأول (أي الثالث في الترقيم العام ، بالنسبة إلى رفيقه كونهما البقية المتحدَّث عنهما) الوارد عبر ست روايات أربع منها مرفوعة ، في واحدة منها اختلاف في السند .

على أننا نستطيع من خلال التعامل مع هذه الروايات(1) بالإضافة إلى روايات اللحن(2) . أن نلاحظ شيئاً مهماً ـ يؤيد النتيجة التي انتهى إليها البحث ـ وهو وجود اللحن في الجاهلية(3) . من دون أن يدعو هذا الأمر إلى إيجاد العلم ، وقل الأمر نفسه إسلامياً . حيث يشير النبي على من حضر من الصحابة بوجوب إرشاد اللاحن عند لحنه بالقرآن لأن ذلك ضلال(4) ، ولم يُوجد هذا علماً ، ثم ينضج العمل أكثر مع أبي بكر أيام العهد الراشدي حيث يجمع القرآن في كتاب واحد إثر موقعة اليمامة ، وموت القراء(5) . وهكذا مع الخليفة عمر ، حيث يأمر بعدم إقراء القرآن إلا من قبل العلماء(6) . ثم مع عثمان ، حيث يُنسخ القرآن على حرف واحد ، لإبقائه خارج دائرة الفساد(7) . ثم مع علي في عهده ، أو في العهود السابقة لوجوده فيها ، وللقناعة الراسخة بعدم إمكان سكوته عن تلك اللحون من دون أن يحرِّك ساكناً . ولذا كان دوره مع الدؤلي على ما حدثتنا به الروايات(8) ممهداً لما جاء بعدهما من أعمال أسهمت في إنشاء البناء النحوي التام . وبذلك يصبح عملهما نقطة البداية لوضع علم

---

(1) عنينا بها روايات وضع النحو ، راجع الصفحات ١١٣ ـ ١٢٥ من هذا الكتاب .

(2) عنينا بها روايات اللحن الوارد ذكرها راجع الصفحات ٦٦ ـ ٨١ من هذا الكتاب .

(3) الصفحات ٥١ ـ ٥٧ من هذا الكتاب والصفحات ٦٨ ـ ٦٩ .

(4) الصفحتان ٤٧ و ٧٠ من هذا الكتاب الأولى في المتن ، والثانية في الحاشية .

(5) الصفحة ٩٦ من هذا الكتاب .

(6) الأنباري ، نزهة الألباء ، ص ٢٠ وانظر حاشية ص ٧١ من هذا الكتاب .

(7) الصفحة ٧١ من هذا الكتاب وكذلك الصفحة .

(8) الصفحة ٨٢ من هذا الكتاب . والتي بعدها في الحاشية حيث الروايات ومعالجتها وهذا مما يرد على المحدثين مقالتهم ومنهم أحمد أمين في ضحى الإسلام ، وإبراهيم مصطفى في إحياء النحو ، وسعيد الأفغاني في أصول النحو ، وشوقي ضيف في المدارس النحوية . حيث =

النحو . الذي يجب أن يُفرِّق بين تاريخ وضعه علماً ، مع علي ، والدؤلي وتاريخ نشره علماً مع أبي الأسود ، وزياد . إذ باعتماد قراءة ما بين السطور نستطيع النفاذ إلى حقيقة مؤدَّاها أن الدؤلي امتنع عن نشر ما انتهى إليه مع علي لعدم الحاجة إلى ذلك في المرحلة الأولى كتابة ، وأكتفى بإقراء القرآن ، وبالتوجيه النحوي الشفهي بدليل دراسة ذلك الغلام عليه ، وأخذه عنه حيث حدَّثه عن أبيه المحموم ، وعلَّق أبو الأسود على هذا الحديث موجهاً فتاه إلى التعبير اللغوي الأسلم ، والأصح . وبدليل روايات اللحن التي وزعها البحث على المكان[1] ، والموضوع[2] ، والدرجات[3] . حيث نرى بداية دخول اللحن إلى البادية ، وانتشاره في الحضر ، وكثرته في اللغوي الصرف ، وقلَّته في اللغوي القرآني في المرحلة الأولى من حياة النبي ، وإبَّان العهد الراشدي ثم انتشاره مع العصر الأموي . مما يدل على دور القرآن المهم ، والأساسي في وضع علم النحو ، فضلاً عن دلالة درجات اللحن في الجاهلية ، والإسلام ، والعهد الراشدي ، والعهد الأموي ، على صحة موضوع بدايات نشر النحو علماً مع الدؤلي ، وزياد فبينما كانت اللحون في الجاهلية في خمسة منها من الدرجة الرابعة ، واثنين منها من الدرجة الأولى[4] ، أصبحت مع العصر الأموي تناهز ـ بما تمكَّن البحث من إيراده من روايات ، لأن هذا الإيراد كان للتمثُّل لا الحصر ، وإلا فإن الأخطاء التي نقلتها الروايات أكثر بكثير من هذا العدد ـ خمسة عشر خطأً من الدرجة الأولى الأشد خطراً ، والتي كانت السبب في وضع النحو ، بينما لم تتجاوز الثلاثة أخطاء مع الدرجات الثانية ، والثالثة ، والرابعة كل لحن على درجة من هذه الدرجات الثلاث[5] .

= ينكرون على علي دون سند إلا الظن والحجج العقلية غير المدعومة بالوثائق . وراجع في هذا الأمر الصفحات ١٦٤ ـ ١٧٤ من هذا الكتاب .

(١) الصفحة ٧٦ من هذا الكتاب .

(٢) الصفحة ٧٩ من هذا الكتاب .

(٣) درجات اللحن في الصفحة ٦٧ من هذا الكتاب .

(٤) درجات اللحن في الصفحة ٦٨ من هذا الكتاب .

(٥) نستطيع أن ننشأ من ذلك جدولاً مفصلاً ، ولكننا تجنبنا التكرار بعد أن فصَّلناها سابقاً راجع الصفحات ٧٢ ـ ٧٦ من هذا الكتاب .

هذه هي النتيجة العلمية المنهجية والمنطقية المرتبطة بالوثائق الواجبة الاتباع في موضوع أسباب وضع علم النحو . مع الإشارة إلى قدرتنا على الجمع بين روايات وضع النحو عبر أسبابها المتقدمة الذكر ، من دون أي تناقض باعتماد قراءة ما بين السطور ، واستقراء الروايات ، والاهتمام بالموضوع ومعالجته ، عبر مطالعة أغلب ، بل جميع كتب المتقدمين ، والمتأخرين في النحو ، ومفاد ذلك : أن الدؤلي اقرأ الناس القرآن كما قرأه على الإمام علي ، ووجه الناس بالنحو مشافهة ، كما تأتّى له الأمر مع علي في البداية بدليل توجيهه لذلك الفتى الذي كان يدرس عليه ، عندما حدّثه بحديث مضحك عن أبيه ينقله الرواة ، والمتأدبون للممازحة حيناً ، وللدلالة على معرفة الغلام بالعربية ، أو للدلالة على سعة علم الدؤلي حيناً آخر .

واستمرت بعد ذلك الحوادث باللحن ، وازدادت يوماً بعد يوم حتى غزت بيت الدؤلي ووصلت إلى لسان ابنته[1] . وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدلُّ على الأثر الذي تركته تلك اللحون ، وعلى مدى انتشارها إلى درجة وصلت معها إلى لسان إبنة معلم العربية ، وقارىء القرآن في البصرة ، كما تدل على مدى الاضطراب في ألسنة الناس باللحن[2] اللغوي ، والقرآني . وعلى مدى فساد تلك الألسنة بمخالطة الأعاجم الوافدين على المنطقة العربية بجزيرتها وعراقها للدخول في الدين الجديد ، وتعلم العربية تبركاً بها كونها لغة الوحي وكتابه . ولذا كثرت اللحون ، وكثرت الحوادث التي سببت وقوعها ، والتي اعترضت الدؤلي ، وسجلها التاريخ فكان منها حادثته مع سعد الفارسي ، والفرس الظالع [3] ، والتي كان منها ما بلغت بأبي الأسود إلى قناعة نشر علمه الذي لديه عن علي عند استماعه لتلاوة آية : ﴿ **إن الله بريء من المشركين ورسوله** ﴾[4] (بكسر لام رسوله بدل ضمها) . بعد امتناعه عن ذلك إثر طلب زياد

---

(١) أبو سعيد السيرافي ، أخبار النحويين البصريين ص ١٩ ، والأغاني ، للأصبهاني ج ١٢ ص ٢٩٨ .

(٢) ابن سلاّم طبقات الشعراء ص ٩ ، وللزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٣ والقفطي ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ص ٤ و ٥ .

(٣) الزبيدي ، الطبقات ص ١٥ ، وابن النديم ، الفهرست ص ٦٠ ، والسيرافي أخبار النحويين البصريين ص ١٨ ، والقفطي إنباه الرواة على أنباه النحاة ص ٦ .

(٤) الآية الثالثة من سورة التوبة ٩/٣ .

منه ، لمعرفته بما لديه ، وشهرة الأمر بين الناس ، بانتهاء علم علي إليه . ولـذا دبَّر زياد له موضوع « تـوفي أبانـا وترك بنـون »[1] ، دون فائـدة . ثم لجأ إلى الحيلة ، فأجلس الرجل القارىء في طريق الدؤلي ، وتعمَّد الرجل اللحن بالقراءة بعد أن رفع صوته ليسمع الدؤلي . وتنجح الحيلة فيستجيب أبو الأسود لطلب زيـاد بن أبيه بعـد امتناعه لكرهه له إثر مبايعته لمعاوية ، وتخليه عن موالاة الحسن بن علي بعد أن كان عاملاً لعلي على فارس . وليطلب ذلك الكاتب اللقن ، ثم يكون نقط القرآن في تلك المرحلة ، كنتيجة من نتائج تفشي اللحن ، وكمحاولة لمعالجة ذلك اللحن الطارىء على القرآن بإبعـاده عن دائرة الفســاد ، وبإقـرائه على أصـوله التي نـزل عليها صحيحـاً بعلامات الإعراب المرسومة بالإشارات ، ليعمَّ الأمر ويتمَّ القضاء على اللحن .

٢ ـ واضع النحو العربي :

إن البحث في الأسبـاب الـداعيـة إلى وضـع النحـو العـربي ، يؤدِّي بنـا إلى الحـديث عن الواضـع الأوَّل لهذا النحـو زيادة في الإيضـاح ، واستتمامـاً لمعـالجـة الموضوع من كافة جوانبه المرتبطة به .

إن الطريقة الأصلح لمعرفة هذا الموضـوع هي الاعتماد على مـا حملته كتب تاريخ الأدب ، والنحو ، واللغة ، والتراجم ، والوفيات ، والموسوعات ، من أخبـار وروايات ، وسير ، وصلتنـا عبر طـرق متعددة ، ومنـاهج مختلفـة ، وأزمان متـدرِّجة اهتـم بها تباعاً علماء متخصصون مشهورون في دنيا الرواية ، والعلم ، بوثاقتهم في مجـال العلوم التي يهتمون بهـا ، ودقتهم العلميـة في نقلهم لـلأخبـار العـائـدة إلى علومهم ، بتمحيصها ، ومعرفة مصادرها ، ورجال أسانيدها ، وملاحقة متعلقاتها حباً بالمعرفة الحقة ، وبزهدهم بأمور الدنيا ، وما يعود منهـا من أمور لا تتعلق بـالعلم ، كالمناصب ، والشهرة ، والأموال ، مما يمكننا من الوصول عبـرها ـ كـونها الـطريق الأسلم الذي يوافق منهج الرسالة الإستقـرائي ـ إلى الحقائق التي كـانت أساسـاً من أسس وضع علم النحو ، لما توفَّر لها من عناية . ولما توجده من إتفاق على موضوع واحد من مصادر متعددة . مختلفة الزمان ، والمكان ، والمنهج والسند .

---

(١) أبو سعيد السيرافي أخبار النحويين البصريين ، ص ٢١٧ ، والإنباري ، نزهة الألباء ، ص ٢١ ولياقوت معجم الأدباء ج ١٢ ص ٣٥ .

إن الناظر المدقّق في تضاعيف الروايات[١] ـ التي تيسّر للبحث الحصول عليها ، وإدراجها في متنه ـ يخرج من بين عددها البالغ سبع عشرة رواية ، بمحصلة منهجية ترجع الأمر في البدايات النحوية الأولى إلى أبي الأسود الدؤلي ، ومنه إلى الإمام علي . لأن هذه الروايات بالمتأخر منها والمتقدم تعيد الأمر إلى الدؤلي ، كواضع (أو كناشر لعلم النحو)[٢] ، ويعزوه هو بدوره إلى علي عند سؤاله عمن نحاله هذا النحو ، أو لقّنه هذه الحدود ، أو استنَّ له هذه السُّنَّة والطريق ، باختلاف في اللفظ[٣] ، إلّا في ثلاث منها تخرق التواتر ، وتوقف الأمر عند الدؤلي دون أن تتعرض لأخذه عن علي ، بالإثبات ، أو بالنفي ، أو بالإشارة ! وهي روايات : ابن سلام ، وابن قتيبة ، والأزهري .

ومع مناقشة هذا الموقف من هذا الموقف من هذه الروايات الثلاث . يمكننا التعليق عليها بأنها تتوقف بالموضوع عند أبي الأسود فقط . من دون أن تتحدث بشيء ينفي أخذه عن علي أو عن غيره . أي أن أصحابها تحدثوا بالبدايات النحوية ، ووافقوا على حصولها مع الدؤلي فقط . مما يبيح لنا الاعتماد على بقية الروايات البالغ عددها أربع عشرة والتي تتمم الحديث عن البدايات بأيعاز فضل السبق فيها إلى الإمام علي .

وعليه وبناء على مناقشة الروايات الواردة في وضع النحو . يمكننا وبكل ارتياح نسبة العمل إلى أبي الأسود على أنه واضع الحجر الأساس في بناء النحو العربي

---

(١) الصفحتان ٨١ ـ ٨٣ من هذا الكتاب ، فلقد تمّ ذكرها بالتفصيل .

(٢) وذلك ما تم اقتراحه في البحث وراجع في هذه الصفحات ٨١ ـ ٨٧ من الكتاب وكذلك الصفحات ١٢٦ ـ ١٣٤ أيضاً .

(٣) يقول ابن سلّام بأولية النحو مع الدؤلي وهكذا ابن قتيبة أما المبرد فيعيده إلى علي أيضاً ، واللغوي يعيده إلى علي ، وكذلك السيرافي ، يروي بأن الغالبة على تأكيد دور الدؤلي الذي أخذ عن علي . والزبيدي يؤكد أخذ الدؤلي عن علي ، وابن النديم عن علي وابن فارس أيضاً وكذلك ابن عساكر أما الأزهري فيتوقف عند الدؤلي والإنباري يعيده إلى علي وياقوت لأبي الأسود عن علي والقفطي للدؤلي عن علي ، وابن حجر بعد ابن خلدون وكلاهما يعزوه للدؤلي عن علي ، وهكذا بالنسبة للسيوطي والبغدادي .

الشامل بشكله العلمي ، بعد الإيعاز الذي تلقاه من علي بن أبي طالب . يؤيدنا في ذلك مضمون الروايات التي تنسب الدور إليه . حتى التي تنسبه إلى غيره على قلّتها[1] ـ لأنها مع نسبتها هذه لم تنف حصول الأمر مع الدؤلي أيضاً . بل نسبته إلى غيره ، كما نسبته إليه[2] . كما يؤيدنا تقادم أزمنة أصحابها من القرن الثاني للهجرة باعتبار ولادتهم ، وحياتهم فيه حتى القرن الحادي عشر مع البغدادي[3] . إضافة إلى تأييد تنازح أمكنة إقامة هؤلاء العلماء ، واختلاف مشاربهم ، وثقافاتهم ، بأخذهم العلم عن علماء ، ومشايخ متعددين مختلفين ، إضافة إلى انتمائهم إلى مختلف المذاهب الفكرية ، والدينية ، والمدرسية (مذهب مدارس النحو) السائدة في عصورهم ، وفي البلاد التي ولدوا فيها ، وارتحلوا إليها طلباً للعلم ، وأقاموا فيها للتدريس ، والتوجيه ، والمباحثة ، عبر الرحلات التي درج العلماء في تلك الأزمنة على القيام بها .

٣ ـ تحديد ماهية علم النحو ومدلوله عند الدؤلي :

قد يظن مع مطالعة هذا العنوان استحالة معالجته ، لعدم إهتمام صاحبه بهذه الناحية ، فضلاً عن عدم اهتمام الأوائل اللاحقين به ، بتحديد هذا الأمر لأنه من الأمور المُسْتَتْبَعة اللاحقة التي عرفت بعد تطوُّر النحو وبعد فلسفة مفاهيمه . أي بعد مرحلتي : الخليل ، وسيبويه بصرياً ، ومرحلتي : الكسائي ، والفرّاء كوفياً . ولكننا نشير إلى أن العودة إلى الأخبار التي وصلتنا عن المرحلة الأولى للنحو مع الدؤلي ، تمكُّننا من التعرُّف على طبيعة تلك المرحلة كما تمكّننا من إصدار الأحكام الصحيحة على نوعية تلك المسائل المستجدَّة في موضوع اللغة ، والتعبير ، مما يمكّننا بالتالي

---

(١) متن الصفحة ١٦١ ـ ١٦٣ من هذا الكتاب حيث ترى أن روايته هذه وحيدة إلى جانب أخرى أقوى سنداً منها .

(٢) عنينا بها رواية ابن النديم الواردة ص ٥٩ من كتابه الفهرست ، ومفادها قال محمد بن أسحق (ابن النديم) زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي . . . وقال آخرون رسم النحو نصر بن عاصم . . . وقيل عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية . . .

(٣) متن وحاشية الصفحة ٨١ ـ ٨٣ من هذا الكتاب حيث التعريف به وبروايته .

من تحديد مفهوم ، ومدلول « علم النحو » عند أبي الأسود على الرغم من ضآلة تلك الأخبار ، ويتمها ، وقلة رواتها ، وعدم تركيزها على الشيء الذي نحن بصدد الحديث عنه . لأن هذه القلّة يمكن أن توظّف ، وتوجّه لتثمر بما يفيد في ضوء المكتسبات العقلية من العلوم اللغوية عامة ، والنحوية خاصة المستفادة مع مراحل التطوّر التي تلت عهد أبي الأسود ، والتي ظهرت في العصر الحديث مع الاستعانة بالمناهج الحديثة في التفكير ، والتنظيم العقلي . وعليه فإن هذه الأخبار تقدم لنا الملاحظات المنهجية التالية في عمل الدؤلي :

١ ـ إن عمل الدؤلي ينطلق في أساسه معتمداً على فقه اللغة ، ومنهجه الإستقرائي الوصفي في البحث[1] . لأن عمله هذا لم يكن وليد سليقة كالإعراب الذين يرفعون ، وينصبون ، ويجرّون ، ولا يعرفون لذلك تعليلاً ، ولا سبباً موجباً غير التقليد ، لما تلقّوه سليماً عن سابقيهم ، وإلاّ فالسؤال الصحيح إذا لم يكن الأمر كذلك فعلى أيّ أساس عمل ، وأيّ شيء كان يعلم[2] . والدليل الأقوى على تمام معرفة أبي الأسود بطبيعة عمله الاستقرائي ، وإن لم يعبّر عن ذلك مباشرة هو تصدّيه « لإختلال الإعراب »[3] بعد ظهور اللحن مع الموالي ، والمتعرّبين بعد ظهور الإسلام . ومن خلال وضعه لبعض القواعد المانعة للحن منتحياً طريقة علي في الرفع والنصب ، والجر ، والتعجب ، وتقسيم الكلمة ، والعطف ، والنعت ، والاستفهام ، والفاعل ، والمفعول به[4] .

كما يتبين لنا من خلال مراقبة عمل الدؤلي ، مدى نضج حسه اللغوي ، ومدى

---

(١) صبحي الصالح دراسات في فقه اللغة ، أسفل ص ٢١ .

(٢) مازن المبارك النحو العربي ، العلة النحوية نشأتها وتطورها . ص ٣٩ .

(٣) أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ص ٥ ، وللسيرافي أخبار النحويين البصريين ص ١٧ ـ ١٨ ، وللزبيدي طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٣ وللأنباري نزهة الألبّاء ص ١٨ .

(٤) أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ، ص ٦ ، والسيرافي ، أخبار النحويين البصريين ، ص ١٨ ـ ١٩ ، الزبيدي ؛ طبقات النحويين واللغويين ص ١٣ ـ ١٤ ـ ونزهة الألبّاء ص ١٨ ـ ٢٢ . للأنباري .

اعتمـاده على استنطاق هـذه اللغة عنـد توسُّله مختلف السبـل التي تتيسَّر لـه للدفاع عنها ، وعن صحة التعبير فيها . يظهر ذلك كالذي نقلته الروايات عن اهتمامه بخطأ تعبيري يدور حول تأنيث كلمة « بتاء التأنيث » مع عدم حاجتها لها ، لأن هذه الكلمة من نوع المؤنث المعنوي ، وهي « سقطت عصاتي »[1] . حيث ينبري إلى تصحيح اللحن ، ومـدافعة الـلاحن . ومثله اهتمـامـه أيضـاً بخـطأ آخـر مـع لاحن آخـر في « بظيت » . حيث ينكر الدؤلي على الغلام استعماله للفظة لا تنتمي لدائرة الاستعمال اللغوي وحيث يجيب الغلام على سؤال أبي الأسود عن هذا الحرف ، إن هذا الحرف لم يصل إليك ، ليجيبه الدؤلي : بأن ما لم يصل إلى عمك فاستره . . .[2] .

ومع مراجعتنا « للسان العرب » نلاحظ أن مادة بظا دون بظيت هي الموجودة ، وهي بمعنى : كثر اللحم ، واكتنز . ولذا يتابع صاحب اللسان شارحاً أن حظيت ، وبـظيت اتباع لأنـه ليس في الكلام « بـظيت »[3] . مما يؤكـد صحة رأي الـدؤلي ، وإلمامه وهـو المتقدم على ابن منـظور بسبعة قـرون ـ بكثير من الأسـاليب ، والأمور المتعلِّقة باللغة والنحو ، مما دثرها الزمان ، وحرمنـا منها من دون أن يصـل إلينا من أخبارها الكثير الذي نريده .

كمـا يتبين لنا ذلـك من خـلال مشـاركتـه (أي الـدؤلي) في تقـويم الأخـطاء الإعرابية : اللغوية الصرفة ، واللغوية القرآنية .

١ ـ اللغوية الصرفة : مع سعد الفارسي ، وفرسه الظالع حيث ينصب سعد خبر إن بدل رفعه[4] ، ويدافعه الدؤلي مصححاً .

٢ ـ اللغـويـة القـرآنيـة : مـع قـارىء آيـة ﴿ إن الله بـريء من المشـركين

---

(١) أبو الطيب اللغوي مراتب النحويين ، ص ٨ .

(٢) أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ، ص ٥ ، وأخبار النحويين البصريين ص ٩ ، وطبقات النحويين واللغويين ، للزبيدي ، ص ١٧ .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٤ ص ٧٤ مادة بظا .

(٤) أبو سعيد ، السيرافي ؛ أخبار النحويين ص ١٨ ، وللزبيدي ؛ الطبقات ، ص ٥ وللقفطي الإنباه ج ١ ص ٦ .

ورسوله ﷺ[1] . ويدافعه الدؤلي ، ثم يكون نقط القرآن .

مما تقدَّم يلاحظ أن تصحيح الدؤلي لهذه اللحون يعتمد عدة أسس ، ومنطلقات منها السليقي الطبعي ، ومنها ما حصله من تلمذته لعلي ، وقراءته القرآن عليه . كما أُنزل عل الرسول ، ومنها ما فقهه من اللغة العربية وما حصَّله ، لأنه يعلم أن فهم اللغة مرتبط بإعرابها على وجوهها الصحيحة وهو وإن لم يعبِّر عن ذلك باللفظ الدالِّ عليه ، فلقد اعتقده في ضميره ، وذهنه ولذلك دافع اللاحنين ، وتصدَّى لوضع المانع للحن كما يراه مناسباً بحسب المستجدات . مما يفيدنا أنه صاحب نظر ودراية ، وخبرة سابقة ، ولذا طلب إليه دون غيره فعل ذلك لشهرته بالموضوع ؛ لأخذه عن علي ، ولمعرفة الناس بمكانته اللغوية ، فضلاً عن مناقبه العلمية الأخرى .

كما يتبين لنا ذلك في نقطة للقرآن بإهمال ، حروفه وإعجامها تسهيلاً لتلاوته ، وقراءته ، وحفاظاً على الوحي من اللحن ، والفساد[2] . حيث يظهر لنا بجلاء مظهر أبي الأسود الحقيقي فهو العالم المستقرىء لأصول اللغة المعتمد على رجاحة عقله ، ونفاذ ذهنه في الاستنباط بفزعه إلى طريقة تصحِّح الأوضاع الفاسدة ، وتمنع انتشار ما شاع من الأخطاء ، كما تمنع تأثيرها على القرآن .

عن هذه المقدَّمات مجتمعة ، نستطيع الحكم إن انطلاقة الدؤلي في معالجة المستجدَّات الطارئة على لسان الناطقين بلهجة قريش من العرب والمتعرِّبين ، لم تكن انطلاقة ذاتية بحتة يدفعه إليها علمه المحدَّد سابقاً ، والمفرغ في قوالب جاهزة موضوعة للاستعمال الفوري عند الحاجة إليها . باعتماد « لكل سؤال جواب » لينكر عليه استحالة صدور علمه ، المنظَّم ، المفصَّل ، المفرَّغ ، المحدَّد في هذه المرحلة المبكِّرة . وإنما كانت إنطلاقة تحرِّكها المستجدات اللغوية الطارئة التي يبادر معها إلى

---

(١) السيرافي اخبار النحويين ص ١٦ . وللغوي ؛ مراتب النحويين ص ٨ وللأنباري النزهة ص ١٩ - ٢٠ وللقفطي الإنباه ج ١ ص ٥ .

(٢) أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ص ١٠ - ١١ ، وللسيرافي ، أخبار النحويين البصريين ص ١٦ ، وللأنباري ، نزهة الألباء ص ٢٠ وللقفطي ، إنباه الرواة ص ٥ حيث ورد الحديث والصفحات ٩١ - ١١٠ من هذا الكتاب حيث التوسُّع بالحديث عن الموضوع .

معالجتها بما يتهيأ من قدرة لغوية أصيلة ، ورثت بالسليقة ، وبما صح مما جرى عليه الاستعمال وفاق لهجة قريش ، بعد أن وافقت الأطباع اللغوية عليه . ولذا نستطيع القول : إن هذه الأعمال كما يفهم من الأخبار كانت على جانب كبير من الأهمية للحاجة الماسَّة إليها بين الناس ، لتقويم الألسنة ، وتصحيح اللحون الطارئة كما نستطيع القول : إن هذه الأعمال لم تكن غريبة كلَّ الغرابة عن الواقع اللغوي الممارس في تلك المرحلة لأنها وإن كانت جديدة في دورها ومهمتها فهي أصيلة ، المؤدى ، والغاية باعتبار أن الحاجة أفضت إليها بعد أن تبرَّم الجميع من اللحن ، وفرّوا منه إلى البادية بأولادهم . ليخالطوا الأعراب والفصحاء . وما أمر تربية النبي في بني سعد منا ببعيد ، وباعتبار أنها شكل متطوِّر من أشكال الحفاظ على اللغة سليمة في اللحن والفساد ، وطريقة أخرى من طرق التنشئة اللغوية الصحيحة . وهذا يسلِّط الضوء على عمل الدؤلي ، ويمكِّننا من الحكم عليه بأنه عمل كان يمارس بصوابية كلِّية تعتمد منهجاً من فقه اللغة المرتبط بلغة قريش التي نقِّحت ، وتسامت بحكم الاستعمال الدائم ، والانتشار الواسع مما خصَّها بما فقده غيرها إذا كانت على جانب من المنطقية في التعبير الناتج عن طول تحكُّم السلائق بنطقها . مما يدل على طول العهد بذلك ، وعلى كون الدؤلي واحداً من هؤلاء الصليية الذين تمكنوا من الجمع بين السليقة والعلم ، فأنتج بتوجيه علي له الخطوات الأولى ، والأساسية والحدود الكبرى لعلم النحو الذي كان ثمرة لنضج لغوي سابق ضارب في القدم . ولم يكن أبداً مستجداً كما فهمه الجميع من المحدثين[1] ، باعتبار ابتدائه به . فالدؤلي لم يقم بغير دور المحافظة على النظم اللغوية الصحيحة التي كانت سائدة قبل اللحن . ولذا فهو لم يقم بغير تعليق السابق بنظم تحفظه ، وقد اعتمد في ذلك على ما أوتي من ملكة ، وعلم ، وتوجيه ، فكان منه ما أتى ، وكان امتيازه على سابقيه ولاحقيه . ومن هنا يمكننا النفاذ إلى تحديد مفهوم كلمة « النحو » عند الدؤلي . فأبو الأسود لم يفهم من كلمة « نحو » تلك القواعد الجاهزة والتامَّة البناء ، والصياغة كما اتهمه المحدثون ، والمتأخرون ، والمعاصرون[2] ، وإنما فهم فيها إنتحاء الحدود التي

---

(١) راجع الصفحتين ٣٢ ـ ٣٣ من هذا الكتاب، والصفحة ١٣٩ والصفحات ١٦٤ ـ ١٧٤ .
(٢) الصفحات ١٦ ـ ١٧٤ من هذا الكتاب .

استنها علي ، وليس غير ذلك . ولذا نحا الدؤلي « نحو الإمام » أي كما نحا هو ليحفظ على اللغة والقرآن ، دورهما دون أن يداخل فهمه لكلمة « نحو » شيء من ذلك التوسُّع الذي آلت إليه الكلمة مع الاستعمال إبان القرنين : الأول ، والثاني للهجرة[1] ، وصولاً حتى عهدنا الحاضر بما تعنيه من شمول ، ومعرفة بقواعد ، ونظم ، وعلوم شاركت النحو ، وساهمت في عمليات التفريع فيه ، والتسمية ، والتأصيل ، والتعليل ، ووضع الحدود . الأمور التي عقَّدت النحو وخرجت به عن جادَّته التي وجد عليها ، وكان من أجلها ، ولذ نردِّد مع مازن المبارك[2] ، ما نؤكد به انطلاقة الدؤلي المعتمدة على المنهج الاستقرائي الوصفي ، السليقي قوله عن طبيعة عمل الدؤلي : « إن أبا الأسود استنبط من كلام العرب ضوابط ثابتة كانت أساس عمله في توزيع الرفع ، والنصب ، والجر ، وإلا فعلى أي أساس عمل ؟ »

٤ ـ سبب إيجاد النحو عند أبي الأسود :

تحدَّد بما لا يقبل الشك الفصل بين دورين هما : دور علي ودور الدؤلي[3] . فبينما يمثِّل الدور الأول مع علي بن أبي طالب ، مرحلة الإعداد الأوَّلي ، والعام ، ومرحلة التخطيط المنهجي العلمي ، والتفكير التوجيهي الأساسي ، بتعيين موضوع العلم ، وحدوده التي تدخل ضمنه . إذ لا وجود لعلم ، لا موضوع له . يمثِّل الدور الثاني مع الدؤلي مرحلة التطبيق العملي ، الشكلي الخاص بتلك الحدود بالتقيُّد بها ، وبالحذو على مثالها ، وما يوافقها . كما يمثل مرحلة نقل ذلك العلم بتبليغه ، وتعميمه ، ونشره على الملأ .

انطلاقاً من هذه الملاحظات نستطيع الحديث عن مرحلة جنينية للنحو . مع ما يرافقها من ابتداء ، ونمو ، وارتقاء ، واكتهال قبل استوائه علماً قائماً بذاته خالصاً بمميزاته من كل شائبة ، أو عائبة . تلك المرحلة التي رافقت النحو الفني[4] منذ

---

(١) الصفحات ٨٥ ـ ٨٧ من هذا الكتاب .

(٢) مازن المبارك ، النحو العربي ، العلة النحوية ، ص ٣٢ .

(٣) متن الصفحتين ١٢٦ ـ ١٢٧ من هذا الكتاب .
والصفحة ١٥٢ كذلك .

(٤) متن الصفحتين ٣٢ ـ ٣٣ من هذا الكتاب .

وجد ، ووجدت المباحث اللغوية الأولى التي لم يصلنا منها شيء يذكر . إلّا أن فقداننا لأوليات تلك المباحث لا يعني فقداننا لها كلّها فقد وصلتنا منها نتف متأخرة متفرّقة كان منها ما دار بين علي ، والدؤلي من حديث ينمّ عن طبيعة المراحل اللغوية السابقة لعهديهما ، مما يمكن وصفه بالأهمية إلى حدٍّ بعيد . فالإمام وتلميذه لم يخترعا أصولاً لم تكن موجودة ، وإنما نظرا إلى الواقع الممارس قبل الفساد ، واستلهما من صوره أسساً ثابتة ، نسجاً على هديها ، وهنا يبدأ التحوّل تجاه تركيز الملاحظات العامة ، والتوجيهات الأساسية ، والخطوط الرئيسة ، إلى أسس علمية ثابتة لذلك العلم المستقّل القائم بذاته . ولذا يترتب علينا ، البحث في السبب الذي أدّى إلى إيجاد النحو عند أبي الأسود الدؤلي . في ضوء استفادة أبي الأسود من المرحلة العلمية العامّة مع علي ، وانتقاله إلى المرحلة التطبيقية التنفيذية عندما شرع بنشر علمه[1] .

إن الحديث عن سبب وضع علم النحو عند أبي الأسود يقصد منه الإشارة إلى البواعث التي شكّلت الدواعي الحاضّة على وضع العلم كما يقصد منه الربط بين المقدمات ، والنتائج مما يساعد على القضاء على تلك الأفكار التي راودت مخيلات البعض من استحالة قيام الدؤلي بإيجاد علم النحو « وفق المدلول الحديث للكلمة » ، لعدم وضوح الأسس التي انطلق منها ذلك العلم . حيث يُظن معها أن الدؤلي حار ماذا يفعل بعلومه فكان أن وضع علم النحو ؛ ليخلد على الدهر بذلك ، من دون أن يُراعي المتحدّث عن علم النحو عند الدؤلي ؛ الأسباب التي دعته إلى وضع علم النحو ، وعليه نقول : إنه من الصحة في مكان أن يقال : سبب نشر النحو عند الدؤلي ؛ بدل سبب إيجاده ، لأن الإيجاد شيء ، والنشر شيء آخر . أو أن الوضع شيء ، والنشر شيء آخر ، كما قدّمت الدراسة[2] بملاحظة تأخر تاريخ نشر علم النحو إلى زمن زياد ، والدؤلي بعد وضعه على يدي الإمام علي والدؤلي . فضلاً عن أن طبائع الأمور تفرض أن تكون مرحلة الإيجاد قبل مرحلة التبليغ « إن أن فاقد

(١) متن الصفحات ٨١ ـ ٨٤ تحت عنوان مجابهة النحويين . . ٨٥ ـ ٨٧ تحت عنوان العمليات الأولى ، ١١٣ ـ ١٣١ تحت عنوان أسباب وضع من هذا الكتاب .

(٢) متن الصفحة ١٢٦ ـ ١٢٧ من هذا الكتاب حيث تمّ بحث الموضوع بالتفصيل .

الشيء لا يعطيه » . وبما أن الوضع كان في مرحلة سابقة، والنشر كان في مرحلة لاحقة ، بد هي أن يكون لهذه المرحلة الثانية أسبابها الداعية إليها كما كان للدؤلي ، وعليه نرى :

إن المنطلق الداعي إلى نشر النحو لم يكن ذاتياً ، بتأثير دوافع خاصة[1] وإنما كان مشتركاً بين عدة أسباب منها : طروؤ اللحن على آي القرآن ، والمستجدّات اللغوية ، والحاجة الناشئة عند أهل العامة ، والسوقة أولاً ، وأهل الخاصّة ثانياً . يؤكد لنا ذلك ، طلب زياد إلى الدؤلي : وضع علم يتعلمه أبناؤه لأنهم من اللاحنين[2] ، ولأنه أستاذٌ لهم ، وكون زياد بن أبيه عالماً بما لدى الدؤلي من علم أخذه عن علي . لذلك نرى أنه لا مناص من رفض الروايات المتخصِّصة التي نقلت أخباراً نصت على ابتدار أبي الأسود بالطلب إلى زياد بالسماح له بوضع النحو لأننا نعلم علم اليقين أن هذا الموضوع لا يدخل ضمن اختصاص الأمير ، لعدم علاقته بمهماته الأمنية ، والسياسية ، فضلاً عن عدم تناقض هذا العمل مع عمل الدؤلي الرئيس ، وهو إقراء القرآن ، ولا بدَّ مع هذا العمل من أوعية ، وأساليب . وبعض هذه الأوعية هو النحو ، وحدوده التي رسمت ، ونوقشت ، واشتهرت سابقاً منذ أيام علي ، وسار أمر معرفته بها ، بل انحصار أخذها عن الدؤلي ، لمباحثته بها علياً بعد أن أخذها عنه . خاصة في تلك المرحلة التي طبق فيها اللحن بالقرآن وشاع مما هدَّد بفساده ، عبر الاضطراب في قراءة آياته إعراباً ، وتلفظاً بالوزن ، ومخارج الأحرف . ولذا كان نقط المصحف أوسع عملية نشر لتلك المبادىء النحوية الموجودة لدى الدؤلي بعد أن كان هو نفسه (القرآن) ، السبب في إيجادها سابقاً .

٥ ـ الدؤلي صاحب أول نحو فنّي وُضع بموجبه العلمي :

ومن باب التذييل على موضوع سبب إيجاد « علم النحو » عند الدؤلي ؛ حبا

---

(١) كما تقدَّم آنفاً أعلى الصفحة ١٣٧ .

(٢) أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ، ص ٨ ـ ٩ حيث يشير إلى ذلك بعد أن يشير أن الدؤلي رفض الاستجابة لطلب زياد ثم كان أمر القارىء ، والآية المشهورة واستجابة أبي الأسود . وقبله يتحدث ياقوت عن تعليم الدؤلي لأولاد زياد ج ١٢ ص ١٣٥ وراجع في اللحن أيام زياد لحن ابنه عبيد الله الصفحة ٧٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

بمعالجته من جوانبه كلِّها ، بالحديث عن متعلقاته نرى أن تحديد مفهوم النحو عند الدؤلي أمر في غاية الأهمية المنهجية ، والفائدة العلمية ، لأنه يمكِّننا من إصدار الأحكام على دور أبي الأسود العملي ، وعلى تحديد مكانته العلمية في البناء النحوي العام .

ومن المسلمات المتفق عليها ، أن أبا الأسود ليس من العلماء المتخصصين في النحو ، هؤلاء الذين عرفناهم في القرون التالية للقرن الأول للهجرة ، والذين صدروا في أمورهم العلمية عن علم لقنوا مبادئه عن سابقيهم من العلماء ، فحكموا بعقولهم ، وقاسوا ، وفرَّعوا ، وأعملوا النظر مستندين إلى مبادىء جاهزة يطلبونها لذاتها حيناً ، ولغيرها ، حيناً آخر ؟ . لذاتها عندما يطلبون العلم حباً به ليُسلكوا في عداد العلماء ، ولغيرها عندما يطلبونه ، ويفنون أعمارهم في إحرازه ، للتصدُّر به في المجالس ، وطمعاً بالحصول على المناصب ، والمراتب التي تمنح للعلماء وإنما هو رجل قرأ القرآن على تنزيله ، وبالصورة التي قرأها النبي ، وثقف اللغة سليقة ، لإنتمائه القرشي ، ووجِّه إلى إمامة غيره في مجال الاقراء ، والنحو ، واللغة ، لنباهته ، وسبقه وأرومته ، وأخذه عن علي ـ شيخ القرآء ـ لقدرته على القيام بوظيفة العالم ، والسليقي في آن معاً ، ولذلك فَاْخَرَ بقوله :

ولست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فاعربُ[1]

ولذلك يحق لأبي الأسود أن يُدعى « صاحب أول نحو فني عمل بما يمليه عليه النحو العلمي » لأنه وإن لم يكن الوحيد الذي كان من مالكي ا لسليقة المتبرِّمين من اللحن ، والعاملين على محاربته (بسبب دور علي ، وتوجيهه له) فهو الوحيد الذي بادر بعد التوجيه إلى ذلك ، بنشر ، وتعميم القواعد التي استنَّها الإمام علي ، والتوسُّع في شرحها استجابة لعلي . وبهذا نرد على شوقي ضيف برفض مقالته التي

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٠ ص ١٦١ ، وينبغي أن نشير أن النحوي هنا جاءت بمعنى النحوي الذي يحرِّف الكلام إلى وجوه الأعراب ، مما يدعو إلى التكلُّف والتصنُّع فيوقع في الخطأ ، ولذا ركَّز على المعنى السليقي الذي يُعرف بداهة . راجع الصفحات ٢٣ ـ ٢٥ من هذا الكتاب .

نعتت الأقدمين والمحدثين بالاشتباه[1] في وضع أبي الأسود لقواعد النحو ورفضه لأي شيء غير نقط المصحف ، مع أن هذه النقط ثمرة لما سبقه[2] .

(١) العصر العباسي الأول ص ١٢١ واورد قريباً من معناه في المدارس النحوية ص ١٣ ـ ١٧ .
(٢) إذ لا يعقل أن يفصل بين قواعد النحو ، ونقط القرآن كما رأى ضيف ، لأن الثاني يتطلب الأول ويستدعيه ، فالنظرة المتفحصة العاقلة إلى الوراء ترينا إستحالة التفكير في النقط دون التفكير في أسباب الإعراب الداعية إلى تغيير الحركات من قبل علي والدؤلي ؟ .

الفصـــل الثاني

أعمال مرحلة النحو الأولى

إن الحـديث عن الأعمـال النحويـة الأولى ، يفـرض علينـا منهجيـاً الإبتـداء بـالحـديث عن أولى المســائـل التي شغلت الصـــرح اللغـوي[1] . وهي مســألـة « الإعراب » ، وما رافقها من أسباب دعت إلى وضع « علم النحو » ، للحفاظ على الوحي ولغته من الفساد اللغوي الطارىء عليهما .

أ ـ الإعــراب :

ليس البحث في مسألة « الإعراب » جديداً كل الجدة ، فالكتب المهتمَّة بهـا على قديمها ، وحديثها[2] . توسَّعت بالحديث عنها لأهميتها ، ودورها في اللغة وفي مرحلة البدايات النحوية الأولى بالذات ، لما تعلبـه من دور رئيس ، وأساسي كـونها أصلاً ، ومنهجاً في التعبيـر ، والإفصاح ، والإبـانة ، ولكن المنهـج المتَّبع في هـذا البحث ، والذي يعتمد على حصر الأحاديث التي اهتمَّت بالموضوع ، المتقدم منها والمتـأخر ، وإيـراد زبدتهـا أمر لـه جدتـه ، وحـداثتـه . حيث تسلّط الأضـواء على الموضوع من كافة جوانبه مما يسهِّل الغاية التي يحاول البحث الوصول إليها ، ليقدِّم

---

(١) عملاً بنتائج الاستقراء ، إذ لم يكن التطور العلمي الذي أدى إلى استقلال الأبحاث اللغوية من النحوية قد تمَّ بعد في هذه المرحلة المبكرة أو الأولى .

(٢) وهي كثيرة نذكر منها الصـاحبي ، لابن فارس ، البـرهان في علوم القـرآن ، للزركشي تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٤٤ العربية ليوهان فك ، تاريخ اللغات السـامية لولفنسـتـون علم اللغة ، لعبد الواحد وافي ، دراسـات في اللغة للسامرائي ، النحو العربي على ضوء اللغات السامية لعبد المجيد عابدين ، أسرار اللغة لإبراهيم أنيس ، مناهج البحث في اللغة لتمام حسان وغيرها .

جديداً ، وليأتي بالمفيد المهم . فضلاً عن تقديمه (البحث) للمسألة بصورة مجيُرة موظّفة في خدمة الموضوع بشكل عام . حيث يعرض لمسالة الإعراب بموضوعية تكاد تكون وحيدة ، بدءاً بالمعنى اللغوي لكلمة « إعراب » ومنه إلى المعنى « الإصلاحي » ، ومنه إلى تفرُّد هذه الكلمة في كونها أساساً لا بديل عنه ولا مناص من الاعتراف به .

ب ـ الإعراب في اللغة :

جاء في لسان العرب :(1)

يقال رجل عربي اللسان إذا كان فصيحاً ، وروي عن النبي أنه قال : الثيِّب تعرب عن نفسها ، أي تفصح ، وقال الأزهري : الإعراب والتعريب معناهما واحد ، وهو الإبانة ، وإنما سمي الإعراب إعراباً لتبيينه ، وإيضاحه وأعربهم أحساباً أي أبينهم ، وأوضحهم ، ويقال : أعرِبْ عما في ضميرك أي أبِن ، وعرُّب منطقه أي هذّبه من اللحن ، والإعراب الذي هو النحو إنما هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ ، وأعرب كلامه ، إذا لم يلحن في الإعراب .

وعليه نقول : إن المعنى اللغوي لكلمة « إعراب » في أساسه لا يخرج عن حدود الإظهار ، والإبانة ، والإفصاح ، الإيضاح ، والخلو من اللحن . أي بما معناه (لدلالة الكلمات الأربع الأولى على معنى واحد) : هو التعبير الكلامي الخالي من اللحن .

ج ـ الإعراب في الاصطلاح :(2)

وفيه مذهبان : أحدهما لفظي ، والثاني معنوي :

---

(1) ابن منظور لسان العرب ج ١ ص ٥٨٦ ـ ٥٩٣ .

(2) الأشموني ، شرح ألفية ابن مالك ، ج ١ ص ٤٤ ـ ٤٥ وانظر التصريح : بمضمون التوضيح للأزهري ج ١ ص ٥٩ .

اما الأشموني فهو علي بن محمد بن عيسى أبو الحسن ، نحوي من فقهاء الشافعية أصله من أشمون بمصر . ومولده بالقاهرة . ولي القضاء بدمياط وصنَّف كتباً في النحو والفقه منها الشرح على الألفية ، ونظم المنهاج راجع في اخباره الأعلام ج ٥ ص ١٠ ويقال إنه توفي نحو ٩٠٠ هـ .

اللفظي : وهو ما جيء به لبيان مقتضى العامل من حركة أو حرف ، أو سكون ، أو حذف ، فالعامل كجاء ، ورأى ، والباء ، والمقتضي الفاعلية ، والمفعولية ، والإضافة العامة كما في الحرف ، والإعراب الذي يبين هذا المقتضي الرفع ، والنصب ، والجر .

وقال صاحب التصريح : الإعراب أثر ظاهر ، أو مقدَّر يجلبه العامل في آخر الكلمة .

المعنوي : والحركات دلائل عليه (ولقد اختاره الأعلم ، من العلماء وهو ظاهر مذهب سيبويه). وعرفوه بأنه تغيير أواخر الكلم ؛ لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً ، وتعبيراً .

وبناء على هذين المذهبين : اللفظي ، والمعنوي ، في تعريف الإعراب في الاصطلاح . يمكننا القول إن المعنى الاصطلاحي لكلمة « إعراب » لا يغادر كونه أثراً لفظياً ، أو معنوياً لمؤثِّر معين في آخر الكلمة . أي بما معناه : الإعراب هو التغيير الطارىء على حركات الأواخر من الكلم .

د ـ مقارنة المعنيين :

ونحن عند مقارنتنا لمعنى كلمة «الإعراب» في « الإصطلاح » بمعناها في « اللغة » نلاحظ تطوُّراً منهجياً في استعمال هذه اللفظة . فبينما كانت في أساس وضعها تعني التعبير الكلامي المجرَّد . تطوَّرت إلى التعبير الكلامي الخالي من اللحن ، ومنه إلى الدلالة على حركات الأواخر في الكلمات ، مع تطوُّر النحو ، وتقادم الأزمنة وتخصيص الإستعمالات .

ومع عودتنا إلى الروايات التي حدثتنا عن أخبار المراحل النحوية الأولى نلاحظ

= أما الأزهري فهو خالد بن عبد الله المتوفي ٩٠٥ هـ المعروف بالوقّاد ، نحوي من أهل مصر ولد في الصعيد ونشأ وعاش في القاهرة . توفي عائداً من الحج إلى القاهرة قبل أن يدخلها وله كتب منه .

التصريح بمضمون التوضيح ، في شرح أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك .

إتفـاقهـا مجتمعـة على مضمـون السبب الـداعي إلى وضـع النحـو ، بـاتفـاق في المضمون ، وبعض الاختلاف في الألفاظ ، حيث تعزو الأمر إلى (إضطراب الألسنة والحاجة إلى التعلّم ، بعد فساد الإعراب ليعرب به كتاب الله)[1] . مما يؤكّد نتيجة مقارنة المعنى اللغوي ، بالمعنى الاصطلاحي . كما يؤكّد النتيجة التالية القائلة : إن الحاجة إلى علم النحو ظهرت بعد فساد الألسن ، ممـا أحوج إلى التعلّم بعـد فساد الإعراب ، وبعد أن كان التعبير الكلامي يتمّ بصورة مرسلة دون تكلّف ، ولا صنعة . ثم كان النحو . . . كما يؤكد فائدة المعنى اللغوي الذي يوافق ما نعرفه عن ممارسة الإعراب بصورة مرسلة ، تعتمد إلى حدٍّ بعيد على ممارسة اللغة بالسليقة ، والطبـع إضافة إلى تأكيد فائدة دلالة المعنى الإصطلاحي الذي يوافق ما نعرفـه عن ممارسـة الإعراب بصورة علمية تعتمد على ممارسة اللغة بالعلم الناتج عن الدراسة ، والتلمذة مع مرحلة وضع الحركات مع نقط الإعراب ، ونقط الأحرف بإهمال المهمل منها ، وإعجام المعجم ، وما رافق ذلك من أخبار علمية متخصّصة .

ومع اتفاق هذين المنطلقين : التاريخي ، واللغوي ، الأوّل كونه وثيقة تاريخية عامة غيـر متخصّصة ، ولا غـاية وراءهـا إلاّ التسجيل الغفـل ، والثاني كـونه حقيقـة صالحة مستمدة من الموضوع اللغوي النحوي الممارس . على اختلاف منهجيهما . تتأكّد لنا قصة « الإعراب » التي عدّها بعض المحدثين[2] ، مبالغة من مبالغات العرب وليس غير ذلك . منكرين على اللغة العربية إمكان كونها معربة قبل الإسلام والقرآن ضاربين بعرض الحائط أوليّة ما تتعارض به نظريتهم مع أقرب الأدلّة وأسهلها تناولاً ،

---

(١) راجع في هذا الموضوع روايـات : أبي الطيب اللغـوي ، وأبي سعيد السيـرافي ، وأبي بكر الـزبيدي ، وأبي البـركات عبد الرحمن الأنبـاري ، وأبي الحسـن علي بن يوسف القفـطي ، وياقوت الحموي ، الواردة في الصفحات ١١٣ ـ ١٢١ والصفحتين ٨١ ـ ٨٣ من هذا الكتاب .

(٢) يتفق جميع الأقدمين على مسـألة «الإعراب » وأصالتها في اللغة ولكن هنالك من المحدثين من عـرب ومستشرقين من طلع علينـا بمـا ينفي ذلـك من أمثـال إبـراهيم أنيـس ، في كتـابـة من أسـرار اللغة . ومن المستشرقين كوهين وفولرز ، راجع في آرائهم لصبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة ص ١١٧ ـ ١٤٠ فهي دراسة موفقة وراجع الصفحات ١٥٥ ـ ١٥٩ من هذا الكتاب حيث عولج الموضوع بتوسّع .

وهو إعراب القرآن الكريم . الذي حاكى في منهجه التعبيري ، وفي فصاحته ، وفي ألفاظه لغة العرب(١) . وإذ لا يعقل باعتبار كونه « عربياً » أن يأتي معرباً على غير ما كانت عليه لهجة قريش ، لغة قوم الرسول لأنه ينبغي أن يحدِّث بلسانهم(٢) ، يتأكد إعراب اللغة ، كما يتأكَّد قدم ذلك الإعراب وأصالته وشموله ، مما استدعى نزول القرآن بها معرباً على شاكلتها بعد تأكُّدنا من إعرابه ، بما نقله لنا الصحابة والتابعون ، إضافة إلى ما انتهى إلينا من أخبار عن طرق إدائه ، وتلاوته ، وترتيله فضلاً عن التأكيد الحاصل عن عدم إمكان تلاوة بعض الآيات أو قراءتها من دون إعرابها ، لما يؤدي إليه إهمال الإعراب ، من اختلاف في المعنى ، والتأويل الأمر الذي يؤكّد إعراب القرآن كلّه ؛ لاستحالة إعراب بعض آية ، وترك البعض الآخر دون إعراب . وهذا مما ينكره العاقل السوي العقل ، والتفكير ، فضلاً عن العالم المتبصِّر الخبير(٣) وهذا كلُّه يفضي بنا إلى تأكيد مقولة « إعراب اللغة . حيث يمكننا القول إن العرب ، لغتهم معربة(٤) ، من دون أن نحاول البحث عن أصول ذلك الإعراب ، وجذوره ؛ لخروجه عن موضوع البحث .

ونتقل بعد هذه النتيجة إلى مجال آخر ، لنتمِّم به الحلقة التي بدأناها . فطالما أن اللغة ورثت معربة في زمن لا يمكن تحديده بغير ما سبق أن عالجته هذه الدراسة ـ وهو الزمن الذي سادت فيه لهجة قريش في الجاهلية ، وقبل الإسلام(٥) ـ فهذا يعني صحة ما تقدم من محاكاة القرآن قواعد ، وأصول تلك اللهجة التامة نسبياً فصاحة

---

(١) نصَّ على ذلك عشر آيات في القرآن الكريم وردن بأرقامها وأرقام سورها في حاشية ١٠٩ من هذا الكتاب . وهي مذكورة مجتمعة في ألفاظ القرآن الكريم ، لمحمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٥٦ .

(٢) صدى الآية من سورة إبراهيم ١٤ / ٤ . ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ .

(٣) راجع في تخريج هذا متن الصفحة ٧٤ وهامش الصفحة ٩٧ من هذا الكتاب . حيث التخريج الذي لا يمت إلى الواقع بصلة وانظر في الموضوع نفسه بتوسع الصفحات من هذا الكتاب .

(٤) صبحي الصالح دراسات في فقه اللغة ص ١١٧ .

(٥) الصفحات ١٠٠ ـ ١٠٣ من هذا الكتاب .

وبلاغة بل ، وتعدّي هذه الحدود إلى تحدّي أصحاب تلك اللهجة التامة ، لأنهم مفتونون بها ؛ للإتيان بمثله إن استطاعوا .

كما يتأكد لنا ، أن بلوغ تلك المرحلة كان بعد صراع عنيف ، وحقب متطاولة في الزمن نتجاوز عن أمر بدايتها ـ لعدم علاقته بالموضوع ـ ونهتمّ بأمر نهايتها التي آلت إليه بعد إنتشار اللحن ، وفساد الألسن ، واضطرابها وشيوع اللحن إلى درجة هُدِّد معها ذلك الكتاب الذي تواضعوا له ، واتفقوا على تفوُّقه . فكان منهم خوفهم على القرآن واللغة ، وكان منهم عملية إيجاد الحركات الإعرابية بصورها الشكلية ، ثم رسمها على أحرف القرآن بالنقط المعروف مع الدؤلي . بعد أن كانت عملية ممارستها تتم باللفظ فقط . ولهذا نرد على من يستبعد ذلك عن الدؤلي بعد تكذيبه للروايات التي نصَّت على عمله(1) بأن أبا الأسود لم يفعل أكثر من تحويل الممارس إلى إشارات خطيَّة تدلُّ على التأمات اللفظية نافين أن يكون الدؤلي قد استأنس في عمله هذا بالنظر إلى أعمال غيره في الموضوع عند بقية الشعوب(2) لأن هذا العمل وعلى أهميته ، لا يعدو كونه بسيطاً بالنسبة إلى معارف الدؤلي ، وما يحرزه من علوم ، فضلاً عن كونه عملاً رمزياً (من الرموز) للدلالة على الحركات المكتسبة بالسليقة ، والممارسة بها وهي الأصل . فضلاً عن تلك الدقَّة العلمية في الرواية ، والقوَّة في الإسناد في الخبر . عند الحديث عن طريقة نقط المصحف مع الدؤلي حيث الاعتماد على السليقة والطبع ، وأصول القراءة ، وحيث وضع المصطلحات الدَّالة على الرفع ، والنصب ، والجر بالنقط وهذا من بدهيات العلوم(3) .

وعليه نستطيع التأكيد في النهاية ، أن موضوع « الإعراب » هو موضوع ثابت متأصلٍ في اللغة العربية ؛ لاستحالة كونها غير معربة للأسباب الآنفة الذكر ، والملخصة كما يلي : اللغوي ، في فائدة مقارنة المعنى اللغوي ، لكلمة إعراب

(1) أوردنا ذكر أسماء البعض منهم في حاشية الصفحة ١٢٦ من هذا الكتاب .

(2) تقدم بحث ذلك في حينه وراجع الصفحات ١٣٦ ـ ١٤٠ من هذا الكتاب حيث المعالجة التامّة .

(3) مراتب النحويين ص ١٠ ، وأخبار النحويين البصريين ص ١٦ ونزهة الألباء ص ٢٠ وإنباه الرواة ص ٥ .

بالاصطلاحي ، وهذا الدليل القوي يمثِّل الحجة الأقوى كونه مستحيل التزوير ، باعتبار الصدق عند استقراء اللغة . والتاريخي المستقى من الكتب المتحدِّثة عن الموضوع ، الوثائقي - إن صحَّت التسمية عبر القرآن الكريم ، الدليل الأقوى على الإطلاق ، لاستحالة فهمه بغير « الإعراب » . ولذلك نستطيع أن نقرِّر ما وصل إليه البحث سابقاً من دور القرآن في وضع النحو وأن نزيد على ذلك عبارة « إعراب القرآن » لأنها تمثِّل الحاجة الداعية إلى وضع النحو . عبر العمليات المتعددة التي كان الوضع يتمُّ مرحلياً بموجبها - كما سيتبين[1] - وأن نزيد على ذلك أيضاً إن القرآن كان الباعث على وضع النحو وحده دون غيره ، ليفيد نفسه عبر أهم وأوسع عملية نشر للنحو تمت آنذاك ومع تلك المرحلة الأولى في العلوم الإسلامية مع نقطه لبيان إعرابه .

هـ - إرساء الأبواب الأولى في النحو :

ونعود إلى أعمال مرحلة النحو الأولى محاولين بما نملكه من أخبار متفرِّقة ، جمع شتات الموضوع ، واكتشاف الأعمال العملية السبَّاقة إلى الوجود على الرغم من إختلاف الروايات في تحديد تلك الأعمال ، إختلافها في تحديد السبب الداعي إلى وضع النحو ، دون أن تفوتنا الإشارة إلى تعمُّد قوله عبارة الأعمال العلمية ، دون العمل العلمي الواحد ؛ لاستحالة كون وضع النحو انطلق من حادثة فردية ، أو من موقف معيَّن فقط . إذ لا يعقل أن تتسبَّب حادثة واحدة باللحن بوضع النحو كله - بل يجب أن تتعدَّد المواقف في ذلك ، لتتعدَّد الإجابات بالتصحيح . مما يهيء مجموعة من القواعد المانعة للحن ، كما يهيء الحض على متابعة العمل للحصول على علم تام قائم بذاته ، واضح بحدوده ، ومميزاته ومع ملاحظتنا للروايات[2] الواردة في أعمال النحو الأولى نرى ما يلي :

---

(١) راجع في هذا الصفحات ١٤٧ - ١٦٠ من هذا الكتاب .

(٢) راجع في التعريف بالأعلام أصحاب الروايات الصفحتين ٨١ - ٨٣ من هذا الكتاب حيث ذكر أيضاً مواضع ورود هذه الروايات . وحيث تمّ تعيين مصادرها ولقد تمّ اختيار هؤلاء الأعلام الخمسة الواردين في متن هذه الصفحة والصفحة التي تليها دون البقية الواردة في الصفحتين =

مع اللغوي أخباره بما يلي :

١ ـ أخذ الدؤلي عن علي ، وإشارة الإمام عليه بحروف الرفع والنصب ، والجر .

٢ ـ ردُّ الدؤلي على خطأ رجل في حضرة زياد في « سقطت عصاتي » .

٣ ـ وضع الدؤلي للنحو بعد قراءة آية ورسوله (وضع جليلاً منه) .

٤ ـ إجابته في كلِّ اللغة .

٥ ـ نقط الدؤلي للقرآن .

ومع السيرافي إخباره بما يلي :

١ ـ إعراب القرآن عند زياد بعد قراءة « آية ورسوله » .

٢ ـ وضع العربية بعد « مات أبانا » مع ابن زياد .

٣ ـ وضع العربية بعد « مات أبانا » مع زياد بن أبيه .

٤ ـ وضع باب الفاعل ، والمفعول مع سعد الفارسي .

٥ ـ وضع باب التعجب ، أو كتاباً في النحو مع تعجُّب ابنته .

ومع الزبيدي إخباره التالية :

١ ـ أسس العربية بوضعه باب الفاعل ، والمفعول به ، والمضاف ، وحروف النصب ، والرفع ، والجرِّ ، والجزم .

٢ ـ وضع العربية ، ونقط المصاحف .

٣ ـ وضع باب التعجب ، والفاعل ، والمفعول به وغيرها مع تعجُّب ابنته .

٤ ـ وضع العربية مع زياد ، والرجل صاحب عبارة « مات أبانا » .

= (٨١ـ٨٣)؛ لاختلاف مواضع إقاماتهم وطرق أخذهم عن علماء عصرهم . فالأوّل حلبي عاش في القرن الرابع للهجرة والثاني معاصر له وتوفي بعده بفترة وهو فارسي . والثالث أندلسي تأخر عنهما . والرابع بغدادي تأخر عن الثلاثة .

٥ ـ وضع باب الفاعل ، والمفعول ، مع سعد الفارسي ، ولم يزد .

ومع الأنباري إخباره بما يلي :

١ ـ أخذ الدؤلي ، أقسام الكلمة ، وعلامات كل قسم ، وأقسام الأسماء ، والعطف ، والنعت ، والتعجُّب ، والاستفهام ، وإن وأخواتها عن علي .

٢ ـ وضع علي للنحو بسبب آية « لا يأكله إلاَّ الخاطئين » .

٣ ـ إعراب القرآن مع زياد ، والدؤلي بعد آية ورسوله ، ثم وضع المختصر المنسوب إليه .

٤ ـ وضع باب التعجب ، مع ابنة الدؤلي .

٥ ـ وضع الدؤلي للعرب ما يعرفون به كلامهم .

ومع القفطي إخباره بما يلي :

١ ـ وضع علي صحيفة للدؤلي بأقسام الكلمة ، وتعريف كل قسم وتعريف الأسماء ، وحروف النصب .

٢ ـ نقط الدؤلي للقرآن ، وهذا أول ما وضعه مع زياد وآية « ورسوله » .

٣ ـ وضع بابي الفاعل ، والمفعول ، مع سعد الفارسي .

ومن خلال مقارنة هذه الروايات بعضها ببعض ، نستنتج الأمور التالية التي تتوزَّع عليها أخبار النحو الأولى :

١ ـ نقط وإعراب القرآن .

٢ ـ وضع العربية .

٣ ـ وضع باب الفاعل ، والمفعول ، والمضاف ، والرفع ، والنصب ، والجر ، والجزم .

٤ ـ وضع باب التعجب .

٥ ـ وضع حروف الرفع ، والنصب ، والجر .

٦ ـ وضع أقسام الكلمة ، وأنواع الإسم ، وأبواب العطف ، والنعت ، والتعجُّب ، والاستفهام وحروف النصب .

٧ ـ المختصر المنسوب للدؤلي ، والمعروف بالتعليقة .

وباعتماد نتيجة هذه الأخبار ، وبمقارنتها بما أفضى إليه البحث من نتائج عند الحديث عن تأخُّر تاريخ نشر النحو عن تاريخ وضعه(١) . يتبين لنا أن الأسبقية في النحو كانت للأمور الفرعية(٢) ، وليس للكلية الجامعة فضلاً عن تأييد البداهة ، والعقل لهذه النتائج . إذ يستحيل أن يوضع النحو وضعاً كاملاً ، ودفعة واحدة مع علي ، والدؤلي لاستحالة حدوث هذا في أي علم من العلوم الأخرى ، فضلاً عن عدم إمكان حصوله دفعة واحدة . لأن العلوم تبدأ بسيطة ، ثم تتنامى من البسيط إلى المعقد ، ومن الإجمال ، والتعميم ، إلى التفصيل والتفريع ، كما أن هذه المقارنة تعود علينا بفائدة هي عدم نص ، أو اتفاق الروايات على البدايات نفسها ، ذلك الأمر الذي أخذ عليها شاهداً على عدم صحتها . بينما نظنه نحن الدلالة الواضحة على صحة تلك الروايات مجتمعة لأنها بتعدُّدها تدل على الحالة الحقيقية الداعية إلى وضع النحو ، ونشره في آن معاً ليقيننا أن العلوم لا توضع عند مجرَّد حصول حادث يحث على إيجادها . نعم يمكن أن يوجِّه ذلك الحادث إلى الابتداء بالتفكير ، ثم تتالى الحوادث فتتأكد الحاجة التي تصبح ماسة بتكرار الحوادث ، ويكون الوضع . . ولذا نقول إنه من غير المعقول أن يبادر علي إلى وضع النحو لمجرَّد سماعه لحناً واحداً ، بل على العكس . فإن تناقض الروايات حول البدايات الأولى للنحو ، وحول الأعمال الأسبق التي كانت مع وضع النحو ، لأدلة واضحة على صحتها مجتمعة لما نعرفه من تعدُّد المواقف في اللحن ، وسبقها لعلي في مرحلة الجاهلية(٣) ، وسبقها لزياد إبان حكمه ليأمر ابن أبيه ، الدؤلي بمكافحتها ، أو ليأمر ابن أبي طالب أبا

---

(١) متن الصفحتين ١٢٦ و ١٣٨ من هذا الكتاب .

(٢) عنينا بها المسائل المستجدة التي دعت إلى وضع باب التعجب وباب . . . ، وليس ما ورد في الروايات من تعابير وضع العربية لأن هذا واسع الدلالة جداً ، فضلاً أن أصحابه عنوا به ما يتصل بعلوم العربية .

(٣) متن الصفحتين ٦٨ ـ ٦٩ من هذا الكتاب .

الأسود بمحاربتها . على اختلاف في صحة أحد الخبرين ، أو اختلاف في تفسير مضمونيهما . فلقد أمر علي الدؤلي بالنسج على منوال ما وضع ، وأمر زياد الدؤلي بنشر ما كان قد أخذه عن علي ، وما كان قد وضعه[1] بنفسه هذا الاختلاف يستدعي منا إقراراً بصحة الروايات التي تتحدث عن البدايات لقناعتنا أن وضع علم النحو لم يكن نتيجة قرار فوري وعاطفي ، وإنفعالي ، وإنما كان نتيجة معاناة في اللغة أولاً ، ثم في القرآن ثانياً والسبب الأهم ، والدافع الرئيس إلى تحويل « النحو الفني » إلى « نحو علمي » هذه المعاناة التي حدث بالدؤلي بعد توجيه الإمام علي له إلى الاهتمام بالجانب الذي نبّهه عليه بملاحقة مسائله ، ومستجداته أولاً بأول ليكون علم فيما بعد ، ولذلك كان هذا العلم يزداد نضجاً ، ووضوحاً كلما ازدادت عملية اللحن ، وتوسّعت لأن مسائل اللحن هي التي كانت تستدعي وضعه بالإجابة عليها ، وتصحيحها ، إلى أن كان « نقط القرآن » بعد الحاجة إلى نقطه ، لتقويم الألسنة الناطقة به ، بعد لحونها فيه . هذا وقد تنشأ مع هذا العرض شبهة مفادها : أنه قد يظن أن النقط لا يحتاج إلى علم لأنه تقرير لقراءة أخذها الدؤلي عن علي الذي أخذها بدوره عن النبي ﷺ . ولكن هذه الشبهة تُرد من أساسها لأنها تَرُدُّ على نفسها بنفسها . وذلك عندما يتبين للناظر المتفحِّص في طبيعة الموضوع وجوب معرفة الدؤلي بأسس ما يفعله ، وما يقوم به ، ووجوب صدوره في عمله عن روحٍ واثقة بالنفس ، لأنه يعتمد على علمه ، وسليقته ، وأخذه عن علي في آن معاً . وإلاّ فهو معرَّض للنسيان ، ولفساد السليقة كما نسي غيره ، وفسدت سليقته عند اعتماده على السليقة ، والأخذ عن الإمام علي ، من دون الاعتماد على العلم ؛ لعدم إحرازه ما يمنع عليه فساد اللسان ، والسليقة. هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فإن نقط القرآن ، وما رافقه من أخبار تتعلق به يدلنا على مدى علم الدؤلي بما يقوم به . يدلُّنا على ذلك تلقين أبي الأسود للكاتب الذي طلبه من زياد مبادىء ما يريده أن يقوم به . لأنه مع معرفة هذا الكاتب بمبادىء الكتابة ، والقراءة ، مع فصاحته وفطنته ، فهو يجهل تماماً ما يقوم الدؤلي بفعله ولذا أرشده أبو الأسود إلى طريقة شكل الكلمات بوضع النقط[2] وتحويل المنطوق المسموع ، إلى مجال المقروء الملحوظ . ولذا

---

(١) راجع في هذا الموضوع مطولاً الصفحات ١١٣ ـ ١٣٨ من هذا الكتاب .

(٢) أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ص ١٠ وأخبار النحويين البصريين ص ١٦ ، ونزهة =

نستطيع أن نؤكِّد صدق الروايات التي نصَّت على البدايات الفرعية للنحو[1] . لأن هذه الروايات والأخبار تحدِّد البدايات الأولى ، كما تحدِّد للعملية الأهم في تلك البدايات وهي نقط القرآن . ومع ملاحظة ما وصل إليه البحث حتى الآن ، وملاحظة دور علي ، وإشارته على الدؤلي ، والحدود . نستطيع أن نحدِّد كون عملية نقط القرآن حدُّ النهاية بالنسبة لتلك البدايات . ومع معرفتنا بالبداية والنهاية ، لمعرفتنا بإرشاد علي للدؤلي عند وقوع اللحون التي نصَّت عليها الأخبار ومع التزام الدؤلي بأمر علي ، واشتهار أخذه عنه العلم النافع في هذا المجال ، ومع معرفتنا بتوجُّه الأنظار تجاهه حيث يقصده الجميع للانتفاع بعلمه عند حاجتهم إلى ذلك العلم الذي باحث فيه أكثر من مرة ، وردُّ بوساطته على أكثر من لحن ، وعلى أكثر من لاحن ، نتمكَّن من القول : إن الأبواب الفرعية التي نسبت الروايات وضعها إلى الدؤلي صحيحة كل الصِّحة ـ وأنه وضعها كلَّها دون أن نتمكَّن من معرفة الأسبق منها ، أو تحديده تراتبياً ، إلاَّ ما كان من أمر نقط القرآن الذي جاء خاتمة لهذه الأبواب . إذ يستحيل معرفة الأسبق منها ، والدؤلي يتصدَّى لها في بيته[2] ، وفي قارعة الطريق[3] ، وفي مكان تدريسه[4] ، حيث يجلس للإقراء ، والتعليم ، أو حيث يقصد للتربية[5] ، ولعل الأهم هنا هو الخاتمة لأنها ترافق مرحلة تسجيل تلك العلوم الممارسة حتى حصولها (أي نقط القرآن) بالشكل الفني دون الشكل العلمي . ولأنها تسجِّل ما سبق ، وجعلناه فضلاً للقرآن حيث حضَّ على إيجاد النحو لإفادة نفسه ، فكان المستفيد الأوَّل ، والأخير . في البداية بحضِّه على إيجاد النحو بعد تنفيره من الجهل الداعي إلى الفساد . ولذا يصبح السبب في البحث عن حل لمشكلة اللحن الطارىء على قراءة آياته وسوره ، وفي النهاية بحصوله على النقط المانع من التحريف ، والفساد

= الأشباه ص ٢٠ وإنباه الرواة ص ٥ .

(١) وعنينا بها الروايات التي نقلت الأخبار الستة الواردة في أسفل متن الصفحة ١٤٩ من هذا الكتاب .

(٢) حيث وجَّه ابنته عند تعجُّبها .

(٣) حيث وجَّه سعد الفارسي صاحب الفرس الظالع .

(٤) حيث وجَّه غلام الحمي المتحدث عن أبيه .

(٥) حيث وجَّه صاحب « سقطت عصاتي » وأولاد زياد بتعليمه لهم .

كما نتمكّن من استنتاج تاريخ تلك البدايات الخاصة بوضع النحو، إضافة إلى تاريخ النهاية الخاصة بها . فنحن نعرف أن الدؤلي أخذ عن علي حتى رحيله إلى البصرة ، ونزوله فيها لعهد عمر ، وإقامته فيها حيث يبقى إلى وصول الإمام علي إلى سدة الخلافة ، وهنا يصبح والياً له ، ثم يحارب معه ف « صفين »[1] وبعودتنا إلى الروايات ، نلاحظ مع القفطي[2] عبارات تسجّل تاريخ هذه المرحلة من وضع النحو حيث يخاطب الدؤلي الإمام علياً « بأمير المؤمنين » وهذه عبارة لا يخاطب بها إلّا الخليفة ، وهذا يعني أن الإمام كان في الكوفة ، وإبان خلافته لأن الرواية تتابع « سمعت ببلدكم » ويخاطب علي بها الدؤلي ، ويعني العراق ، كما تفيدنا رواية الأنباري في الموضوع عبارة « بمخالطة الحمراء »[3] . وهذا لم يكن لعهد الخليفة عمر لأن البصرة والكوفة لم يسكنا من قبل غير العرب ، إلّا مع نهاية عهده ، ودخول عهد عثمان ، وازدياد عدد الناقمين في هاتين البلدتين على سياسته مع أهل بيته من الأمويين . حيث تصبحان قاعدتين للمعارضة المؤيدة لعلي . ولذا ينتقل إلى الكوفة متخذاً منها عاصمة له مع سنة ٣٤ هـ حيث يحكمها حتى وفاته سنة ٤٠ هـ وهنا نستنتج أن محادثته للدؤلي وإشارته له بالنحو كانت بين سنتي ٣٤ و ٤٠ هـ وهذا هو تاريخ وضع النحو . بينما يكون نقط القرآن مع زياد[4] أي بين سنتي ٤٤ هـ و ٥٣ هـ تاريخ وفاته . وهذا هو تاريخ نشر النحو .

إن هذا البحث المطوّل في الإعراب يفضي بنا إلى بحث جديد في منهجه وطريقة طرحه ، ومعالجته . وهذا البحث تفرضه المنهجية العلمية المتّبعة ، كما تفرضه وقائع الأمور وفق حدوثها أيام الدؤلي ، وهو بحث اجتهادي استقرائي يسلّط الأضواء عل جانب مهم ، ويبرز باعتبار انتمائه إلى المرحلة الأولى التي انتهت بوفاة الدؤلي ، المؤسس الأوّل للنحو العلمي ، والناشر الأوّل له ، وواحد الطبقة الأولى التي بدأت ، وانتهت به ، من طبقات النحويين . وهذا البحث هو تقسيم عمليات

---

(١) الزركلي ، الأعلام ، ج ٣ ص ٦٣٦ .

(٢) القفطي « إنباه الرواة » ج ٤ ص ٤ والرواية نفسها ساقها الأنباري في نزهة الألباء ص ١٨ .

(٣) الأنباري ، نزهة الألباء ص ١٨ .

(٤) الزركلي ، الأعلام ، ج ٣ ص ٥٣ .

الإعراب الأولى التي حدثت أيام أبي الأسود إلى قسمين هما[1] :

حركات الإعراب .

علامات الإعراب .

و ـ الحركات :

ونعني بها تلك النأمات[2] الصوتية المعبَّر بوساطتها عن المعاني والمقاصد . والتي كانت تمارس بالسليقة ، والوراثة ، والطبع ، رفعاً ، ونصباً ، وجراً ، وتنويناً ، تبعاً لحالات الإعراب ، والحاجة إلى التعبير ليتمكن المحدِّث من الإعراب ، عما يجول في خاطره بأسلوب يسيغه السامع ، ويتمكَّن من فهمه . وهذه الحركات ذات وجود ضروري في اللغة ، لاستحالة فهم الأغراض الكلامية بدونها ، ووجودها هذا لا يتعدَّى الحدود اللفظية ، دون أن يكون لها وجود كتابي سابق على الإطلاق .

ز ـ العلامات :

ونعني بها تلك العلامات ، والرموز ، والإشارات الشكلية التي كان لوجودها تاريخ معين ، وأسباب معينة ، والتي أُوجدت بعد الحاجة إليها مع تقدُّم الكتابة ، وانتشار القراءة ، وتوسُّع الناس بالأخذ عن الكتب خاصة في مجال تلاوة القرآن مما تسبب باللحون في قراءة الآيات . والتي كان إيجادها للدلالة على تلك الحركات الممارسة بالسليقة لفظاً ، والمبينة للإعراب والمعاني ؛ بعد فقد عنصر السليقة كتابة . وبعد تعدُّد اللحون في قراءة القرآن ، والتي هدَّدت بإفساد الوحي وكتابه .

---

(١) هذا البحث اجتهادي خالص ينطلق من وجهة نظر تعتمد الواقع الممارس في تلك المرحلة كأساس . عندما كان الناس يعربون كلامهم دون تصنع لاعتمادهم على السليقة التي تمكِّنهم من ذلك ولذا وضعنا لهذه المرحلة كلمة الحركات بينما وضعنا لمرحلة العلم كلمة علامات ، لأنها أصبحت مرئية بعد أن كانت ملفوظة وهذا يدعم عمل الدؤلي ويظهره على حقيقته البسيطة ، والمهمة ، والحقيقية ، لا المخيفة كما أظهره المحدثون . راجع ص ١٦٤ من هذا الكتاب .

(٢) النأمات جمع « نأمة » وهي الصوت والمقطع ، راجع لابن منظور لسان العرب ج ١٢ ص ٥٦٧ مادة « نأم » .

والتي أوجدها أبو الأسود مع مرحلة نقط الإعراب ، وهي الفتحة ، والضمة ، والكسرة ، باصطلاح النقطة فوق الحرف للفتحة ، والنقطة بين يدي الحرف للدلالة على الضمة ، والنقطة تحت الحرف للدّلالة على الكسرة واصطلاح النقطتين للغنّة ، أو للتنوين [١] .

ح ـ الحروف :

وهنا نصل إلى نقطة متعلقة بموضوع الإعراب في حركاته ، وعلاماته . لرواية دعت إلى هذا التوقّف ، وهذه المعالجة ، ومفادها كما يلي حسب ما ورد على لسان الإمام علي ، عند أبي الطيب اللغوي [٢] إجعل للناس حروفاً ـ وأشار له إلى الرفع ، والنصب ، والجرّ ، ـ « واللافت للنظر في هذه الرواية كلمة حروف ، ووجهة استعمالها . حيث نفهم من مراجعتنا « للسان العرب » [٣] المعنى الذي قصده الإمام » . فالحرف ، وكما يقول الأزهري . . . كل كلمة تقرأ على الوجوه في القرآن تسمى حرفاً ، وقال ابن سيده : والحرف القراءة التي تقرأ على أوجه : وقال الجوهري : « كل حرف شيء حده » .

وعليه نفهم أن الحرف هو الحدُّ ، والطرف ، والنهاية ، من كل شيء مع تعدّد الأحكام ، واختلافها في قراءة الكلمة لاعتبارات تدفع إلى ذلك أي بما معناه « الحرف هو الحد المتغير الشكل » . وهنا تستبين لنا الغاية المقصودة من معنى الحروف [٤] الواردة في رواية الإمام علي . فاجعل للناس حروفاً ، وأشار إلى الرفع

(١) في الموضوع الروايات الواردة في مراتب النحويين للغوي ص ١٠ ـ ١١ وأخبار النحويين البصريين ، للسيرافي ، ص ١٦ ، وللأنباري ، نزهة الألبّاء ص ٢٠ وللقفطي إنباه الرواة على أنباه النحاة ص ٥ . وقد توقفنا بالحديث عن الموضوع عند هذه النقطة لأن عملية علامات الشكل استكملت في مرحلة لاحقة ختمت مع الخليل ابن أحمد الفراهيدي الذي رسم الصورة النهائية التي وصلتنا عن الفتحة ، والضمة ، والكسرة ، والحركات ، وغيرها . فراجع فيها الكتاب لسيبويه ج ٢ ص ٣١٥ ولبروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ج ٢ ص ٢٦٧ ولمهدي المخزومي ، الخليل بن أحمد .

(٢) أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ، ص ٦ .

(٣) ابن منظور لسان العرب ، ج ٩ ص ٤١ ـ ٤٥ .

(٤) فالإمام ، لم يقصد إلى الإعراب بالحروف كما قد يتبادر للذهن . ولذلك لم أتحدث عن =

والنصب ، والجر ، يعني اجعل للناس حروفاً ، وأشار إلى الرفع ، والنصب ، والجر ، يعني اجعل للناس حدوداً في التزام الرفع ، والنصب ، والجر ، والحدود في اللغة كثيرة ، ومتشعبة ، ومتعددة . على أن تكون هذه الحدود متغيرة الأشكال بحسب الأحكام الداعية إليها ، والمسبِّبة لها . وهذا مما يجمع الإعراب بالحركات إلى جانب الإعراب بالعلامات ، تحت عنوان واحد في آن معاً . وهذا أيضاً مما يؤكد دور السليقة ، والعلم إذ ليس على الدؤلي بملاحظة الرواية إجتراح المعجزات ، وإنما عليه بملاحظة الرواية أن يبحث عن الواقع اللغوي الصحيح ، ليسلك منهجه في التعبير ، فيسجله مبيناً الأسباب الداعية إلى التغير في حركات أواخر الكلمات بين الشكل التعبيري والآخر .

وهذا ما لا يدركه الكثيرون ، وخاصة الأعاجم . الذين يفقدون الملكة المؤهِّلة لمعرفة وجوه الإعراب إلا وهي السليقة ، ويدركه العربي الصريح النسب بالسليقة ، وكما أخذه عن أهله ، دون أن يدرك السبب الداعي إليه ، أو المسبِّب له ، وهذا أيضاً مما يوضِّح سبب إشارة علي ، كما يوضِّح سبب التزام الدؤلي ، كما يوضِّح الغاية من تلك الإشارة . فالسبب في طروء الفساد ، وانتشاره ، وشيوعه ، على ألسنة الكثيرين من الوافدين ، والسكان ، الأصليين بعامل المخالطة ، وما يتبعها . . .[1] والغاية هي محاربة ذلك الفساد ، والقضاء عليه لخطورته البالغة التي راعتهم خاصة عند وصوله إلى كتاب الله ، ووحيه . ولذا التزم الدؤلي بإشارة علي وتوجيهه ، وبادر إلى التنفيذ متقيداً بملاحظات الإمام[2] . مستخدماً كافة الوسائل التي تمكَّن منها ، والتي وجَّهه إلى استعمالها ، وهداه عقله ، وحنكته ، وذكاؤه إليها . فأشرف على إقراء الناس للقرآن ، وأشرف على توجيههم إلى الجهة اللفظية التعبيرية الصحيحية ، والتزم تصويب لحونهم كلما طالعته وجابهته إلى أن استفحل اللحن ، ووصل إلى القرآن مما ساءه[3] ، وأحزنه ودعاه إلى النزول عند رغبة الأمير زياد بن أبيه بإعراب القرآن ،

= الموضوع ، ولم أشر إليه لعدم علاقته بما يتحدث البحث عنه في هذا الفصل .

(١) الصفحات ٤٥ ـ ٨٤ من هذا الكتاب حيث تمت معالجة الموضوع بتوسُّع واستيفاء .

(٢) في هذا الموضوع الصفحات ٨١ ـ ٨٧ من هذا الكتاب .

(٣) في هذا الموضوع الصفحات ٩١ ـ ٩٩ من هذا الكتاب .

والاهتمام به شكلاً بالعلامات المرافقة لحروفه ، وكلماته للحاجة الماسّة إلى ذلك مع إزدياد عملية اللحن للتحوُّل في الدراسة إلى طريقة جديدة تعتمد الأخذ عن الصحف . بعد أن كان التوجيه يتم فقط مشافهة . حباً منه بمحاربة اللحن إلى أن يقضي عليه ، ويتكرّس الإعراب .

ط ـ الاعتماد في الإعراب على حركات الأواخر :

لم يكن عمل الدؤلي مع الإعراب موضوعاً دخيلاً على اللغة العربية في تلك المرحلة كما قد يظن . فالموضوع في جانبه السليقي . أو في أحد جوانبه المتعددة يتعلّق باللفظ ، والتعبير ، وهذا أمر معروف بل هو أساس مهم في أسس اللغة ، لاستحالة التعبير بدونه . وإنما تنحصر الجدّة التي جاء بها الدؤلي واتصف بها عمله ، في تلك المحاولة التي حاول بها تجنيب القرآن ذلك الفساد المطبق ، وتلك اللحون المنتشرة الدائرة على ألسنة الناس . ولذا بادر إلى إعرابه ، ونقطه بنقط الإعراب بطريقة مبتكرة فريدة كانت على الرغم من جدّتها ، وطرافتها ، بسيطة لطيفة ، تحكم اللسان ، وتوجهه نحو التلفظ الصحيح ، بعد التزامه بما نصّ عليه الإمام علي ، وبحسب الطريقة التي طلب إليه اتباعها ، وهي إقامة الحدود في الرفع ، والنصب ، والجر ، مما دعاه إلى الاهتمام بحركات الأواخر من كلمات القرآن دون أن يهتمّ بشيء آخر . يحدوه إلى ذلك أسباب هي :

١ ـ الحاجة إلى الإعراب وهي في مقدمة الأسباب الداعية ، خاصة بعد الإختلاط بالأعاجم الذين وفدوا على المسلمين حباً باعتناق الإسلام .

٢ ـ توجيه علي له بالتزام تبيان الحركات في أواخر الكلمات بنصه على إقامة الحدود في عبارة « إجعل للناس حروفاً » ، وأشار إلى الرفع ، والنصب ، والجر[١] .

٣ ـ الأثر الذي تركه خطأ ذلك القارىء الذي تعمّد الخطأ في تلاوة آية ﴿ إن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾[٢] بجر لام رسوله بدل ضمها ، وهو السبب المباشر الذي دفعه إلى الطلب من زياد إيجاد ذلك الكاتب اللقن ، ليتمكّن من القيام بالمهمة

---

(١) راجع في هذا الموضوع الصفحتين ١٥٥ ـ ١٥٦ من هذا الكتاب ، وللغوي مراتب النحويين ص ٦ .

(٢) سورة التوبة ٣/٩ .

التي يُزمع القيام بها بعد امتناعه عنها ، وهي نقط القرآن بنقط الإعراب .

٤ - إنعدام الخطورة في ترك تحريك ، أو اعراب بقية أجزاء الكلمات لإعتبار أن السياق يوضح المراد من الاستعمال . حيث يستطيع الفرد أن يفرّق بين الكلمة ، والأخرى بحسب المراد بينما لا يكون ذلك في إعراب الأواخر من الكلمات لما يسيء إلى موسيقى الترتيل (روماً ، وإشماماً ، ووقفاً ، وإمالةً ، ، وفصلاً ، ووصلاً) فضلاً عن الإساءة للمعاني ، مثل الخطأ في رسوله ، وفي تحريك ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[1] .

وهنا نعلق على هذا النقل للواقع بأنه مقصود لدحض ما يشاع عن خطأ الأوائل بقصر أعمالهم على أواخر الكلمات . ببيان أن الحاجة إلى ذلك هي الدافع الأول ، والمحرّك الأهم للقيام بهذه الأعمال من تحريك أواخر الكلم . فقد انتشر اللحن ، وعمّ ووصل إلى القرآن . ويظهر أنه كان أكثر ما يقع في إعراب الكلمات ، وفي التغيير في حركات أواخرها وعند وصول هذا الشكل إلى القرآن . وجدوا أن المعضلة لا تحلّ إلاّ بتحريك أواخر الحروف من كلماته . فكان ذلك . ولاقى العمل نجاحاً ، ورواجاً ، وسيرورة بين الجميع فبادروا إلى الإفادة منه ، وقلّدوه في عملياتهم النحوية ، ونسجوا على منواله لما تركه هذا العمل على أذهانهم من أثر ، وقناعة بفائدته العلمية . وهنا نشير إلى الخطأ الفادح الذي يتردد من تسبّب النقط في وضع النحو مؤكدين أن القرآن كان السبب إلى وضع النحو ، ولكنّ النقط لم يكن سبباً على الإطلاق . لأن خطوات كثيرة سبقت نقطة ومنها توجيهات علي ، وتصحيح اللحون المتتالية مع الدؤلي ، قبل القيام بعملية النقط ، ومن ثم فكّر القيّمون على الأمور بنقط القرآن ، لإخراجه من دائرة الفساد ، وتوسعوا في أعمالهم فيما بعد حتى استقام للنحو بناؤه . وعليه يمكننا القول : إن النقط نتيجة من نتائج النحو ، ودراسته التطبيقية الأولى التي شاهدت النور مع تلك المرحلة لخضوعه الكلي لدائرة عمل النحو ، والنحاة .

---

(١) سورة فاطر ٢٨/٣٥ .

ي ـ موافقة عمل الأوائل لاسم النحو :

ومع ختام هذا الفصل ، ننتهي إلى فقرة مهِّمة ، تنتج عنه ، وتتعلق به ، مما يستوجب معالجتها ، وتدبّرها ، لإبعاد آثارها ونتائجها السلبية عن الموضوع كلّه . بعد أن أثارها عدد من المحدثين[1] وطبقوا بها أصقاع الشرق والغرب ، متأثرين في ذلك بمنهج بعض المستشرقين[2] في التفكير ، والعمل ، والتعبير ، وبعد أن انعكست آثارها على الصرح النحوي العام حيث ظن الدارسون المتعلمون فضلاً عن بعض المتخصصين ، أن هذه النتيجة صحيحة إلى حدٍّ لا يمكن ردها . وهي مغايرة عمل الأوائل لاسم النحو بل اختلافهما أصلاً ، ومنطلقاً ، ودلالةً ، ومنهجاً .

ومن هنا وباعتماد العامل الزمني الذي يساعدنا على معالجة الموضوع باستقراء فصوله الصحيحة كما وقعت . نستطيع أن نردَّ على هذه الشبهة ، بأن نحكم على طبيعة عمل الدؤلي بعد هذه القرون المتعاقبة على بداية عمله المعنون باسم « النحو » . بحصر الأمر بين تلك البداية لهذا العمل ، وما وصلنا إليه في أيامنا من تطوُّر في المفاهيم العامة خاصة في النحو ، علماً ، ومنهجاً ، وأسلوباً .

وبعودتنا إلى المعنى اللغوي الوضعي ، والسائد أيام الدؤلي لكلمة النحو وإلى البدايات النحوية عنده . نتمكن من تحديد انتماء عمله إلى المفهوم الخاص به ،

---

(١) من أمثال أحمد أمين الذي يقول : « إن العلماء توسعوا في عمل الدؤلي ، بالنقط وسحبوا اسم النحو على عمله وقالوا : إنه واضع النحو وربما لم يكن يعرف اسم النحو بتاتاً » راجع ضحى الإسلام ، ج ٢ ص: ٢٨٧ ، وإبراهيم أنيس الذي يتوسَّع في ذلك ويرفض الإعراب الذي لم يتمكن منه إلا قوم سُموا فيما بعد النحاة ، راجع من أسرار اللغة ص: ١٢٥ (الإعراب) وكذلك جورجي زيدان الذي أعاد الأمر للسريان ، راجع تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص: ٢١١ ـ ٢١٢ وللرافعي الرأي نفسه ، تاريخ آداب العرب ج ١ ص: ١٠٥ .

(٢) من أمثال فولرز الذي رفض إعراب القرآن وطلع علينا بفكرة نزوله بلهجة مكة المجرَّدة من الإعراب ثم أعربه العلماء فيما بعد، وكوهين الذي يرفض وجود الأعراب إلاَّ في اللغة الأدبية المثالية ، راجع فيهما فقة اللغة للصالح ص :١٢٢ ـ ١٢٤ ولتشتشر في دائرة المعارف الإسلامية مادة نحو . حيث يعيد أثر المادة الأولى إلى اليونان والمنطق الأرسطي عن طريق السريان وبروكلمان الذي يشك في أمر الدؤلي وأمر تلاميذه في كتابه ج ٢ ط ٤ ص: ٢٨

وبالنحو في أيامه . فالنحو هو تحريف الكلام ، إذا حرَّفه على حروفه[1] . والحروف هي الحدود المتغيِّرة الشكل بحسب دواعي الإعراب ، والتعبير[2] . وعمل الدؤلي لم يغادر هذه الأمور بتاتاً . فهو في وضعه للأبواب التي نسبت إليه . هَدَفَ إلى إعراب الكلمات بتحريك أواخرها في اللغة أولاً ، وفي القرآن ثانياً . مشافهة في المقام الأوَّل ، ورسماً في المقام الثاني بشكل الحركات ، والدلالة عليها بوساطة النقط مع نقط القرآن . وهذا مما يهيء لنا ردَّ تلك المقولة التي ترفض ما جاءنا من أخبار النحو الأولى مع الدؤلي وعلي . لحجة عدم وضوح معنى كلمة « نحو » لتلك الفترة مع هؤلاء الأوائل (علي ، والدؤلي ، وتلاميذه)[3] ومع انعدام الوضوح لا يتمكن الإنسان من ممارسة ما لا يعرف حدوده ، وما لا يعرف موضوعه ولقد تبين فساد ذلك سابقاً[4] . ونضيف عليه أن تطوُّر استعمال كلمة نحو لا يعني بالضرورة عدم ارتباط المعنى المتطوِّر بالمعنى الأصلي ، والوضعي في الدلالة ، لأننا نعلم أن الاصطلاح يتجه دائماً نحو التخصيص وليس إلاَّ . إضافة إلى أن الرافض لهذا المقولة حكم عليها بصورة عكسية تخالف مجريات الأمور وفق حدوثها . حيث انطلق معها من النحو بمعناه الحالي الحديث أو قل الدقيق ، والخاص ، ورفض على الدؤلي ، وعلي إمكان معرفتهما بالأمور الحاضرة والمستجدَّة جاهلاً ، أو متناسياً فرق ما بين الحالين ، من اختلاف وتباعد في الأساليب الموصلة إلى الغاية التي قصد إليها كل منهم . وهي واحدة ، وهي الحفاظ على السلامة اللغوية في الكلام العادي ، والنص القرآني . وهذا مما يؤكد موافقة عمل الأوائل لاسم النحو ، بملاحظة المنشأ ، والغاية ، والتسمية التي تقبل بالبدايات ، لأنها تمثل الصورة الأولى من الأعمال النحوية العامة المنتمية إلى الدائرة الواسعة زمناً فآخر .

---

(١) الصفحة ٢٣ من هذا الكتاب .
(٢) الصفحة ١٥٥ من هذا الكتاب .
(٣) الصفحتان ١٣٤ ـ ١٣٥ من هذا الكتاب .
(٤) الصفحة ١٣٩ من هذا الكتاب .

الفصل الثالث

أخبار وضع النحو مع المتقدمين والمحدثين

أ ـ روايات الأوائل الواردة في وضع النحو على يدي غير الدؤلي :

كان الداعي إلى هذا العنوان ، وورود روايات فيه تعيد البدايات الأولى في النحو إلى جماعة من الروّاد الأوائل . وحياً بمعالجة موضوع نشأة النحو على أتمّ وجه قرّ الراي على مناقشة مضامين هذه الروايات بعد عرضها على الأشكال التي وصلتنا بها ، مما يسلّط الضوء على طبيعة أخبارها ، وهذا من الفائدة في مكان . إذ يؤدّي إلى التوسع في استقراء ما وصلنا من أخبار متعلقة بالموضوع ، لأن الغاية الأساسية من المعالجة ، والمباحثة هي الوصول إلى الحقيقة المنشودة ، عبر إثبات الوقائع التاريخية كما كانت تدريجاً . ولقد وصلتنا هذه الروايات التي لم تتعدَّ الثلاث من بين الروايات السبع عشرة[1] الآنفة الذكر ، التي تحدثت عن الموضوع عن طريق علماء كبار ، وهي بحسب السبق الزمني لأصحابها وفاة كما يلي :

١ ـ رواية السيرافي .
٢ ـ رواية ابن النديم
٣ ـ رواية الإنباري .

أما رواية السيرافي ، فهي الرواية الأولى التي تحدثت عن الموضوع حسب ما انتهى إلينا من أخبار وهي كما وردت في كتابه « أخبار النحويين البصريين » كما يلي :

(١) راجع في هذا الموضوع الصفحتين ٨١ـ٨٣ من هذا الكتاب حيث مرّ ذكر هذه الروايات مع تعيين أزمنة أصحابها وأماكن وجودها في الكتب فلتراجع .

اختلف الناس في أول من رسم النحو فقال قائلون : أبو الأسود الدؤلي ، وقال آخرون : نصر بن عاصم الدؤلي ، ويقال : الليثي ، وقال آخرون : عبد الرحمن بن هرمز ، وأكثر الناس على أبي الأسود[1] والرواية كما هو واضح تنقل الواقع على صورته التي كان عليها حتى زمن السيرافي وهي كما هو واضح تناقش نفسها لتردّ الأمر إلى أبي الأسود بعد أن آثر السيرافي حفاظاً على الأمانة العلمية ـ وقد أثر عنه نزاهته ، واستقامته ، وتقصّيه للحقائق ـ نقل ما انتهى إليه من أخبار حول نشأة النحو وهي إن أردنا تصنيفها تنضم إلى سلك الروايات التي تعيد الأمر إلى أبي الأسود ، لأن صاحبها يعرض فيها الآراء المختلفة ، ثم يعقب بأن أكثر الناس على أن أبا الأسود هو المؤسس .

أما رواية ابن النديم فقد وردت في كتابه الفهرست على الصيغة التالية :

« قال محمد بن إسحاق : زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ، وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن علي ، وقال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلي ، ويقال : الليثي ، قرأت بخط أبي عبد الله بن مقلة عن ثعلب أنه قال : روى ابن لهيعة عن أبي النضر قال : كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية ، وكان أعلم الناس بأنساب قريش ، وأخبارها ، وأحد القرّاء وكذا حدثني أيضاً : كان نصر بن عاصم الليثي أحد القرّاء ، والفصحاء ، وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء والناس »[2] .

ومع مطالعتنا لهذه الرواية نلاحظ أن ابن النديم يصوّرها متحدثاً عن نفسه (محمد بن إسحاق » برأيه الذي يؤكّد فيه بداية النحو مع الدؤلي الذي أُخذ عن علي لأنها لسان حال أغلب العلماء[3] . ثم يسوق أخباراً انتهت إليه عن بدايات أخرى مع آخرين هما : نصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز . وكأنه يريد أن يعارض قول البعض بأن نصراً بن عاصم هو من رسم النحو بقول البعض الآخر بأن ابن هرمز هو من

---

(١) السيرافي ، أخبار النحويين البصريين ، ص: ١٣ .

(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص: ٥٩ .

(٣) ولقد بينا ذلك في متن الصفحتين ٨١ ـ ٨٣ من هذا الكتاب .

وضع العربية . فكما نسب المخالفون من الناس البداية لنصر ، نسبوا لعبد الرحمن بن هرمز . ولذا يثبت أمام هذا الاضطراب وهذه المقارنة رأي أكثر العلماء الذي يعيد الأمر إلى الدؤلي ، شأن الخبر المتقدِّم مع السيرافي . هذا فضلاً عن سبب آخر يسوقه ابن النديم مؤكداً فيه دور الدؤلي(١) .

أما رواية الإنباري فلقد وردت في كتابه « نزهة الألبَّاء » على الصورة التالية :

« فاما من زعم أن أوّل من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، أو نصر بن عاصم فليس بصحيح ، لأن عبد الرحمن أخذ عن أبي الأسود ، وكذلك أيضاً نصر بن عاصم أخذ عن أبي الأسود ويقال عن ميمون الأقرن(٢) . ثم يتابع قائلاً : والصحيح أن أول من وضع النحو هو علي بن أبي طالب لأن الروايات كلها تسند إلى أبي الأسود ، وأبو الأسود يسنده إلى علي ، وواضح من الصورة التي نفى بها الأنباري عدم صحة الأخبار التي تسند بدايات النحو إلى غير الدؤلي ، بل واضح تأكيده بصورة جازمة لا تقبل التشكيك ، وتعدِّي ذلك إلى تأكيد دور علي الرئيس في الموضوع .

وفي ضوء مناقشة الروايات المتقدمة التي تتحدث عن بدايات النحو بإسناد الأمر إلى غير الإمام علي ، والدؤلي ، يمكننا تأكيد صحة الروايات التي عادت بالأمر إلى علي ، وتلميذه لانتفاء صحته ، أو لعدم وثاقة هذه الروايات أمام الاتفاق الحاصل ، فضلاً عن أن أصحابها الذين قاموا بروايتها ذهبوا إلى تأكيد دور علي ، والدؤلي بعد أن أشاروا إلى أن الجماعة على هذا الرأي ومع استحالة العكس ، وانتفاء صدق الضد ، وعدم وثاقة المخالف ، يتأكد الأصل ويتوطَّد ، كما يتأكد خبر أصحاب الروايات ، والطبقات ، والكتب ، المتحدِّث عن كون هؤلاء من تلاميذ الدؤلي(٣)

(١) تجنبت ذكر هذا السبب لطوله ولقد ذكره ابن النديم في آخر صفحة: ٦٠ ومجمل الصفحة: ٦١ من كتابه الفهرست فليراجع .

(٢) الأنباري . نزهة الألباء ، ص: ٢١ ، والأنباري من كبار أهل العلم والأدب في زمانه ، يكفي أن نعرف أنه صاحب « الإنصاف في مسائل الخلاف » . لنعرف مدى علمه ووثاقته .

(٣) ابن سلاّم ، طبقات الشعراء ص: ١٠ وللزبيدي ، الطبقات ص: ٢١ ـ ٢٤ ، ولابن النديم ، الفهرست ص: ٥٩ ـ ٦١، وللأنباري ، نزهة الألباء ص: ٢٢ ـ ٢٥، وللقفطي ؛ إنباه الرواة ص: ٦ وللُّغوي ؛ مراتب النحويين ص: ١١ وراجع الصفحات ٨١ ـ ٨٣ من هذا الكتاب .

الذين أخذوا عليه، وتعلّموا منه، واستضاءوا بنوره، وتوسّعوا في مسائله، التي وضعها باقتباس، وأخذ عن علي، وإرشاد منه إضافة إلى التأكيد على دور الدؤلي الرائد في أمر البدايات النحوية الأولى. إذ أن هذه الروايات لا تنفي الأمر عنه، وإنما تشركه مع غيره في ذلك بعد أن تجعله مسترشداً بآراء علي، محتذياً النسج على منوالها.

ب ـ آراء المحدثين في وضع النحو:

إنه من الأهمية أن يورد هذا البحث آراء المحدثين في «نشأة النحو»، كما أورد آراء الأقدمين فيها، عطفاً على بدء، وطلباً للإحاطة بالموضوع بشكل عام تُسْتَنْفَذُ معه الاتجاهات التي تحدّثت عنه. حيث يتمّ تأييد وجهة النظر الخاصة بالبحث، وتأييد النتيجة التي انتهى إليها بوجهات نظر متعددة درست الموضوع تكراراً، وعرضته على محك التجربة المستفيدة، من العلوم الحديثة، ومن المكتشفات العلمية الخاصة بالموضوع، التي ظهرت عبر الأعصر المتتالية، على أيدي العلماء الذين أفنوا أعمارهم في الدرس، والتحصيل. مما يزيد في جلاء الحقيقة، أو يوجّه تجاهها مثلما يحدث في مختلف المسائل العلمية المتطوّرة تلقائياً بتطوّر الزمن، وتقادم الدراسة، وكثرة المعالجة، والمباحثة، والتمحيص. وهذا مما يؤكد ما انتهى إليه البحث، أو يصوّبه حياً، بالابتعاد عن الإقحام على الواقع بتزييف الحقيقة، ورداً لبعض الشبهات التي سادت، وانتشرت، تحت تأثير الدراسات التي قام بها هؤلاء المحدثون في كتبهم، وأثاروها بين المتخصصين، والمتعلمين على حدٍّ سواء.

يرى الناظر في آراء المهتمّين بموضوع نشأة النحو من المحدثين، أنها تدور بين: موافق، ومشترط، ومعترض.

موافق نظر في أخبار المتقدمين وأطال التفكير فيها، حتى وجدها صحيحة جديرة بالاتّباع.

ومشترط وافق على بعض هذه الأخبار، فأنكر جزءاً منها، ووافق على البقية التي يراها صحيحة، أو بتعبير آخر وافق عليها بشروط.

ومعترض ، منكر للموضوع عليه أساساً ودوراً .

وعليه نستطيع توزيع أسماء المحدثين وفق الترتيب السالف الذكر : الموافق ، والمشترط ، والمعترض كما يلي :

١ ـ الموافق من مثل : جرجي زيدان[١] ، ومصطفى صادق الرافعي[٢] ، والزيات[٣] ، وفلوجل[٤] .

٢ ـ المشترط من مثل : لشتنشر[٥] ، ومازن المبارك[٦] ، وحسن عون[٧] .

٣ ـ المعترض من مثل : إبراهيم مصطفى[٨] ، وسعيد الأفغاني[٩] ، وشوقي ضيف[١٠]، وأحمد أمين[١١] .

---

(١) هو صاحب الهلال ، والتصانيف الكثيرة ، ولد عام ١٨٦١ م في بيروت وتوفي في مصر ١٩١٤ م من مؤلفاته تاريخ التمدن الإسلامي ، وتاريخ آداب اللغة العربية راجع فيه للزركلي الأعلام ج ٢ ص: ١١٧ .

(٢) لبناني الأصل من طرابلس الشام مولود ١٨٨١ م ووفاته ١٩٣٧ م بمصر بعد صمم طويل له كتب كثيرة منها تاريخ آداب العرب وفي الرد على طه حسين في الشعر الجاهلي (المعركة) راجع فيه الأعلام ج ٧ ص٢٣٥ .

(٣) الزيات محمد حسن ، أديب مصري معاصر ومؤلف معروف له كتب منها تاريخ الأدب العربي .

(٤) جوستاف ليبرشت ، مستشرق ألماني توفي ١٨٧٠ م وهو صاحب فهرست القرآن ، راجع فيه الأعلام ج ٢ ص: ١١٩ .

(٥) هو مستشرق الماني اشترك في وضع المعارف الإسلامية ، راجع فيه لعفيفي ، المستشرقون ج ٢ ص: ٧٨٤ ـ ٧٨٧ .

(٦) هو مازن المبارك ، أستاذ جامعي ، ومؤلف معاصر معروف في الأوساط العلمية ، من كتبه العلّة النحوية والنحو العربي .

(٧) هو حسن عون ، أستاذ من أساتذة جامعة الإسكندرية ، معاصر له كتب منها اللغة والنحو ، وتطوُّر الدرس النحوي .

(٨) إبراهيم مصطفى ، أستاذ جامعي مصري معاصر له كتب منها إحياء النحو .

(٩) أستاذ سوري معاصر ومن المشاهير في تاريخ النحو في العصر الحديث له كتب منها في أصول النحو .

(١٠) شوقي ضيف أستاذ جامعي معاصر مصري ، وصاحب مؤلفات مشهورة في تاريخ الأدب العربي وله المدارس النحوية .

(١١) أحمد أمين عالم بالأدب مولوده ووفاته بالقاهرة ١٩٥٤ م . له كتب مشهورة منها فجر الإسلام ، =

وبالعودة إلى آراء هؤلاء المحدثين ، كل بحسب انتمائه المتقدم الذكر تطالعنا مواقفهم التالية ، ونبدأ بالموافقين على الروايات التي وردتنا عن الأقدمين :

١ ـ يقول جرجي زيدان : « أما واضع العربية ، فهو بالإجماع الدؤلي . . . واختلفت الروايات في ما بعث أبا الأسود على وضع النحو . لكنهم مجمعون على أنه واضعه كما قدَّمنا ، وهو يقول : إنه تلقى ذلك عن علي بن أبي طالب[١] .

٢ ـ أما مصطفى صادق الرافعي فيقول : « أول ما كُتِبَ في الأدب صحيفة أبي الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ . . . . وهي المعروفة بتعليقة أبي الأسود[٢] .

أما الزيّات فيقول : أجمع المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي واضع النحو ، وأن السبب الذي حداه إلى وضعه هو نشوء اللحن ، وهجوم العجمة ثم ذكر قصة أبي الأسود ، وزياد[٣] .

٤ ـ أما فلوجل (فلوغل) فيرى (أن الواضع للنحو العربي هو أبو الأسود الدؤلي[٤] .

هذا بالنسبة إلى الموافقين أما المشترطون على الأقدمين فآراؤهم هي :

١ ـ يقول لشتنشر في دائرة المعارف الإسلامية : إن المادّة الأوّلية لعلم النحو العربي جاءت من المنطق الأرسطي الذي انتهى إلى العرب عن طريق السريان ، وأن مسألة وضع العربية ، ووضع كلمة « نحو » نفسها محاطة بكثير من الغموض[٥] .

٢ ـ أما مازن المبارك فيقول بعد أن يعرض لأهم الروايات التي عالجت الموضوع : « إنه من غير المستبعد أن يكون شيء كهذا (المحادثات بين علي

= وضحى الإسلام ، وظهر الإسلام ، ويوم الإسلام ، راجع للزركلي الأعلام ج ١ ص: ١٠١ .

(١) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ١ ص: ٢٢٥ . حيث يذكر زيدان بعدها قصة الفهرست التي تؤكّد دور الدؤلي .

(٢) مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ج ١ ص: ٢٨٢ ـ ٢٨٧ ، واعيد طبعه ثانية في القاهرة ١٩٥٤ م .

(٣) الزيات ، أحمد حسن ، تاريخ الأدب العربي : ٢٠٠ .

(٤) راجع لفلوجل رأيه الوارد في مقدمة كتاب الانصاف ، نشر جوتهلد فيل ، ص : ٣ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية مادة نحو ج ٣ ص: ٨٣٦ ـ ٨٣٧ في الأصل الإنكليزي أو الفرنسي .

والدؤلي في النحو) قد حصل ولكن أن يكون علي هو الواضع الأوّل للنحو فهذا أمر عجيب مع انهماكه في أمور الخلافة ، والخلاف[1] » . وهذا الرأي قريب من رأي أحمد أمين .

٣ ـ أما حسن عون فيرى أنه « ليس من السهل أن نتردّد في قبول الروايات القائلة بأن الدرس اللغوي أثر قبل سيبويه » بعد أن يلم بإمكان قيام أبي الأسود بما وصلنا ، وبعد أن ينبه على ضرورة الحيطة ، والحذر ، واليقظة ، في فهم الروايات ، وتقويم ما ورد فيها[2] .

ويبقى لدينا أن نعالج آراء الرافضين المعترضين على الأقدمين فيما ذهبوا إليه وآراؤهم هي :

١ ـ مع إبراهيم مصطفى نراه يقول بعد تعليقه على إهمال ابن قتيبة للدؤلي ، وتلاميذه وابتدائه بإبن أبي إسحاق : « فالذي نراه أن أبا الأسود لم يضع قاعدة من قواعد النحو ، ولا أصّل أصلاً من قواعده ، وإنما وضع النقط الذي يضبط به أواخر الكلمات ، بحسب ما تقتضيه السليقة العربية »[3] .

٢ ـ ومع سعيد الأفغاني يرفض الروايات التي تعيد الأمر إلى علي[4] ، وتلميذه أبي الأسود في الحاشية ، بعد أن وافق عليها في المتن ويعزو ذلك ، بتعليق له يتبعه بصوابية رأي أحمد أمين ، الذي سيرد لاحقاً ـ فيقول « لست أدري ، هل أبقت الحروب، والفتن لعلي وقتاً يفرغ فيه للتأليف في العلوم ، وتنقيحها ، واختراعها[5] .

---

(١) مازن المبارك ، النحو العربي ، العلة النحوية ، ص: ٢٩ .

(٢) حسن عون ، اللغة والنحو ، ص: ٢١٢ ـ ٢٥٣ حيث العرض المطوّل لرأيه ، وتطوّر الدرس النحوي ص: ٢٤ ـ ٥٠ وله أيضاً .

(٣) إبراهيم مصطفى ، مقال محمد أسعد طلس في مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلّد ١٤ ص: ٢٧١ ـ ٢٧٦ المقطع الثالث ص: ٢٧٤ والمقال بعنوان (وضع النحو) .

(٤) سبقت معالجة هذا الجانب بالتفصيل ، وعينّا طريقة الأخذ بأصح الروايات ، راجع هذا في الباب الرابع من هذا الكتاب تحت عنوان أسباب وضع النحو ص ١١٣ ـ ١٢٩ .

(٥) سعيد الأفغاني ، في أصول النحو ص: ١٣٦ في الحاشية .

هذا بعد قبوله بنقط القرآن مع أبي الأسود الدؤلي ، بنقط الأعراب ، دون غيره من الأعمال .

٣ - ومع شوقي ضيف يطالعنا رفضه للروايات التي تحدثت عن بدايات النحو مع علي ، والدؤلي بشكل يعتمد فيه على إضطراب الروايات في ذلك ، وينحو بشأن ذلك الإضطراب منحى الطعن على الشيعة الذين كانوا سبب الدَّس ، والاستزادة منها كما يرى ، ولا يقبل بغير نَقْط القرآن الأمر الذي دعا إلى عبث الرواة بنسبة النحو إليه ، لأنه قيل أنه وضع العربية(١) .

٤ - وننتهي مع أحمد أمين الذي « يرى أن تأريخ النحو في منشئة غامض كل الغموض . . . . وكل ما ذكروه (الرواة) لا يشفي غليلاً ، ويعلق قائلاً : كل هذا حديث خرافة ، فطبيعة زمن علي ، وأبي الأسود ، تأبى هذه التعاريف ، وهذه التقاسيم الفلسفية »(٢) .

وعليه نستطيع أن نناقش هذه الآراء على الصور التالية :

بالنسبة إلى الموافقين يلاحظ عدم إهتمامهم بمعالجة الموضوع من النواحي العقلية القائمة على إمكان التشكيك فيما ورد من أخبار عن مرحلة النحو الأولى ، وإنما اكتفوا برواية ما انتهى إليهم من أخبار النحو الأولى عبر الروايات المختلفة المتحدثة عن الموضوع والتي تشكِّل المصادر الأساسية له بألسنتهم ، وعبر كتبهم بصورة معممة تقبل بالنتائج القديمة ، ولا تحاول مناقضته بمنطق عقلي ، أو تفكير تشكيكي يقوم على أساس الشك في أي شيء ورد عن الأقدمين في الموضوع . فضلاً عن كون أتباع هذا الموقف من رواة الأدب ، ومؤرخيه ولذا نلاحظ تأثير عملهم على مناهجهم في الرواية ، والنقل - لأن لكل عمل صفاته العملية ، والعلمية الخاصة - حيث يهتمون بنقل الأخبار بعد اطمئنانهم إلى أسانيدها ، كدلالة على صحته ، بما يوافق مناهج المؤرخين في العمل دون أن يبادروا إلى نقضه بحجج

---

(١) شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، ص: ١٢ - ١٧ ، والعصر العباسي من تاريخ الأدب ص: ١٢١ .

(٢) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص: ٢٨٥ - ٢٨٧ .

عقلية ، أو بإستنتاجات شخصية ، لخروج هذا الأمر عن دائرة عملهم . ولذا فهم يهتمون برواية القديم بأسلوب جديد ، لإيصال المعلومات التي تمكنوا من تحصيلها ، مع بعض المقارنات ، والإستنتاجات دون أي عمل آخر ، ودون أي شك في أساس العمل الذي يسجّلون أخباره .

أما بالنسبة إلى المشترطين : فأننا نلاحظ إهتمامهم بالموضوع عقلياً أكثر من هؤلاء الذين كانوا الروّاد في الحديث عنه ؛ لتقدم الزمن بهؤلاء الروّاد الأمر الذي حرمهم من مواكبة بداية الدراسات المتخصصة في الموضوع ، بعد إختصاص هذه الفئة (المشترطين) بأمور النحو . إذ أن أصحابها الثلاثة من المشاهير في هذا المجال فالأوّل من واضعي دائرة المعارف الإسلامية ، أما الثاني ، والثالث فما يزالان يشاركان بجهد في العمل النحوي حتى أيامنا ، وهما من المشاهير ، والمعروفين في مجال النحو في العالم العربي بدراساتهما النحوية . ولكننا نشير إلى إمكان قسم آرائهم إلى قسمين :

١ ـ قسم يؤيدون فيه آراء الموافقين ، والأقدمين من الرواة ، والعلماء حول بدايات النحو الأولى ، وأصالة دور الإمام علي ، وأخذ الدؤلي عنه .

٢ ـ قسم يؤيدون فيه الرافضين لتأثرهم بطرائقهم في التفكير ، ولجريهم على نهج الطرائق التي جاء بها بعض المستشرقين . كما هي الحال في أعمال دائرة المعارف ، ولاعتمادهم في استنتاج آرائهم على أفكارهم ، وقرائحهم محاولين الوصول إلى حقائق الموضوع بصور عقلية بحتة ـ كما يرون ـ ولكن اشتراطهم هذا لا يتجاوز حدود التحذير من التسليم الكلي ، والإرادي لما حملته الأخبار الأولى عن البدايات النحوية .

أما بالنسبة إلى المعترضين ، فنحن نرى أن أعمالهم بحاجة إلى بعض التوسّع في التعليق ، والمناقشة ؛ لوضعها في المكان الذي تستحقه ، دون إجحاف وتقصير ، أو تسليم وانقياد .

فالناظر إلى تعليق إبراهيم مصطفى ، يرى فيه ثغرات مهمة جديرة بالتعليق . لأنها أشنع من التي أخذه على الموضوع الذي ينتقده ، ويثير اللغط حوله . فهو قد

أهمل مضمون سبع عشرة رواية[1] ، لمجرَّد عثوره على شيء يكاد أن يكون واهياً ، وغير مجد ، لردِّ موضوع تأكد هذا التأكيد الواسع من العلماء على اختلاف أزمانهم ، وأماكنهم ، عند حديثهم عن أمر البدايا ت النحوية التي ارجعـوها إلى الـدؤلي ، وأستاذه . إذ استنتج بإعتماده على عمل لإبن قتيبة[2] . أن هذا العمل « لا بـد أن يكون وراءه شيء »، علماً أن ابن قتيبة الدينوري نفسه يروي في كتاب آخر له هو كتاب « الشعر والشعراء » ـ وهو من أشهر كتبه ـ خبر الدؤلي « بأنه من النحويين » ، « بأنه أول من عمل في النحو كتاباً » . وهذا مما يناقض ذلك الاستنتاج ، إذ ربما هدف الدينوري إلى شيء آخر غير ما استنتجه مصطفى ؟ وهذا فضلاً عن دحضـه لأدلة سندية متواترة، ومشهورة ، بإستنتاج عقلي بحت لا يـدعمه أي سنـد تاريخي وثائقي إضافة إلى تناقض أجزاء تعليقه الآنف الذكر بعضها مع بعض فهو بعد رفضه لوضع الدؤلي لأي قاعدة من قواعد النحو ، أو لأي أصل من أصول النحو . ينبري إلى القول بأنه يوافق على أن الـدؤلي نقط القرآن ، بضبط أواخـر كلماتـه بحسب السليقة ناسياً ، أو جاهلاً أن ما قرره يقضي ، ويستوجب مـا أنكره إذ لا يعقـل أن يمارس أبو الأسود الدؤلي هذا العمل الأخير من دون معرفة علمية تمكِّنه منه ، وتمكُّنه من المحافظة على سليقتـه ، التي خسر الآخـرون ما يشبهها ـ تبعاً لقـانون التـأثير والتأثر[4] ـ ونحن نعـلم أن أبا الأسود لم يعتزل الناس ، ولم ينقطع عنهم إطلاقاً[5] كما لا يعقل أن يمارس الدؤلي عملاً علمياً دون أن يحرز المقدمات التي تهيء لذلك العلم . إضافة إلى استحالة الفصل بين إعراب القرآن بالحـركات ، وبين الأصـول الـداعية إلى الاختلاف بالإعـراب رفعـاً ، أو نصبـاً ، أو جـرّاً ، وهي مـا سمينـاه بالحروف .

---

(١) في هذا الموضوع الصفحتان ٨١ ـ ٨٣ من هذا الكتاب .

(٢) ترك ابن قتيبة في كتابه « المعارف » الحديث عن الـدؤلي وتلامـذته حين عـدَّ رجال النحـو وطبقاته ، وبدأ بطبقة عبد الله بن أبي أسحق .

(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج ٢ ص: ٧ تحت رقم ١٦٩ . . . .

(٤) راجع في هذا الصفحات ١٣١ ـ ١٤٠ مع حاشيتها من هذا الكتاب .

(٥) دليلنا على ذلك نص الروايات كلها على مدافعة الدؤلي للنحو وراجع في ذلك الصفحة ١٠٤ من هذا الكتاب مثلاً .

وهكذا بالنسبة إلى سعيد الأفغاني الذي يرفض بدوره الروايات التي نصت على البدايات الأولى مع علي ، والدؤلي من دون أن يعتمد سبباً وجيهاً ، أو مقنعاً في الموضوع . فقد علّق على الاضطراب في الأخبار التي حدَّثت عن البدايات وكأنه يطلب إلى العلماء أن يستخدموا التعابير اللفظية نفسها في روايتهم لأخبار النحو علماً إن هذا الاضطراب يراه هو ولا يراه غيره(1) . فلقد سبق وذكرنا أن سبع عشرة رواية إتفقت على إبتداء النحو مع الدؤلي الذي يعيد أمر البدايات بدورها إلى علي(2) . مع الإشارة إلى أن كل رواية حدَّثت بطريقة خاصة بها فبينما تذكر الواحدة ، وهو واضع النحو ، تقول الثانية ، وهو أول من وضع النحو ، وتقول الثالثة : فوضع النحو ، والرابعة أول من وضع العربية . ويحتج للدلالة على صحة ما ذهب إليه بإستنتاج عقلي يرفض معه في الحاشية كل ما قيل عن علي ، وما كان قد ذكره في المتن مورداً رأياً لأحمد أمين ، يصف فيه هذه الأحاديث بالخرافة قائلاً : « ولست أدري هل أبقت الحروب والفتن لعلي ، وقتاً يفرغ فيه للتأليف في العلوم ، وتنقيحها وإحترافها »(3) . وهذا كما هو واضح ليس بالسبب الوجيه أولاً ، ولا المقبول علمياً ، لردّ ودحض أخبار في العلم أيدتها الروايات بهذا الشكل من الرواية المتعددة الأسانيد ، فضلاً عن اضطرابه هو في آرائه بين المتن ، والحاشية .

وأما شوقي ضيف فلقد رفض الروايات كلها كم رفض ما حدَّثت به من بدايت كانت مع علي ، والدؤلي . وقد إعتمد في رفضه على كلمة « إضطراب » حيث يسرد بعض الروايات التي يَراها متناقضة(4) . ثم يقول مناقضاً نفسه « وقد تتفق الروايات في الواضع الأول للنحو عند أبي الأسود(5) . ولكنها تضطرب في السبب . . . ثم

---

(1) الصفحتان ٨١ ـ ٨٣ من هذا الكتاب .

(2) الصفحة ١٢٩ من هذا الكتاب ، تحت عنوان واضع النحو العربي وما بعدها .

(3) الأفغاني ، في أصول النحو ، ص: ١٣٦ الحاشية .

(4) يذكر رواية السيرافي التي تقول قال القائلون : أبو الأسود ، وقيل نصر . . وقيل عبد الرحمن وأكثر الناس على أنه أبو الأسود وواضح أن الرواية ترد على نفسها وقد ناقشنا ذلك راجع الصفحات ١٣١ و ١٣٤ و ١٣٨ و ١٥٠ و ١٥٢ .

(5) شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، ص: ١٤ ، المقطع الأخير .

ينحو باللائمة على الرواة وعبثهم ؛ لوضعهم ، وتزيدهم بعد أن يهاجم الشيعة الذين نحلوا علياً ، أو الدؤلي ذلك محتجباً بجواب الأفغاني السابق أعلاه في انشغال علي بالحرب والجيوش . وهذا ما لا يقبله عاقل ولا يرضاه عالم حيث يبدأ الباحث بعبارات تفيد رفض الروايات لاضطرابها . ثم يقبل بها ، لأنها يمكن أن تتفق عند الواضع ، ولكنها تختلف عند سبب الوضع ، ثم لا يكتفي بذلك بل ينعت الرواة لوضعهم ، علماً أنهم كانوا من أكابر العلماء علماً ومكانة[1] ، وتحقيقاً ، وتدقيقاً ثم يتجاوز ذلك إلى نعت الأقدمين ، والمحدثين بالإشتباه[2] ، ثم يتجاوز ذلك إلى نعت جماعة الشيعة ، وكأنه لم يكلّف نفسه إحترام أبسط القواعد العلمية التي تفرض بناء الأحكام على الأسس العلمية ، والمنطقية المقبولة فضلاً عن عدم إهتمامه بالبحث ، والتنقيب ، والمقارنة قبل أن يصدر أحكامه المتعسّفة العاجلة التي ربما يكون قد دعا إليها إفتقاده لكتاب يغني تاريخ المدارس النحوية في المكتبة العربية الحديثة كما ذكر في مقدّمة الكتاب[3] وعليه يخرج من موضوع البدايات الأولى مع الدؤلي بالإقرار له بنقط القرآن فقط ، ولقد مرَّ نقاش هذا الأمر[4] .

وننتهي مع الرافضين بالحديث عن اعتراض أحمد أمين ، الذي يرفض كلّ ما جاء في الموضوع من روايات ، وأخبار تُحدِّث بالبدايات مع علي ، والدؤلي باستنتاج عقلي أيضاً يفتقر فيه إلى الدليل السندي الذي يعطّل به ما نعرفه من روايات لأن الحديث بالتعارف ، والتقاسيم في هذه المرحلة ، ومن وجهة نظره ليس إلا ضرباً من البله مما يكفينا مؤونة الرد ، لأن الطريقة العلمية ترفض ، بكل بساطة ، وهدوء ردوداً إنفعالية تعتمد على العاطفة ، لأنها تجتاح المرء عند المفاجآت ، فتدفعه إلى التسرُّع في التعبير . وهي ردود بعيدة عن أصول التحقيق العلمي .

---

(١) راجع في هذا الموضوع ما ورد من أخبار هؤلاء الأعلام الكبار في الصفحتين ٨١ ـ ٨٣ من هذا الكتاب حيث تعيدك الروايات إلى المصادر والمراجع التي تستقي منها معلومات تامة حول هؤلاء الأعلام .

(٢) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ص: ١٢١ .

(٣) شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، ص: ٥ السطر ٣ .

(٤) راجع من هذا الكتاب ص ١٣٩مع هامشها وكذلك الصفحة ١٦٩ مع نظيره إبراهيم مصطفى .

وهنا نصل إلى النقطة الأخيرة التي تتطلب منا إصدار الحكم النهائي ، والشامل على آراء الفرقاء الثلاثة مجتمعة بما يفرضه البحث العلمي المتجرِّد ، والذي لا يبحث إلاَّ عن الحقيقة ؛ الغاية المنشودة التي نسعى وراءها بعد هذا العرض المستفيض دونما إقحام ، أو إسقاط .

وعليه نقول إن أتباع الفريق الأول ، وهم «الموافقون» كما سميناهم لم يكلفوا أنفسهم عناء النقاش ، وأكتفوا برواية ما كان ، لأنهم رأوا صدق الروايات القديمة لوفرة عددها، وتواترها، وتعدد أسانيدها ، واختلاف مصادر روايتها . ولأنهم لم يتصلوا (أي الرواة) للموضوع بنية النقد والإنتقاض ، ولذا حاولوا أن يقوموا بعبء نقل ما انتهى إليهم من أخبار ، وعلوم بأفضل ما يتمكنون به من وسائل ، وطرائق في التعبير .

وأن أتباع الفريق الثاني أي « المشترطين » يقبلون على حذر لأنهم يتورَّعون عن قبول كل ما وصل إليهم من أخبار عن الأقدمين لإمكان إختلاط الصحيح بالخطأ ، أو إمكان الفهم المخالف للصورة التي أرادها صاحب الرواية أو الناقل لها ـ على سبيل الاحتمال والتأويل ـ وهذه سمات العالم الحقيقي الذي يعمل بموضوعية تفرضها عليه المنهجية العلمية الدقيقة ، ولذا يمكن الحكم على هؤلاء العلماء بأنهم تعمَّدوا السير بتؤدة مخافة الوقوع في المحاذير ، أو التطرُّف بالأحكام بإعتماد المقدِّمات الفاسدة ، والتي توصل إلى نتائج فاسدة .

أما الفريق الثالث ، وهو فريق « المعترضين » ، فأتباعه أعملوا عقولهم في كل ما وصل إليهم من أخبار وروايات وحاولوا الاستنتاج بناءً على آراء خاصة ظهرت مع العصر الحديث، بتأثير الدراسات المختلفة لا سيما على أيدي المستشرقين الذين عُرفوا بطرائقهم الخاصة في التفكير، والتعبير. ولقد بدأ الاعتراض بعد أن أخضع هؤلاء ما انتهى إليهم من روايات إلى أحكامهم العقلية المرتكزة على الجدل ، وطعنوا في صحَّته وشككوا في دقتها ، وسلامتها ، ناسين ، أو متناسين أن عملهم هذا سابقة خطيرة تدعونا إلى الطعن في وجود كثير من الأمور التاريخية ، والعلمية ، لمجرَّد الإختلاف إلى أصل معين ، من حيث السبق والإيجاد ، أو من حيث الاستزادة والتطوير. وقد فاتهم أن الإضطراب والإختلاف في أمر ما لا يعني عدم وجوده ، أو

جواز ردِّه من أصله . علماً أنهم سقطوا فيما نهوا عنه فلقد وافقوا بأجمعهم على نقط القرآن مع الدؤلي ، ورفضوا البدايات النحوية معه ، لأمور عقلية استنتجوها ، وقرروها[1] . مع العلم أن نقط القرآن عُزي إلى أكثر من إنسان أيضاً[2] . وهذا إضطراب بيِّنٌ في عملهم . فبينما هم يرفضون بعض الأعمال للإضطراب في الأخبار الخاصة بها ، إذا هم يقبلون بأخرى تشكو من الإضطراب نفسه ، ـ حسب ـ مذهبهم ـ فضلاً عن أن هذا الفريق يحاول أن يبطل العمل بروايات متواترة منقولة ليعمل برأيه واستنتاج عقله الذي لا يستند إلى أيِّ دليل سندي إطلاقاً . وعليه نقول : إن المحدثين في قسميهم الأوَّل ، والثاني مصيبون ، أما الفريق الثالث مخطىء ، للتشدُّد البالغ من دون داعٍ ، وللحكم القاطع دون دليل ناجع . وعليه يتبين لنا فساد تلك الشبهات التي انتشرت بعوامل دراساتهم في النحو .

(١) الصفحات ١٦٩ ـ ١٧٢ من هذا الكتاب .

(٢) في هذا الموضوع انظر أخبار الروايات الواردة ص: ٨١ ـ ٨٣ من هذا الكتاب فلقد مرَّ ذكر الموضوع ومفاده اشتهار ثلاثة فيه هم : الدؤلي وهذا هو الأصح والأشهر ، ويحيى بن يعمر كما جاء في وفيات الأعيان ، ج ٢ ص: ٢٢٧ ط ١٣١٠ هـ وبغية الوعاة ج ٢ ص: ٣٤ وثالثهم نصر بن عاصم كما جاء في الوفيات ج ١ ص: ١٢٥ ، والبغية ج ٢ ص: ٣١٣ . ويرى السيوطي أنهم أربعة بإضافة الحسن البصري ، كما في الاتقان ج ٢ ص: ٢٩٠ .

خاتمة

في نهاية المطاف ، وبعد هذه المعالجة الشاملة لموضوع النحو العربي في تاريخه ، النظري والعلمي مع مدرستي البصرة والكوفة . يمكن القول انطلاقاً من المنهج المتَّبع ، ومن الحقائق التي كُشف عنها : إن البحث قد حاول معالجة كل ما يتعلّق بموضوع النحو ، دون إقحام ، أو إسقاط على واقع هذا الموضوع البالغ الأهميَّة على صعيد الثقافة في العصر الإسلامي وما تلاه .

بناء على ما تقدَّم ، تمَّ التمهيد لبحث الموضوع بالحديث عن الوضع اللغوي عند قدامي العرب ، لتسليط الأضواء على الجوانب المتصلة بالموضوع والتي كانت ، أسساً له ، ثم تتابع سرد التفصيلات المتعلّقة به حتى تمَّ استعراض كل ما يتعلق به ، ولذا يمكننا القول : إن الموضوع قد اتضح بشكل عام إذ تمَّت معالجته على أساس التعرُّف على المراحل الأولى التي سبقت وجوده ، وهيأت له أسباباً وأسساً ، ومفاهيم قبل الشروع به لمعالجته بشكل خاص كونه المحور الذي وُضع هذا الكتاب من أجله وقد كانت النتائج على الشكل التالي :

١ ـ إن كلمة نحو أصيلة كل الأصالة في وضعها اللغوي ، وفي استعمالها الاصطلاحي قد عرفها العربي ، وعرف دلالتها لغوياً أولاً ، ثم أدركها اصطلاحاً بعد ممارسته المتعمدة لها بعد وضع علم النحو[1] .

٢ ـ النحو فرع من فروع اللغة ، ينضوي تحت لوائها ، ويخدمها بأمانة حباً

---

(١) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٢٣ ـ ٢٦٠ .

بالحفاظ على الأصل الذي انطلق منه(١) .

٣ ـ الممارسات النحوية العربية قديمة ، أصيلة ، ومستحدثة ، مستجدة في آنٍ معاً فقد عرفها العربي في مرحلة متقدمة من تاريخه نحدِّدها بمرحلة وعيه على الإلمام بالمسائل اللغوية، والتعبيرية. ولذا قرَّ الرأي بقدم تلك الممارسات عبر مفهوم النحو العملي(٢) ، كما قرَّ الرأي بجدتها، وحداثتها عبر ما أظهرته الدراسة من التحوُّل تجاه النحو النظري ، ومفهومه(٣) .

٤ ـ قرَّر البحث دور السليقة المهم في الممارسات اللغوية ، والنحوية خاصة مع المراحل الأولى التي خطا فيها العقل تجاه إيجاد البنية الأساسية للنحو العلمي . حيث استقرأ السليقة ، واستنفد معطياتها في سبيل ذلك(٤) .

٥ ـ أكَّد البحث قدم موضوع اللحن ، لاستحالة عزل العرب عزلاً تاماً عن غيرهم من الشعوب ، وعزلهم عنه لكثرة أسبابه ، ودوافعه ولذا قرَّر البحث فساد بعض ما وصلنا من الشعر الجاهلي وقد تفرَّد بهذا لما تيسر له من أدلَّة ، وبراهين ترفض وجود اللحن بصورة مفاجئة طارئة مع العصر الإسلامي، الأمر الذي رافق أثرها معظم الدراسات التي نظرت إلى تلك المرحلة ، وذلك الموضوع نظرة التقديس ، والإجلال المطلقين من دون راعٍ ، أو موجب(٥) .

٦ ـ أكَّد البحث قِدَم كلمة لحن ، وقِدَم معرفة العرب بها فقد عرفوها جاهلياً ، واستمرت معرفتهم بها إسلامياً ، وطبقت معرفتهم بها أموياً بعد أن نما اللحن وشاع . كما أكَّد البحث معرفة العرب الأوائل لكلمة « لحن » بمعناها الدقيق والخاص ، بعد مقارنته لمعنى كلمتي لحن وخطأ . الأمر الذي أكَّد بدوره قدم تلك الممارسات النحوية ، وعدم ظهور اللحن بصورة مفاجئة(٦) .

---

(١) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٢٦ ـ ٣٠ .
(٢) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٣١ ـ ٣٢ .
(٣) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٣٢ ـ ٣٣ .
(٤) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٣٥ ـ ٤١ .
(٥) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٤٥ ـ ٥٧ .
(٦) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٥٨ ـ ٦٥ .

٧ ـ وزّع البحث اللحن بعد أن جمعه من مصادره على شتاتها ، وتنازحها ، على الزمان ، والمكان ، والموضوع فجعله جاهلياً ، وإسلامياً ، وأموياً ، حسب الزمان ، وبدوياً وحضرياً ، حسب المكان ، ولغوياً ، ولغوياً قرآنياً ، حسب الموضوع . ثم وزّعه على درجاته من الخطورة مما يسّر معرفة السبب المباشر في وضع علم النحو ، أو النحو النظري[1] .

٨ ـ قرّر البحث أثر القرآن المباشر في وضع النحو علماً ، بعد أن سبقت ممارسته سليقة ، وتقليداً[2] .

٩ ـ قرّر البحث دور الإمام علي الرائد ، في موضوع تأصيل النحو ، وتأسيسه كونه المحدِّد الأول ، والمقنّن الأسبق ، والمؤسّس الأوحد الذي جاز بالنحو من الممارسات السليقية ، إلى وضع الأسس العلمية[3] .

١٠ ـ قرّر البحث دور الدؤلي الذي قام به ، بإرشاد ودُلّة من علي بن أبي طالب وقد مثّل فيه الدؤلي دور المعلّم الأوّل للنحو العربي الجامع للعلم والسليقة ، والمتصدّي لتعليم الناس ، وتعميم العلم ، والتوسّع فيه[4] .

١١ ـ تفرّد البحث بإبراز الدواعي التي حدت بالقرآن إلى تبنّي لهجة قريش من دون أن يسلك طريق غيره بالتقديس ، والإجلال لهذه اللهجة . الأمر الذي عاد بالنتيجة إلى الحلقة المفرغة في تقديس اللغة العربية ، وأهلها دوا داعٍ ، أو موجب وفي هذا من الإسقاط ومغايرة الحق والواقع ما فيه . فأبرز تلك الدواعي منطلقاً من الواقع الكائن لا المُتصور ، مبيناً فضل القرآن في تثبيت هذه اللهجة إسلامياً ، بعد نجاحها جاهلياً في عملية التواصل[5] .

١٢ ـ قرّر البحث أسباب وضع النحو بلهجة قريش من دون غيرها . فجعلها

---

(١) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٦٦ ـ ٨٠ .

(٢) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٨١ ـ ٨٤ .

(٣) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٨١ ـ ٨٧ .

(٤) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٨١ ـ ٨٧ .

(٥) راجع في هذا الموضوع الصفحات ٩١ ـ ١٠٤ .

مرتبطة بالقرآن ، ونزوله بها من دون أيِّ شيء آخر[1] .

١٣ ـ حصر البحث أسباب وضع النحو العربي حسب ورودها في مظانها بعشرة أسباب استخلص منها السبب المباشر الداعي إلى وضع النحو العلمي ، وقد اعتمد في ذلك على مبادىء ووسائل علميَّة مكَّنته من هذا العمل مع الأسباب المتعدِّدة التي جمعها ورتَّبها بشكل خاصٍّ فريد[2] .

١٤ ـ قرَّر البحث أن مفهوم النحو عند الدؤلي لم يتجاوز حدود الاستقراء للسليقة ، والاحتذاء لعمل الإمام علي ، والتقيُّد بحدوده ، والتصدِّي للُّحون عبر المستجدَّات دون ما يحاول الدارسون المحدثون إلصاقه به ، أو إنكاره عليه[3] . من عدم معرفته بمؤدى كلمة «نحو» فكيف يقوم بعملها ، الذي يفهم حالياً من أنها قواعد تصون اللسان عن الخطأ[4] .

١٥ ـ أكَّد البحث وجوب الفصل بين تاريخ وضع علم النحو ، وتاريخ نشره عند حديثه عن سبب وضع النحو العلمي مع الإمام علي والدؤلي . ولذا اقترح تسمية الأسباب المرافقة لعمل الدؤلي بأسباب نشر النحو ، لا وضعه لأن الأوَّل وضع الأسس ، والثاني نشرها وعمَّمها وعمل بها[5] .

١٦ ـ أكَّد البحث إعراب اللغة ، من خلال الحديث عن السبب الداعي إلى إيجاد علم النحو بعد أن تأكَّد احتذاء العلماء للأشكال التعبيرية المتقدِّمة ، والذي لا مندوحة معها من التفكير بالإعراب خاصة مع عملية السليقة ، وإعراب القرآن[6] .

١٧ ـ أكَّد البحث سبق الأمور الفرعية في النحو لغيرها من الكليَّة الجامعة . كما

---

(١) راجع في هذا الموضوع الصفحات ١٠٥ ـ ١١٠ .
(٢) راجع في هذا الموضوع الصفحات ١١٣ ـ ١٢٨ .
(٣) راجع في هذا الموضوع الصفحات ١٢٩ ـ ١٣١ .
(٤) راجع في هذا الموضوع الصفحات ١٣١ ـ ١٣٦ .
(٥) راجع في هذا الموضوع الصفحات ١٣٦ ـ ١٣٨ .
(٦) راجع في هذا الموضوع الصفحات ١٣٩ ـ ١٤٧ .

أكّد تتابع تلك الأمور حتى تهيأ قيام البناء النحوي العام بعد أن تمّ حصر المسائل المتعلّقة بالموضوع(١) .

١٨ ـ قام البحث بتأكيد حقيقة أن علامات الإعراب المستحدثة مع مرحلة الشكل والنقط بنقط الإعراب مع الدؤلي ، دلالات على الحركات التي كانت تمارس سليقة مع مرحلة إعراب اللغة سابقاً(٢) .

١٩ ـ أكّد البحث شيوع اللحن في أواخر الكلمات ، بدليل توجيه الاهتمام إلى إعراب الأواخر من كلمات القرآن ، فضلاً عن دليل التباس المعاني ، والمقاصد الناتج عن عدم الإعراب(٣) .

٢٠ ـ أكّد البحث خطأ الروايات المتحدّثة عن بدايات للنحو مع غير الدؤلي عند من علّق عليها أهمية من الأقدمين والمحدثين(٤) .

---

(١) راجع في هذا الموضوع الصفحات ١٤٧ ـ ١٥٣ .
(٢) راجع في هذا الموضوع الصفحات ١٥٤ ـ ١٥٦ .
(٣) راجع في هذا الموضوع الصفحات ١٥٧ ـ ١٦٠ .
(٤) راجع في هذا الموضوع الصفحات ١٦١ ـ ١٧٤ .

المصادر

١ - ابن أبي داود ، عبد الله بن سليمان (+ ٣١٦ هـ) ، المصاحف ، نشر ليدن عام ١٩٣٧ م .

٢ - ابن الجزري ، محمد بن محمد (+ ٨٣٣ هـ) ، النشر في القراءات العشر ، دمشق ، ١٣٤٥ هـ .

٣ - ابن جني ، عثمان (+ ٣٩٢ هـ) الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، بيروت دار الهدى ، ط ٢ ، لا . ت .

٤ - ابن حجر ، العسقلاني ، (+ ٨٥٢ هـ) ، الإصابة في تمييز الصحابة ، القاهرة ط ١٣٥٨ هـ .

٥ - ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (+ ٨٠٨ هـ) ، المقدِّمة ، بيروت دار القلم ط ١٩٧٨ م .

٦ - ابن خَلِّكان ، أحمد بن محمد (+ ٦٦١ هـ) وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ، مصر ، ط ١٣١٠ هـ .

٧ - ابن سعد ، محمد (+ ٢٣٠ هـ) ، الطبقات الكبير ، بيروت ، دار صادر ، ودار بيروت ، ط ١٩٥٧ م .

٨ - ابن سلاّم الجمحي ، محمد (+ ٢٣٢ هـ) ، طبقات الشعراء ، مصر ، دار المعارف ط ١٩٢٠ م .

٩ - ابن عساكر ، علي بن الحسن (+ ٢٣٢ هـ) تهذيب تاريخ ابن عساكر ، لعبد القادر بدران ، دمشق المكتبة العربية ١٣٤٩ - ١٣٥١ هـ .

١٠ ـ ابن فارس ، أحمد بن فارس (+ ٣٩٥ هـ) ، الصاحبي في فقه اللغة ، القاهرة ، المكتبة السلفية ط ١٣٢٨ هـ .
١١ ـ ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (+ ٢٧٦ هـ) ، الشعر والشعراء ، بيروت داء الثقافة ط ١٩٦٤ م .
١٢ ـ ابن منظور ، محمد بن مكرم (+ ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر الطبعة الأخيرة ، ١٥ مجلداً ، لا تاريخ نشر .
١٣ ـ ابن النديم ، محمد بن إسحاق (+ ٣٨٥ هـ) ، الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ط ١٩٧٨ م .
١٤ ـ ابن هشام ، عبد الملك (+ ٢١٣ هـ) ، السيرة النبوية ، بيروت ، دار الجيل ، ط ١٩٧٥ م .
١٥ ـ ابن هشام ، عبد الله بن يوسف (+ ٩٦١ هـ) ، مغني اللبيب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ط ١٩٥٩ م .
١٦ ـ ابن يعيش ، موفق الدين بن علي (+ ٦٤٣ هـ) شرح المفصَّل للزمخشري ، القاهرة ، المطبعة المنيرية لا . ت .
١٧ ـ ارسطو ، فن الشعر ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١٩٥٣ م .
١٨ ـ الاستراباذي ، محمد بن الحسن (+ ٦٨٦ هـ) ، شرح الكافية لابن الحاجب ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١٩٧٩ م .
١٩ ـ الاستراباذي ، محمد بن الحسن (+ ٦٨٦ هـ) ، شرح الشافية لابن الحاجب ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١٩٧٥ م .
٢٠ ـ الأشموني ، علي بن محمد (+ نحو ٩٠٠ هـ) ، منهج السالك إلى ألفية ابن مالك ، حقَّقه محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ ، ١٩٥٥ م .
٢١ ـ الأصبهاني ، أبو الفرج ، علي بن الحسين (+ ٣٥٦ هـ) ، الأغاني ، بيروت ، دار جمَّال ، وهي مصورة عن طبعة دار الكتب لا . ت .

٢٢ ـ الأنباري ، أبو البركات ، عبد الرحمن بن محمد (+ ٥٧٧ هـ) ، نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء ، تحقيق إبراهيم السامرّائي ، بغداد ، مكتبة الأندلس ، ط ٢ ، ١٩٧٠ م .

٢٣ ـ الأنباري ، أبو البركات ، الإنصاف في مسائل الخلاف ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، المكتبة التجارية ط ٣ ، ١٩٥٥ م .

٢٤ ـ البغدادي ، عبد القادر بن عمر (+ ١٠٩٣ هـ) خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ ـ ١٩٨١ م .

٢٥ ـ التوحيدي أبو حيان ، علي بن محمد (+ ٤٠٠ هـ) ومسكويه أحمد بن محمد(+ ٤٢١ هـ) الهوامل ، والشوامل ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ١٩٥١ م .

٢٦ ـ ثعلب ، أحمد بن يحيى ، (+ ٢٩١ هـ) مجالس ثعلب تحقيق عبد السلام هارون مصر ، دار المعارف ، ط ٣ ، ١٩٤٨ م .

٢٧ ـ الجاحظ ، أبو عثمان ، (+ ٢٥٥ هـ) البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ط ١٩٦٨ م .

٢٨ ـ الجرجاني ، علي بن عبد العزيز (+ ٣٩٢ هـ) ، الوساطة بين المتنبي ، وخصومه تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ٣ ، ١٩٥١ م .

٢٩ ـ الجوهري ، عبد الله بن سليمان ، (+ ٨٨٣ هـ) المواهب السنية في شرح الفرائد البهية ، تحقيق علي مالكي ، القاهرة ، المكتبة التجارية ١٩٣٦ م .

٣٠ ـ الحليّ ، الحسن بن يوسف (+ ٧٢٦ هـ) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد لمحمد بن حسن الطوسي (+ ٦٧٢ هـ) ، بيروت ، دار الأعلمي ، ط ١٩٧٩ م .

٣١ ـ الخوئي ، أبو القاسم ، المسائل المنتخبة ، بيروت ، دار الغدير ، ط ١ ، ١٩٧٩ م .

٣٢ ـ الخوئي ، أبو القاسم ، منهاج الصالحين ، بيروت ، دار الغدير ، ط ٢ ، ١٩٧٣ م .

٣٣ ـ الخوارزمي ، محمد بن أحمد ، (+ ٣٨٧ هـ) مفاتيح العلوم ، مصر ، المطبعة المنيرية ، ط ١٣٤٢ م .
٣٤ ـ الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن (+ ٣٧٩ هـ) طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ، إبراهيم ، ط ١ ، ١٩٥٤ م .
٣٥ ـ الزجَّاجي ، أبو القاسم ، عبد الرحمن بن إسحاق (+ ٣٣٧ هـ) ، الإيضاح في علل النحو ، تحقيق مازن المبارك ، القاهرة ، مكتبة دار العروبة ١٩٥٩ م .
٣٦ ـ الزركشي ، محمد بن بهادن (+ ٧٩٤ هـ) ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١٩٥٧ م .
٣٧ ـ الزمخشري ، محمد بن عمرو (٥٣٨ هـ) أساس البلاغة ، بيروت ، داء المعرفة ط ١٩٧٩ .
٣٨ ـ سيبويه ، عمر بن عثمان (+ ١٨٠ هـ) ، الكتاب ، القاهرة ، بولاق ، ط ١٣١٦ ـ ١٣١٧ هـ .
٣٩ ـ السيرافي ، الحسن بن عبد الله (+ ٣٦٨ هـ)أخبار النحويين البصريين ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ط ١٩٣٦ م .
٤٠ ـ السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (+ ٩١١ هـ) ، بغية الوعاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر ، مطبعة الحلبي ، ط ١ ، ١٩٦٥ م .
٤١ ـ السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (+ ٩١١ هـ) المزهر في علوم اللغة وأنواعها مصر ، دار إحياء الكتب العربية ط ٣ .
٤٢ ـ السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (+ ٩١١ هـ) جمع الهوامع في شرح جمع الجوامع تحقيق بدر الغساني ، القاهرة ، طبعة الخانجي ، ١٣٢٧ هـ .
٤٣ ـ السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (+ ٩١١ هـ) الأشباه والنظائر في النحو ، حيدرآباد ، مطبعة دار المعارف العثمانية ط ٢ ، ١٣٥٩ هـ .
٤٤ ـ السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (+ ٩١١ هـ) الإتقان في علوم القرآن ، القاهرة ، مطبعة حجازي ، ط ٣ ، ١٩٤١ م .
٤٥ ـ الشريشي ، أحمد بن عبد المؤمن (+ ٦١٩ هـ) ، شرح مقامات الحريري ، بيروت ، دار الكتب العلمية ط ١ ، ١٩٧٩ م .
٤٦ ـ الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم (+ ٥٤٨ هـ) ، الملل والنحل ، تحقيق

محمد سيد كيلاني ، بيروت ، دار المعرفة ، ط ٢ ، ١٩٧٥ م .
٤٧ ـ الطباطبائي ، محمد حسين ، الميزان في تفسير القرآن ، بيروت . دار الأعلمي ، ط ٣ ، ١٩٧٣ م .
٤٨ ـ طرفة بن العبد ، (+ ٦ ق . هـ ، ٥٦٤ م) الديوان ، بيروت ، دار صادر ، ط ١٩٦١ م .
٤٩ ـ عبد الواحد بن علي (+ ٣٥١ هـ) مراتب النحويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مكتبة نهضة مصر ، ط ١٩٥٥ م .
٥٠ ـ الفاكهي ، عبد الله بن محمد (+ ٩٧٢هـ) ، الحدود النحوية ، لا معلومات عن النشر أبداً .
٥١ ـ الفرّاء ، يحيى بن زياد (+ ٢١٧ هـ) ، معاني القرآن ، تحقيق أحمد نجاتي وغيره ، دار الكتب المصرية ، ط ١٩٥٥ م .
٥٢ ـ الفيروزابادي (٨١٧ هـ) القاموس المحيط ، بيروت ، مكتبة التربية ط ١٩٥٢ م .
٥٣ ـ القالي ، إسماعيل بن القاسم (+ ٨١٧ هـ) ، الأمالي ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ط ٣ ، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ م .
٥٤ ـ القرآن الكريم .
٥٥ ـ القفطي ، علي بن يوسف (+ ٦٤٦ هـ) ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط ١٩٥٠ م .
٥٦ ـ المظفَّر ، محمد رضا ، المنطق ، النجف ، مطبعة النعمان ، ط ٣ ، ١٩٦٨ م .
٥٧ ـ المظفَّر ، محمد رضا ، أصول الفقه ، النجف الأشرف ، مطبعة النعمان ، ط ٣ ، ١٩٧١ م .
٥٨ ـ ياقوت الحموي ، (+ ٦٢٦ هـ) ، إرشاد الأديب إلى معرفة الأريب ، مصر ، تحقيق الدكتور مرجليوث ، ط ٢ ، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦ م .

---

(١) حسب الترتيب الألفبائي .

المراجع[1]

١ ـ أبو المكارك ، علي ، الظواهر اللغوية في التراث النحوي ، القاهرة ، الحديثة للطباعة ، ط ١ ١٩٦٨ م .

٢ ـ أبو المكارم ، علي ، أصول التفكير النحوي ، الجامعة الليبية ، كلية التربية ، ط ١٩٧٣ م .

٣ ـ الأفغاني ، سعيد ، في أصول النحو ، دمشق ، المطبعة الجامعية ط ٢ ١٩٥٧ م .

٤ ـ الأفغاني ، سعيد ، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، دمشق ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٩٦٠ م .

٥ ـ أمين ، أحمد ، فجر الإسلام ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط ١٠ ، ١٩٦٩ م .

٦ ـ أمين ، أحمد ، ضحى الإسلام ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط ١٠ لا . ت .

٧ ـ انيس إبراهيم ، من أسرار اللغة ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥١ م .

٨ ـ انيس ، إبراهيم ، اللهجات العربية ، القاهرة مكتبة دار الفكر العربي ، ط ١٩٤٧ م .

---

(١) حسب الترتيب الألفبائي .

٩ - البرقوقي ، عبد الرحمن ، شرح ديوان المتنبي ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، لا . ت .

١٠ - بروكلمان ، كارل ، تاريخ الأدب العربي ، تعريب عبد الحليم النجار ، القاهرة ، جامعة الدول العربية ، ط ١٩٥٩ م .

١١ - بشر ، محمد كمال ، قضايا لغوية ، القاهرة ، دار الطباعة القومية ، ط ١٩٦٢ م .

١٢ - بلاشير ، رجيس ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٩ م .

١٣ - بيضون ، وزكار ، تاريخ العرب السياسي ، بيروت دار الفكر ، ط ١ ١٩٧٤ م .

١٤ - ترزي ، فؤاد ، في أصول اللغة والنحو ، بيروت ، مطبعة دار الكتب ط ١٩٦٩ م .

١٥ - حتي ، فيليب ، تاريخ العرب المطول ، بيروت ، دار غندور للطباعة والنشر ، ط ١٩٧٤ م .

١٦ - حسن ، عباس ، اللغة والنحو بين القديم والحديث ، مصر ، دار المعارف ، ط ١٩٦٦ م .

١٧ - حسن ، عبد الحميد ، القواعد النحوية مادتها وطريقتها ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو أميركية ، ط ١٩٥٢ م .

١٨ - حسّان ، تمّام ، مناهج البحث في اللغة ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو مصرية ط ١٩٥٥ م .

١٩ - حسّان ، تمّام ، اللغة بين المعيارية والوصفية ، القاهرة مكتبة الأنجلو مصرية ط ١٩٥٨ م .

٢٠ - الحسني ، عبد الصاحب ، قصص الأنبياء ، بيروت ، دار الأعلمي ، ط ٢ ١٩٧٩ م .

٢١ - حمّودة ، عبد الوهاب ، اللهجات والقراءات ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ١٩٤٨ م .

٢٢ ـ داود ، أقليمس ، اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ط ١٨٩٧ م .
٢٣ ـ دائرة المعارف الإسلامية ، تعريب الفندي ، الشنتناوي ، خورشيد ، يونس .
٢٤ ـ دمشقية ، عفيف ، تجديد النحو العربي ، بيروت ، معهد الإنماء العربي ، ط ١ ، ١٩٧٦ م .
٢٥ ـ الرافعي ، مصطفى صادق ، تاريخ آداب العرب ، القاهرة ، مطبعة الأخبار ، ط ١٩١١ م .
٢٦ ـ الراوي طه ، نظرة في النحو ، مقال وارد في مجلة المجمع اللغوي العربي ، ج ١٤ ص:
٢٧ ـ الزركلي ، خير الدين ، الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٤ ، ١٩٧٩ م .
٢٨ ـ الزيات ، أحمد حسن ، تاريخ الأدب العربي ، بيروت ، دار الثقافة . لا . ت .
٢٩ ـ زيدان ، جرجي ، (+ ١٩١٤ م)، تاريخ آداب اللغة العربية ، مصر ، ط ١٩١٣ م ١٩١٤ م .
٣٠ ـ السامرائي ، إبراهيم ، النحو العربي ، نقد وبناء ، بيروت ، دار الصادق ، ط ١٩٦٨ م .
٣١ ـ السامرائي ، إبراهيم ، التطوُّر اللغوي التاريخي ، جامعة الدول العربية ، ط ١٩٦٦ م .
٣٢ ـ السامرائي ، عامر رشيد ، آراء في العربية ، بغداد ، مكتبة النهضة ، ط ١٩٦٢ م .
٣٣ ـ الصالح ، صبحي ، مباحث في علوم القرآن ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٨ ، ١٩٧٤ م .
٣٤ ـ الصالح ، صبحي ، دراسات في فقه اللغة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٧ ، ١٩٧٨ م .
٣٥ ـ الصالح ، صبحي ، علوم الحديث ومصطلحاته ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٨ ، ١٩٧٥ م .

٣٦ ـ الضعيف ، رشيد ، محاضرات في الألسنية ، بيروت كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، (أمالي عام ١٩٧٧ م) .
٣٧ ـ ضيف ، شوقي ، تاريخ الأدب العربي ، مصر ، دار المعارف ، وهو أربعة أجزاء على الشكل التالي :
٣٨ ـ ضيف ، شوقي ، العصر الجاهلي ط ٦ ، ١٩٧٤ م .
٣٩ ـ ضيف ، شوقي ، العصر الإسلامي ط ٥ ، ١٩٧٢ م .
٤٠ ـ ضيف ، شوقي ، العصر العباسي الأول ط ٦ ، ١٩٧٦ م .
٤١ ـ ضيف ، شوقي ، العصر العباسي الثاني ط ٢ ، ١٩٧٥ م .
٤٢ ـ ضيف ، شوقي ، المدارس النحوية ، مصر ، دار المعارف ، ط ٤ ، ١٩٧٩ م .
٤٣ ـ طحّان ، ريمون ، الألسنية العربية ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ط ١ ١٩٧٢ م .
٤٤ ـ طلس ، محمد أسعد ، وضع النحو ، وهو مقال وارد في مجلّة المجمع العلمي العربي مجلد ١٤ ، ص: ٢٧١ ـ ٢٧٦ .
٤٥ ـ الطنطاوي ، محمد ، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، القاهرة مطبعة السعادة .
٤٦ ـ علامة ، طلال ، الطبقة والنحو ، بيروت ، دار الفكر اللبناني ، ط ١٩٩٢ م .
٤٧ ـ علي ، جواد ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ط ١٩٥٧ م .
٤٨ ـ العقيقي ، نجيب ، المستشرقون ، مصر ، دار المعارف ، ط ٣ ، ١٩٦٥ م .
٤٩ ـ عون ، حسن ، اللغة والنحو ، الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٥٢ م .
٥٠ ـ عون ، حسن ، تطوُّر الدرس النحوي ، معهد الدراسات العربية ط ١٩٧٠ م .
٥١ ـ فريحة ، أنيس ، نظريات في اللغة ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ط ١٩٧٣ م .
٥٢ ـ فون ، كريمر ، الحضارة الإسلامية ومدى تأثُّرها بالمؤثرات الأجنبية ، تعريب بدر ، نشر دار الفكر العربي . لا . ت .
٥٣ ـ فليش مقدمة لدراسة اللغات السامية ، باريس ، ١٩٤٧ م .

٥٤ ـ ڤندريس ، اللغة ، ترجمة الدواخلي ، والقصّاص . القاهرة ، مكتبة الأنجلو مصرية ط ، ١٩٥٠ م .
٥٥ ـ كريدية، هيام ، محاضرات في الألسنية ، (علم الصوت) بيروت ، الجامعة اللبنانية كلية الآداب ، (أمالي عام ١٩٧٧ م .) .
٥٦ ـ الكرملي ، إنستاس ماري ، نشوء العربية ونموها واكتمالها ، القاهرة ، المطبعة العصرية ، ط ١٩٣٨ م .
٥٧ ـ الكنغراوي ، صدر الدين ، الموفي في النحو الكوفي ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، لا . ت .
٥٨ ـ لواساني ، أحمد ، مدخل إلى الفارسية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٧ م .
٥٩ ـ المبارك ، مازن ، النحو العربي ، أو العلّة النحوية ، ونشأتها ، وتطورها بيروت ، دار الفكر ، ط ١٩٧١ م .
٦٠ ـ محمّدي ، محمد ، الأدب الفارسي ، بيروت الجامعة اللبنانية ، كلية الآداب ، ط ١٩٦٧ م .
٦١ ـ مخزومي ، مهدي ، في النحو العربي ، صيداء ، المكتبة العصرية ، ط ١ ، ١٩٦٤ م .
٦٢ ـ مصطفى ، إبراهيم ، إحياء النحو ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ١٩٥٩ م .
٦٣ ـ نظيف ، مصطفى ، نشأة النحو العربي ، مقال في مجلة المجمع اللغوي ج ٧ ص: ٢٤٢ .
٦٤ ـ وافي ، علي عبد الواحد ، علم اللغة ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ط ٤ ، ١٩٥٧ م .
٦٥ ـ ولفنستون ، إسرائيل أبو ذؤيب ، تاريخ اللغات السامية ، القاهرة مطبعة الاعتماد ، ط ١ ، ١٩٢٩ م .

المراجع الأجنبية

1 - Encyclopédie de l'Islam nouvelle édition. 1978.

2 - Fleisch; H. Introdution á létude des langues sémitiques. Paris. 1947.

3 - Blacher, Histiore de la littérature arabe. des origines á la fin du X Ve Siécle J - C. Paris 1952.

المقالات الأجنبية

1 - Fleisch; H. Arabe classique, et Arabe dialectal; travoux et jours 12 (1964). P. P 33 - 62.

2 - Fleisch. observation sur les études philologiques arabe classique; Orient (1963). P. P 134 - 144.

3 - Brockelmann; C. probléme de la Racine; 5cong, int. ling 1939. Réponses ou questionnaire P. P. 15 - 16.

4 - Cohen, D. Koine; langues communes et dialectes arabes, Arabica 9 (1963) P. P 119 - 144.

فهرس الأعلام(1)

---

(1) حسب الترتيب الألفبائي .

فهرس المدن والحواضر والقرى والأماكن(1)

---

(1) حسب الترتيب الألفبائي

فهرس الشعوب والقبائل والعائلات(1)

(1) حسب الترتيب الألفبائي.

فهرس الأبيات الشعرية والأمثال

اسم الشاعر	البيت		رقم الصفحة
امرؤ القيس	يا راكباً بلّغ إخواننا	من كان من كندة أو وائل	٥٤
امرؤ القيس	لها متنتان خظاتا كما	أكبّ على ساعديه النمر	٥٤
امرؤ القيس	فاليومَ أشربْ غير مستحقب	إثماً من الله ولا واغل	٥٤
طرفة بن العبد	....	فقد رفع الفخ فماذا تحذري	٥٤
النابغة الذبياني	من آل مية رائح أو مغتد	عجلان ذا زادٍ وغير مزوّدِ	٥٥
النابغة الذبياني	زعم البوارح أن رحلتنا غداً	وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ	٥٥
أمية بن أبي الصلت	قمر وساهور يسلُّ ويغمد	....	٥٥
أبو الأسود الدؤلي	ولست بنحوي يلوك لسانه	ولكن سليقي أقول فأعرب	١٣٩،٣٦

فهرس الأمثال

اسم القائل	المثـــل	رقم الصفحة
ملك اليمن	من دخل ظفار حمّر	٤٩
أبو الأسود الدؤلي	إني لأجد للّحن غمراً كغمر اللحم	٦٥
أبو بكر الخليفة	لئن أقرأ فأُسْقط أحبُّ إليَّ من أن أقرأ فألحن	٧٠، ٩٢

فهرس الأزمنة والمواقيت والتواريخ[1]

(١) حسب الترتيب الألفبائي .

فهرس الآيات الكريمة(١)

(١) حسب الترتيب الألفبائي بالنسبة « للسور » .

السورة ورقمها ورقم الآية	القسم المستشهد به من الآية	رقم الصفحة
التوبة ٩/٧٢	﴿رضوان من الله أكبر﴾	٩٥
الحاقة ٦٩/٢٧	﴿يا ليتها كانت القاضية﴾	٧٤
الحاقة ٦٩/٣٧	﴿لا يأكله إلاّ الخاطئون﴾	٨٦، ٩٣ ١١٨، ١٢٠، ١٤٩
الرعد ١٣/٣٧	﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾	١٠٩
الزخرف ٤٣/٣	﴿إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾	١٠٩
الزمر ٣٩/٩	﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾	١١٣
الزمر ٣٩/٢٨	﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾	١٠٩
الشعراء ٢٦/١٩٥	﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾	١٠٩
الشورى ٤٢/٧	﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها﴾	١٠٤، ١٠٩
طه ٢٠/١١٣	﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد﴾	١٠٩
فاطر ٣٥/٢٨	﴿إنّما يخشى الله من عبادة العلماء﴾	٧٦، ٩٧، ١٥٨
فصّلت ٤١/٣	﴿كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾	١٠٩
فصّلت ٤١/٤٤	﴿أأعجمي وعربي﴾	١٠٩
قريش ١٠٦/٢	﴿إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾	٤٩
القصص ٢٨/٥٩	﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً﴾	١٠٤
محمد ٤٧/٣٠	﴿ولتعرفنّهم في لحن القول﴾	٦٢
النحل ١٦/١٠٣	﴿وهذا لسان عربي مبين﴾	١٠٩
هود ١١/١٣	﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾	١٠٤
يوسف ١٢/٢	﴿إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾	١٠٩
يونس ١٠/٣٨	﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله﴾	١٠٥

فهرس الأحاديث الشريفة[1]

(١) حسب الترتيب الألفبائي للكلمة الأولى في الحديث.

فهرس الموضوعات

الباب الثاني

العوامل التي أدّت إلى وضع النحو العربي

الباب الثالث

أثر القرآن في وضع النحو

الباب الرابع
تاريخ النحو العلمي